فاضل الربيعي

جبريل والنبي

جداول Jadawel



فاضل الربيعي

جبريل والنبي

جداول Jadawel

الكتاب: **جبريل والنبي**
المؤلف: **فاضل الربيعي**

جداول
للنشر والترجمة والتوزيع
رأس بيروت ـ شارع كراكاس ـ بناية البركة ـ الطابق الأول
هاتف: 00961 1 746638 ـ فاكس: 00961 1 746637
ص.ب: 5558ـ13 شوران ـ بيروت ـ لبنان
e-mail: d.jadawel@gmail.com
www.jadawel.net

الطبعة الأولى
حزيران/يونيو 2014
ISBN 978-614-418-200-0

طبع في لبنان

Caracas Str. - Al-Baraka Bldg.
P.O.Box: 5558-13 Shouran
Beirut - Lebanon
First Published 2014 Beirut

تصميم الغلاف: محمد ج. إبراهيم

المحتويات

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل الأول

كيف تعرّف النبيّ ﷺ على جبرائيل؟

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾

[الأنعام: 9]

ماذا يحدث للملاك السماويّ حين يتحول إلى رجل (بشريّ)؟ وهل يمكن له أن يظل ـ في الآن ذاته ـ سماويًا وبشريًا؟ أمّ أنه سوف يصبح بشريًا إلى النهاية ويخسر قدرته على العودة إلى السماء؟ وهل تنجم عن هذا التحوّل مأساة دينية محزنة، نشاهد فيها فصولًا من عذاب الملاك الذي فقد امتيازه ككائن سماويّ، وفصولًا أخرى موازية من عذاب الشخص البشريّ الذي تقمّص هيئته؟ قد تبدو مثل هذه الاسئلة افتراضية. وهذا صحيح لولا أنها كانت مثارة ذات يوم من تاريخ الإسلام، حين علم المسلمون في مطلع الدعوة الإسلامية بيثرب، أن جبرائيل هبط من السماء والتقى النبيّ ﷺ وهو في صورة رجل يدعى دحية الكلبيّ. ولعل الآية القرآنية هنا، هي التي تتولى تفصيل حدود الالتباس الذي رافق التحوّل وتلازم مع المأساة. لكن، إذا ما تحوّل ملاك الرّب القادم من السماء إلى رجل، فهل يعني ذلك أنه فقد كل مصدر من مصادر قوته، وأصبح كائنًا فيه من الضعف ما للبشر؟

ثمة تراجيديا دينية كبرى في تاريخ الإسلام عن تحوّل الملاك إلى إنسان، سجلتها المرويات العربية الإسلامية في مئات المصادر، لكنها لم تلفت انتباه دارسي الأدب القديم، ولا كتّاب التاريخ كذلك. ومع هذا، سوف تظل ـ برأينا ـ واحدة من أعظم التراجيديات الأدبية القديمة المكتوبة

بلغة التاريخ الديني؛ فهي تتحدث عن مأساة جبرائيل يوم هبط من السماء والتقى النبيّ ﷺ، ثم أصبح رجلًا له اسم بشري وينتسب لقبيلة من قبائل العرب. وهذه التراجيديا التي كتبت كسردية تاريخية، دخلت في صلب التاريخ الرسمي للإسلام، وأضحت جزءًا عضويًا من الرواية السائدة عن النبي ﷺ وعلاقته بالوحي السماوي. بيد أنها قد لا تكون حدثت في الواقع قط، ذلك أن الشخصية التي يُزعم أنها لعبت الدور المركزي فيها، هي شخصية لا وجود لها، وقد تكون من تلفيق رواة العصر الأموي. وهؤلاء قدّموا تأويلات تعسفية لنصوص القرآن، لا عدّ ولا حصر لها، ومنها تأويل الآية التي تتحدث عن تحوّل الملاك إلى رجل بشري.

وفي سياق هذا التحوّل، فقد الملاك قوته وأصبح عرضة لاضطهاد أشرار العرب. إن حادث الاعتداء الجسدي على جبرائيل في صورته البشرية، هي ذروة التراجيديا الدينية في الإسلام المبكر، فقد هاجمته عصبة من أشرار قبائل العرب في طريق عودته من بصرى الشام، بعد أن حمل رسالة النبي ﷺ لهرقل، ونجم عن الاعتداء بالضرب المبرّح، أن سلبت هدايا هرقل للنبي ﷺ، كما تمزقت ثيابه ولم يُترك له سوى خرقة لستر عريه.

في تفسير القرطبي[1] لهذه الآية نقرأ التالي: (كانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة البشر، فأتوا إبراهيم ولوطًا من قبل في صورة الآدميين، وأتى جبريل[2] النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي).

(1) تفسير القرطبي ج6/ 394.

(2) للعرب في جبريل لغات، فأهل الحجاز كافة يقولون في جبرائيل - جبريل، وميكال في ميكائيل، بغير همز، وبكسر الجيم والراء من جبريل وبالتخفيف. وقرأ ذلك عامة قرّاء أهل المدينة والبصرة. أما قبائل تميم وقيس وبعض نجد فيقولون جَبرئيل وميكائيل بفتح الجيم والراء. كما بهمز الاسم في بعض الحالات، وبزيادة ياء بعد الهمزة. وعامة قرّاء أهل الكوفة قرأوا بهذه اللغة. قال جرير:

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد وبجَبرَئيل وكذبوا ميكالا

(ديوان جرير: 450، ونقائض جرير والأخطل: 87).

فمنْ هو دحية هذا الذي زعم المسلمون الأوائل، أن جبرائيل كان يأتي من السماء في صورته، وأنّ النبي ﷺ كان يهرع للقائه كلّما جاء للمسجد؟ وأن هذه الآية نزلت لنزع الشكوك التي راودتهم عنه حين سمعوه يقول: هذا جبرائيل جاء يعلّمكم دينكم؟ مثل هذه الأسئلة الحائرة ستظل دون جواب، لأنها تولّد بدورها أسئلة جديدة أكثر إحراجًا، وتتعلق بمسألة وجود شخصية تاريخية حقيقة تدعى دحية الكلبي، زعم الرواة أنه كان من كبار الصحابة، وأن آية ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾[1] نزلت بحقه؟ فهل اخْتلقَ المسلمون الأوائل هذه الشخصية العجائبية؟ وهل كانوا وراء إنشاء هذه التراجيديا الدينية ولماذا؟ وكيف ولأيّ غرض، لفّقوا أحاديث يُفهم منها أنه لم يكن يشبه جبرائيل وحسب؛ بل هو نفسه جبريل، وقد جاء من السماء ليعلّمهم دينهم؟ يبدو أنّ ما لم تقلهُ هذه المرويات والأحاديث صراحة، هو ـ وعلى وجه التحديد ـ أن هناك تراجيديا دينية عظيمة تدور حول مسألة تحوّل ملاك الرّب إلى رجل، وهذا ما تؤكده الآية، وأنها تتعلق بشخص ما، سواء أكان حقيقيًا أم من مُختلقات المفسّرين، وأنها في نهاية المطاف تراجيديا دينية ترتبط بقصة الإسلام نفسه. إن التفاسير الكثيرة التي حظيت بها هذه الآية من السورة، ومنها تفسير القرطبي، يفيد صراحة أن الملاك السماوي إذا ما هبط إلى الأرض؛ فإنه يهبط في صورة بشرية كاملة، وأن هذا الحدث سبق له أن حدث في حياة أنبياء آخرين، ليس النبي ﷺ استثناء منهم، وأن ملاك الإسلام هذا تعرض لاضطهاد بشريّ، عدوان غير مسبوق.لقد جرى انتهاك فظيع لحرمته (قداسته) مرتين، مرة بوصفه الملاك جبرائيل، وأخرى بوصفه الصحابي دحية الكلبي. إن التراجيديات الدينية السابقة التي عرفها العرب، كانت تدور حول موضوع الانتهاك الجنسي ومحاولات اغتصاب الملاك، كما هو الحال مع الملائكة الذين أرسلوا إلى قوم لوط، ولم تكن تدور في نطاق تحوّلهم إلى بشر.

سأقدّم في هذا الكتاب، قراءة جديدة لبعض وسائل وطرائق عمل الميثولوجيا الإسلامية، بهدف إعادة بناء المرويات الدينية والتاريخية، ومنها

(1) سورة الأنعام، الآية 9.

المرويات الأسطورية الخاصة بشخصية دحية الكلبي؛ وذلك بهدف كشف المسكوت عنه في منطوق سائر الأساطير في التاريخ الإسلامي، وهي أساطير أشاعها وروّج لها فقهاء وقرّاء قرآن، بعضهم يتمتّع باحترام عظيم ومكانة فريدة في تاريخ الفقه قد لا يستحقونها.

وباستخدام تعبير القرطبي في تفسير معنى لو نزل ملك لرأوه في صورة رجل، أن الملاك إذا ما نزل على عادته في مظهره السماوي؛ فإن البشر لن يتمكنوا من رؤيته مهما حاولوا (فإذا جعلناه رجلًا، التبس عليهم، فكانوا يقولون هذا ساحر مثلك)[1]. وهذا تفسير محيّر بالفعل، فهبوط الملاك بصورته السماوية غير ممكن إلا في صورة بشرية، كما أن مجيئه يصبح ـ في هذه الحالة ـ لغرض محدّد هو إثارة الالتباس بين البشر، وبحيث لن يتمكنوا من التعرّف عليه بوضوح: هل هو ملاك سماويّ في هيئة رجل، أم رجل في هيئة ملاك؟ فما الغرض من هذا التحوّل؟ وما هي وظيفة هذا النوع من التراجيديا الدينية؟برأي القرطبي، إن القصد من ذلك، أن يلتبس الأمر فيقولون للنبيّ ﷺ إنه ساحر مثلك؟ فهل هذا تفسير معقول، وما الحكمة من ذلك، ولماذا يصبح الملاك مصدرًا للبس يطال شخصية النبيّ ﷺ؟ لاشك أن هذا التفسير غير المقبول مستمد من أجواء سادت فيها مزاعم القرشيين وبعض العرب عن النبيّ ﷺ، وقيل خلالها إن دينه نوع من سحر الكهان، ولا صلة له بمنطوق الآية. ومع هذا فهي تقصد بوضوح، أنَّ تجسّد الملاك في صورة رجل سوف يؤدي إلى تضارب في التصورات والأفكار. لكن: هل هو رسول اللَّه للرسول، أم رسول اللَّه للبشر يعمل سوية معه؟ في الواقع لم يكتفِ مفسّرو القرآن بتقديم تأويلات متنوعة ومُتخيّلة لوظائف هذه المماهاة بين الملاك والرجل، ولا بإضافة وقائع لا أصل لها، وإنما قاموا من الناحية الفعلية بإنشاء نصوص ميثولوجية (أسطورية) تبدو مستقلة تمامًا عن النص القرآني. ومن المؤكد أن الفقهاء من المتأخرين شعروا بالحرج من وجود هذه الشخصية الخيالية في التراث الديني للإسلام، فسعوا بكل الوسائل لإظهار أن المسألة

(1) القرطبي، المصدر نفسه.

لا تتعلق بتجسّد الملاك في صورة رجل، وإنما في وجود شبه وحسب، بين رجل يدعى دحية الكلبي وجبرائيل، وأن هذا الشبه لاحظه النبيّ ﷺ. وقد أخذت واقعة تشبيه النبي ﷺ لدحية بجبرائيل بُعدًا أسطوريًا كاملًا، حين صوّرته بعض تفاسير القرآن ملكًا من الملوك العرب، وأنه قبل اللقاء معه كان مسلمًا تحت يده سبعون من أهل بيته يؤمنون بإسلامه[1]. بيد أنهم، وأثناء العمل المنظّم لإنشاء سرديات إخبارية عن حدود العلاقة بينه وبين النبيّ ﷺ قاموا باختلاق وقائع زائفة، زادت من الغموض والالتباس. ولذلك أصبحت قصة دحية في المؤلفات التاريخية، سردًا لاتاريخيًّا لقصة إسلامه في المسجد حين جاء لأول مرة. وهذا ما نراه في نص حقي[2] الذي يؤسّس رؤيته للآية (ولمجمل ما جاء في السورة) على قراءة شعبويّة، وربما عاميّة للنص الديني، فيها الكثير من الخيال والتلفيق وممّا لا أصل له في تاريخ الإسلام. يقول حقي[3]: (حكي أن رسول اللّه ﷺ كان يحب إسلام دحية الكلبي، لأنه كان تحت يده سبعمائة من أهل بيته وكانوا يسلمون بإسلامه). وهذه رواية لا سند لها وهي من اختلاق المفسّرين الإسلاميين المتأخرين.

ومع ذلك، فهي تتضمن عناصر مؤسسة للتراجيديا الدينية، فهو ليس ملاكًا وحسب، وإنما هو ملك بشريّ. وهذه مماهاة مدهشة ذات بُعد يتصل بالتلاعب اللغوي، والخلط المتعمّد بين كلمة ملاك وملك. بيد أن الآية وتفاسيرها الكثيرة، تلخّص مع ذلك وببلاغة تامّة الفكرة التالية: كان النبي ﷺ[4] يقول للصحابة ولكثير من المسلمين كذلك، بمن فيهم بعض

(1) تفسير حقي: **روح البيان في تفسير القرآن**: ج1/ 240.

(2) تفسير حقي: كذلك.

(3) هو إسماعيل حقي البروسوي ابن الشيخ مصطفى الإستانبولي الآيدوسي الحنفي الجلوتي أبو الفداء. ولد في آيدوس سنة 1063 هـ وتوفي في بروسا سنة 1137هـ وعمره أربع وسبعون سنة. له مصنفات في شتى العلوم منها بالعربية والتركية وبلغت نحو ستين كتابًا.

(4) ابن عربي: **أحكام القرآن** :ج 3/ 231: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ مَا كُنْت بِأَعْلَمَ بِهِ مِنْ رَجُلٍ مِنْكُمْ، وَإِنَّهُ لَجِبْرِيلُ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي صُورَةِ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ، يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ .

زوجاته، أن الملاك جبرائيل - جبريل يتمّثل له في هيئة رجل يدعى دحية الكلبي، وكان هذا شابًا خارق الجمال حسب مزاعم الإخباريين. ولذا شاع في يثرب، حسب قول لابن عباس، إن دحية ما أن يظهر في أزقة المدينة، حتى تتسابق الفتيات لرؤيته (فلم تبق مُعْصِر - أي على وشك الحيض - إلَّا وخرجت إليه). لقد كان الملاك في لحظات تحوّله الأولى، قادرًا على الاحتفاظ بجماله السماويّ الخارق، وربما بشيء من قوته، وذلك ما يتضح من اشتراكه في القتال مع المسلمين ضد وثنييّ قريش.

لقد تفنَّن المفسرون في رواية قصص وأخبار لا حصر لها عنه، استنادًا إلى أحاديث ابن عباس نقلًا عن النبي ﷺ، وجرى بانتظام ودون توقف تقريبًا، تصوير هذه الشخصية الغرائبية كصحابي حقيقي عاش حتى عصر معاوية. كما جرى في السياق ذاته، التركيز - دون أدنى تدقيق في الوقائع وتسلسلها - على رحلته إلى بصرى الشام، حاملًا رسالة من النبي ﷺ إلى قائد حاميتها البيزنطي لنقلها إلى القيصر، وكيف أن قائد الحامية العسكرية أوشك أن يؤمن بدعوة النبي ﷺ، قبل أن يمنعه البطارقة الكبار من إشهار إيمانه. وأكثر ما يستوقف الباحث في (تاريخيّة) دحية الكلبي الملفّقة، أن رواة الأحاديث والأخبار، لم يكونوا يملكون عنه أي معلومات صحيحة أو ذات قيمة علمية،وهو ما يبعث على الظن دون تردد،أن العناصر الأسطورية في بناء الشخصية، ظلت أقوى من العناصر التاريخية الموثَّقة والمؤكدة، وأكثر من ذلك، إن فكرة تجسّد الملاك في هيئة رجل يعيش بين المسلمين، ويحمل رسالة من النبيّ ﷺ إلى قيصر بيزنطة هرقل، بدت فكرة خالية من أي منطق تاريخي، وأقرب ما تكون إلى التراجيديا الدينية. ويبدو أن تمثّل الملاك قد التبس على كثيرين، فأثار اللغط والتساؤلات وحتى الشكوك. وهو أمر تولَّت السورة الكريمة شرحه بقوة بلاغية رائعة. كما يُفهم من جملة مرويات إسلامية سائدة ورائجة، أن جبرائيل وصل إلى الأرض من السماء، ثم تجسّد في صورته البشرية عندما كان النبي ﷺ في يثرب، وأن بعض المسلمين شاهدوه وقد تمثّل في هيئة دحية الكلبي،وتعرّفوا إليه خلال معارك كبرى مثل الهجوم على يهود بني قريظة في الطائف. وقبل هذا الوقت بقليل، لم تشهد الجماعة الإسلامية الصغيرة

المهاجرة آنئذٍ من مكة إلى يثرب،أي نقاش له قيمة حول مسألة طبيعة الوحي ولا كيفيّة تجلّي الملائكة، ولم تكن تعرف تقريبًا أي فكرة عميقة عن وصول جبرائيل إلى الأرض. إن كل ما كان سائدًا من أفكار وتصورات حول الوحي وعلاقة النبي ﷺ بالملائكة، لم يكن ـ نظرًا لظروف ولادة الإسلام الشاقة والمخاطر والأهوال المحيطة به ـ ليتجاوز نطاق التصورات العمومية السائدة والراسبة في الثقافة والمعتقدات الدينية عن هبوط الملائكة على الأنبياء، وخصوصًا في اليهودية والمسيحية، كما هو الحال مع قصص إبراهيم وداود ومريم[1]، وأنهم قد تمثلوا من قبل في هيئات آدمية.

ولم تكن مثل هذه التصورات غريبة عن مجتمع القبائل، فهي تتناقل في مروياتها الشفاهية وأشعارها ومعتقداتها الروحية،الكثير من الأخبار والقصص والمرويات عن هبوط الملائكة على الأنبياء. بيد أن أحدًا لم يزعم،لا تلميحًا ولا تصريحًا، أنه رأى الملاك رأي العين. كانت فكرة تجسّد الملاك السماوي في هيئة رجل من البشر، له اسم يعرف به وقبيلة بعينها ينتسب إليها، ويعيش وسط الناس كما لو أنه شخص منهم، جديدة كليًّا ولا سابق لها بأي شكل من الأشكال. وممّا ساهم في تصعيد النقاش، أن النبي ﷺ أكد للمسلمين دون تردد، كل ما سمعوه من تقولات وشائعات عن جبرائيل الذي يأتيه في صورة دحية الكلبي، ولم يكن هناك أحد من المسلمين، سمع أو عرف هذا الاسم من قبل. وحين انتشرت الشائعات في يثرب، قال النبي ﷺ إن دحية تاجر من تجار الشام أصبح مثلهم مسلمًا، وإن ما سمعوه عن تجلي جبرائيل في هيئته، أمر يتعلق بالشبه بينه وبين الملاك وحسب. وفي هذا الوقت أيضًا، كان واضحًا أن مصدر الالتباس يتعلق بأمور عديدة أخرى، أبعد بكثير من مجرد إطلاق فكرة وجود شبه بين الملاك والرجل، منها إن الدعوة الإسلامية لم تنتشر خارج مكة في هذا الوقت من النقاش؟ وهي لم تبلغ الشام بكل تأكيد، فمتى وصل الإسلام إلى الشام، وكيف تمكن دحية من اعتناق الدين الجديد، ومن أين جاء بالضبط، وكيف أصبح

(1) سورة مريم.

فجأة من أقرب الصحابة؟ ولماذا تجسّد أصلًا في صورة رجل غريب لا يُعرف على وجه الضبط، وكيف ظهر فجأة في حياة النبي ﷺ كشخص حميم؟ وتلك كانت مسألة ملتبسة وإشكاليّة بالفعل، لأن الدعوة إلى الإسلام كانت تمرّ في حالة مخاض عسير مع تعاظم عداء قريش للنبي ﷺ، وإرغامه على ترك مكة والهجرة صوب يثرب، فكيف وصل الإسلام إلى الشام؟ بينما كان النبي ﷺ يتوارى عن أنظار المشركين في مكة نفسها؟ لقد تبدى ظهور دحية الكلبي المفاجىء في حياة النبي ﷺ كنقطة تحول مذهلة في مسار الإسلام؛ فقد أصبح هناك تجسيد حقيقي وواقعي لملاك الرّب الذي ذكرته الأديان الكبرى من قبل، يمكنه أن يعيش بين البشر، وفقط بوصفه مجرد شبيه لا أكثر. ثم سرعان ما التبس الأمر أكثر فأكثر على بعض المسلمين، حين شاهدوه يدخل المسجد ويجلس قرب النبي ﷺ ركبته إلى ركبته.

جبرائيل في المسجد

كانت واقعة دخول جبرائيل المسجد في يثرب، قادمًا لتوّه من سفر طويل، ولكن من دون أن تتسخ ثيابه أو يعلو وجهه الغبار ـ وفوق ذلك، بدا نظيفًا ناصع البياض، ثيابه بيضاء وحصانه أبيض كما يصوّر في كل المرويات ـ مصدرًا جديدًا من مصادر الشكّ واللغط، فقد اتجه صوب النبي ﷺ مباشرة ففرش له رداءه وأجلسه، ثم راح يصغي إليه. أما بالنسبة للمسلمين، فقد بدا الأمر كله محيّرًا. لقد كانوا يرون رجلًا سماويًّا، ولكنه مثلهم ويحدثهم بكلام بشري. وما فتئ المسلمون يتساءلون حائرين بعد سماع الحديث الشريف، هل هو جبرائيل حقًّا تجسّد في صورة دحية، أم هو مجرد رجل عربي تبدى للنبي ﷺ ـ لشدة جماله ـ مُجسّدًا لصورة الملاك؟ وهي صورة رآها من قبل أثناء نزول الوحي في غار حراء، واستحال عليه وصفها أو تقريبها للأذهان؟ أم هو ـ في أفضل الحالات ـ شبيه به في الجانب المتعلق بهيئته البشرية المتخيّلة لا أكثر، وأن المسألة برمتها لا تتجاوز حقيقة أنه أراد تقريب صورة جبرائيل على نحو يمكّن المسلمين من تخيّله، ما داموا يسألون ـ ويلحّون في الطلب ـ أن يصف لهم هيئته التي رآها في الغار، وعجز عن وصفها لهولها وعظمتها؟ وهي طبقًا لحديث شريف، مستحيلة الوصف وغير قابلة لتقريبها للأذهان. دعونا نتوقف قليلًا ـ قبل التعرّف على أسطورة دخول دحية إلى المسجد وهي أسطورة إسلامية لا أصل لها ـ لنرسم صورة دقيقة عن الملاك الذي تجلى للنبي ﷺ في غار حراء. لقد أخبر النبي ﷺ بعد نزول الوحي، جماعة من المؤمنين المقرّبين بعضهم من يهود الطائف[1]، أنه طلب بنفسه من

---

(1) سنرى ذلك تاليًا حين نتحدث عن نقاش اليهود مع النبي ﷺ حول جبرائيل.

جبرائيل أن يسمح له برؤيته، لكنه وبعد طول انتظار، تلقى تحذيرًا بأن لا طاقة له على رؤيته في صورته السماوية. إنها صورة خارقة للخيال، لا مستحيلة الوصف وحسب، وغير قابلة لأن تتبدى قريبة من ذهن النبي ﷺ نفسه، فكيف له أن يصفها لمسلمين متحرّقين شوقًا لمعرفة هيئة الملاك السماوية؟ وحين أعاد الطلب عليه، تجلّى له الملاك في هيئته السماوية الحقيقية: كان أشبه بطائر هائل الحجم، مزيّن بالياقوت والجواهر، يشعّ نورًا سماويًا، فخرّ النبي ﷺ مغشيًا عليه. وعندما أفاق من الصدمة، أيقن أنه عصيّ على الوصف، وأن لاطاقة له على رؤيته، فالمسافة بين الجناحين لا تقاس بزمن أرضي؛ بل بزمن أسطوري. يقول الطبري[1] استنادًا لحديث عائشة في تفسير آية ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[2] أن النبيّ ﷺ رأى جبريل، له ستمئة جناح مزينة بالياقوت والجواهر والذهب. والمسافة ما بين الجناح والآخر خمسمئة عام. إن صورة الملاك، الطائر والرجل، تتبدى كصورة مذهلة، عصيّة على الوصف وغير مألوفة، وأشبه ما تكون بالحلم. والأمر المثير في تفسير الطبري، إشارته إلى حلم النبي ﷺ بجبرائيل قبل البعثة. وهذا يعني أنه رآه في الحلم قبل أن يكلّف بالنبوّة، وكان ذلك أول لقاء افتراضي. يقول الطبري: (وكان أوّل شأن رسول اللّه ﷺ أنه رأى في منامه جبريل عليه السلام بأجياد[3]، ثم إنه خرج ليقضي حاجته، فصرخ به جبريل: يا محمد؛ فنظر رسول اللّه ﷺ يمينًا وشمالًا فلم ير شيئًا ثلاثًا؛ ثم خرج فرآه، فدخل في الناس، ثم خرج، فرآه ـ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾. ويضيف الطبري: حدثنا مهران عن سفيان، عن الشيباني عن زرّ بن حبيش[4] عن ابن مسعود ـ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ـ قال: له ستمئة جناح، يعني جبريل عليه السلام.

(1) الطبري، جامع البيان: ج22/ 502(القاب: نصف الأصبع. وقال بعضهم: كان بينهما ذراعان).

(2) سورة النجم 9.

(3) أجياد (وتنطق جياد) حي تاريخي على مقربة من الكعبة.

(4) يجب أن يلفت انتباهنا اسم زر ـ بن حبيش ـ كاسم عربي ـ حجازي، فهو مماثل لاسم النبي اليهودي زر ـبيل الذي نظم عودة الأسرى من بابل. وفي الحجاز ونجد انتشر اسم زرارة(مثل زرارة بن عدس التميميّ).

وحدثنا إبراهيم بن سعيد، قال: حدثنا أبو أسامة، قال: حدثنا زكريا عن ابن أشوع[1]، عن عامر عن مسروق، قال: قلت لعائشة: ما قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾؟ فقالت: إنما ذلك جبريل، كان يأتيه في صورة الرجال، وإنه أتاه في هذه المرّة في صورته)[2].
كان اللقاء الأول بين النبي ﷺ وجبرائيل، حلمًا رآه في مكة قبيل البعثة النبوية، وربما كان الملاك نفسه وقبل أن يتحقق ويتجسّد في غار حراء، مجرد طيف عابر في حلم طويل وعظيم، لكنه كان حلمًا يتمتع بقابلية التحقق. وحين تراءى للنبي ﷺ، فقد تراءى له بجناحين هائلين كطائر أسطوري، سدًّا الأفق وأذهلاه لروعتهما فسقط مغشيًّا عليه، ثم خيّل له أنه يهيم بين الجبال فارًّا من وجهه. ولأن صورة جبريل في الحلم والواقع، كانت مزيجًا من ملاك وطائر ورجل، فقد اختلط الواقع بالحلم، ولم يعد ممكنًا، بالنسبة لكثير من المسلمين في بداية الأمر، التمييز بدقة بين الملاك والطائر والرجل. لكن ذلك لم يكن ليعيق، بأي شكل من الأشكال، إيمان المسلمين ـ وحتى المشركين ـ بأن الملائكة تهبط إلى الأرض في صور بشرية.

ذلك أن الثقافة الروحية التاريخية السائدة، كانت تغذي مثل هذه المعتقدات، ولذا، تقبّل المسلمون الصورة كما تلقوها من النبي ﷺ، فجبرائيل في آن واحد، ملاك، وطائر، ورجل. ثم تحدث النبي ﷺ بنفسه عن لقائه في صورته السماوية في اليوم التالي للإسراء[3]: (رأيْتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى لَهُ سِتُّ مئَة جنَاح). وهي صورة مطابقة تمامًا للصورة التي رآها في الحلم عندما كان يتحنَّثُ داخل غار حراء. ولذا أيضًا، تقبّل المسلمون رواية الإسراء وآمنوا بها وتبادلوا أسرارها الروحية المذهلة، وجادلوا لوقت طويل في صحتها. ومن المؤكد، استنادًا إلى مرويات كثيرة،

(1) كذلك اسم أشوع، فهو اسم إله يمني قديم ورد في نقوش المسند وفي التوراة في صورة أشوع ـ يشوع ومنه جاء الاسم يسوع.
(2) الطبري، المصدر نفسه.
(3) الطبري، كذلك: ص / 509.

أن العرب وبالفطرة الدينية التي جُبلوا عليها، ثم بقوة زخم الراسب الثقافي الروحي المستمر والمتواصل منذ إبراهيم النبي ﷺ، تقبلوا فكرة وجود كائن مزدوج ملاك ـ طائر، أو رجل ـ طائر، لكنهم لم يتقبلوا بسهولة، كما يبدو، فكرة تجسّده الكليّ في صورة إنسان، أي تحوّله إلى إنسان مثلهم ينتسب لقبيلة بعينها من قبائل العرب. وفي هذا الوقت، كان النبي ﷺ يخبر الصحابة والمسلمين أن جبرائيل أسرى به إلى السماء، وأنه أصعده على ظهر دابة (البراق) فكان ذلك مثيرًا للحيرة أكثر. يقول الطبري[1]: حدثنا أحمد بن أبي سُرَيج، قال: حدثنا الفضل بن عنبسة، قال: حدثنا حمّاد بن سَلمة، عن ثابت البُنَانيّ، عن أنس بن مالك، أن رسول اللّه ﷺ قال: (رَكِبْتُ البُرَاقَ ثُمَّ ذُهِبَ بي ـ جبريل ـ إلى سِدْرَة المُنتهَى، فَإِذَا وَرَقُها كآذَانِ الفِيلَةِ، وإذَا ثَمَرُها كالقلال. قال: فَلَمَّا غَشِيَها مِنْ أمْرِ اللَّه ما غَشيَها تَغَيَّرتْ، فَمَا أحَدٌ يَسْتَطيعُ أنْ يصِفَها مِنْ حُسْنها، قال: فأَوْحَى اللَّهُ إليّ ما أوْحَى).

كان هذا البلاغ كافيًا لشرح طبيعة المعضلة التي واجهها النبي ﷺ في وصف جبرائيل، لأنه غير قابل للتوصيف، مثله مثل شجرة سدرة المنتهى. وحين صعد معه[2] ليلة الإسراء، فقد أُسري به إلى السماء السابعة (فإذا هو برجل أشمط جالس على كرسيّ عند باب الجنة، وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس، وقوم في ألوانهم شيء، فقام الذين في ألوانهم شيء، فدخلوا نهرًا فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خَلَص من ألوانهم شيء ثم دخلوا نهرًا آخر فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خَلَصت ألوانهم، فصارت مثل ألوان أصحابهم، فجاءوا فجلسوا إلى أصحابهم، فقال: يا جبريل من هذا الأشمط ومن هؤلاء البيض الوجوه، ومن هؤلاء الذين في ألوانهم شيء، وما هذه الأنهار التي اغتسلوا فيها، فجاءوا وقد صفت ألوانهم؟ قال: هذا أبوك إبراهيم، أوّل من شَمِط على الأرض، وأما هؤلاء البيض الوجوه، فقوم لم يَلْبِسوا إيمانهم بظلم: وأما هؤلاء الذين في ألوانهم شيء فقوم

(1) الطبري، كذلك، ج 22 / 516.
(2) الطبري، كذلك، ج 24/ 144.

خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا فتابوا، فتاب اللّه عليهم. وأما الأنهار، فأوّلها رحمة اللّه، والثاني نعمة اللّه، والثالث سقاهم ربهم شرابًا طهورًا)[1]. ومن الواضح أن هذه الرواية مكتوبة في وقت متأخر من الإسلام، ولكن بوحي من معتقدات الصابئة المندائيين عن نهر اليردن ـ ها ـ يردن السماوي، وهو نهر أسطوري مقدّس يتطهّر فيه البشر مع الكائنات الأثرية (الأثيرية) في السماء، بينما توجد له صور أرضية عددها 360 نهرًا (واسم النهر نفسه ورد في التوراة، وفهم خطأ أنه نهر الأردن البلد العربي)[2]. إن مشاهدة النبي ﷺ للرجال من حول إبراهيم، وهم يغتسلون في النهر السماوي اليردنا ـ اليردنه، لا تضاهيها سوى الصور المندائية الكبرى للتطهير العظيم، فقد صعد النبي يحيى[3] إلى العالم السماوي ودعا أتباعه إلى أن يغتسلوا في اليردنا (ها ـ يردن). تقول الصلوات المندائية أن يوحنا قال للمسيح الطفل:

> تعال بسلام أيها الصبي الصغير. لقد دعوتك أمس قبيل النوم إلى يردنا ولن أخذلك اليوم؟ فيقول الصبي: قم بنا الى يردنا، الماء الحي، ابسط ذراعيك وخذني إليك واصبغني بصبغتك الحية التي بها تصبغ، واذكر عليّ الأسماء التي تذكر)[4].

كما أن هذه الصبغة السماوية بعد الاغتسال في النهر المقدس، لا تضاهى إلّا بالصورة القرآنية ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ

---

(1) الطبري، المصدر نفسه.

(2) كنزا ربه، الكتاب المقدس للصابئة المندائية، طبعة بغداد، مصدر مذكور.

(3) يحيى، يوحنا، يهيا يوهنا: آخر أنبياء المندائية، يلفظ العامة اسمه في المندائية (يهيا يهانا) وهو الاسم الآرامي ـ المندائي للنبي يحيى بن زكريا في المصادر العربية والإسلامية. ويدعى في المصادر اليهودية والمسيحية يوحنا المعمدان وهو نبي الصابئة المندائيين رسول الحي العظيم إلى الإنسان الذي أرسله الإله ليعيد مبدأ النور الأول إلى (ديانة آدم) ونشر التوبة والغفران. وكان لديه 360 تلميذًا (ترميذي)، ويعرف كتابه الديني بـ(دراشا اد ـ يهيا ـ تعاليم يحيى).

(4) كنزا ربه ـ المصدر نفسه.

عَـٰبِدُونَ ۞ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾[1]. ومن المؤكد أن عرب الحجاز ويثرب بشكل خاص، كانوا يعرفون إلى حدّ ما، وإنْ بشكلٍ غير منهجي، جوانب عامّة من الفلسفة المندائية العميقة التي كانت منتشرة في هذا العصر، وكان الإله النوراني العظيم هيبل ـ زيوا يحتل في هذه العقيدة الروحية، مكانة مماثلة لجبرائيل، فهو يدعى (واهب الضياء) كما يدعى رسول النور (شليها ـ اد ـ نهورا) أو رسول الماء الحي (شليها ـ اد ـ هيي). وكانت صورة جبرائيل النوراني، واهب الضياء الأزلي، لا تزال مستمرة في النسق الثقافي والروحي، منذ أن انتشرت الصابئية في اليمن (جنوب وجنوب غرب الجزيرة العربية) وفي أجزاء من الحجاز، وربما كان للعداء اليهودي التقليدي للصابئية، وهو عداء اكتسب مبرراته ودوافعه من جملة اعتبارات تتعلق بتصادم العقيدتين، أكبر الأثر في تراجع المندائية ثم تلاشيها. لقد اصطدمت اليهودية وفي وقت مبكر من صعود دورها كديانة قبلية، انتقلت من حيّز الأسرة (دين يعقوب) إلى المجال القبلي المفتوح (دين بني إسرائيل) وبشكل متدرّج وخلال عهود وأوقات مختلفة، بالفرق المندائية التي كانت تنادي بفلسفة ثنائية، بدت أعمق وأكثر جمالية من الشرعة اليهودية المتقشفة والبدوية، ولكنها لم تصطدم معها ـ على الأرجح ـ وبشكل مباشر، إلا على خلفية اعتمادها على فكرة جبرائيل كملاك نوراني عظيم، أي كملاك سلام، بينما نظرت اليهودية إليه كملاك حرب. ومن المحتمل أن النصرانية العربية (دين عيسى ابن مريم) استمدت هذه الصورة من المندائيين. وفي أجواء الصراع والتنازع الدموي، وبعد سلسلة اضطهادات قاسية تسبّب بها الخلاف الديني حول صورة جبرائيل بين اليهودية والنصرانية المسيحية، بدأت الفلسفة الروحية للمندائيين تذوي، ويتلاشى هيبل ـ زيوا إلى الأبد. إن إعادة قراءة نصوص ما يعرف بـ(لفائف البحر الميت) في ضوء هذا التصور، يمكن أن تكشف عن نوع وطبيعة الصراع العنيف الذي تفجّر بين المندائية واليهودية. ويتضّح من جملة معطيات

(1) سورة البقرة، الآيتان 138 ـ 139.

أن صورة جبريل المندائية مستمدّة - في الأصل - من قصة إله الخصب البشري الأول الذي جلب الحياة إلى الأرض، وجعلها صالحة لخلق ونشوء الإنسان الأول. لقد هبط هيبل - زيوا إلى عوالم الظلام لتقويض الشر والشيطان. وكان اسمه يطلق على (الصباغة الكبيرة) التي تعرف باسم (صباغة ملكا هيبل زيوا) وهي 360 صباغة. ولذلك احتفظ جبرائيل الصابئية - المندائية، بمكانة الملاك الكبير لأنه حافظ على النسل الحيّ في الأرض[1]. وفي نظام الملائكة، تصبح مرتبة جبريل هي مرتبة حامل الوحي. يقول الطبري في تأويله لآية (الصبغة: صبغةَ الإسلام. وذلك أنّ النصارى إذا أرادت أن تنصِّر أطفالهم، جعلتهم في ماء لهم تزعم أن ذلك لها تقديس، بمنزلة غُسل الجنابة لأهل الإسلام، وأنه صبغة لهم في النصرانية)[2]. في هذا الوقت، وحين قصّ النبي ﷺ على خديجة وبقية أصحابه في الجماعة الإسلامية الصغيرة، حلمه برؤية جبريل وأجنحته الستمائة، نزلت آية (صبغة اللّه) فأثارت بدورها لغطًا عن صابئيّة النبي، إذ زعم مشركو قريش أنه صبأ[3]،أي أصبح صابئيًا. وهذه الآية هي برأينا، المصدر الحقيقي لكل ما زعم في هذه المرحلة من تطور الإسلام عن صلته بمعتقدات النصارى والصابئيين، حيث احتلت صورة جبرائيل في الإسلام كدين جديد، وبخلاف اليهودية، مكانة متفرّدة وأصبحت لها قدسيّة استثنائية. ولذلك - وفقط من المنظور التاريخي - سوف تبدو كل المرويات والأحاديث عن دحية الكلبي، متناقضة بصورة يصعب التوفيق بينها، فإذا كان جبرائيل تجلّى للنبي ﷺ في غار حراء، فهذا يعني أنه تجلّى له في صورته السماوية وبحيث إنه حين رآه

---

(1) كنزا - ربه كذلك.

(2) الطبري، المصدر نفسه: (فقال اللّه تعالى ذكره - إذ قالوا لنبيه محمد ﷺ وأصحابه المؤمنين به: كونوا هودًا أو نَصارَى تَهتدوا -: قل لهم يا محمد: أيها اليهود والنصارى، بل اتبعوا ملة إبراهيمَ، صبغة اللّه التي هي أحسن الصِّبَغ، فإنها هي الحنيفية المسلمة، ودعوا الشركَ باللّه، والضلالَ عن محجَّة هُداه).

(3) فنزلت آية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ المائدة/ 69.

خرّ ساجدًا؟ فهل جاءه في صورته السماوية كطائر له ستمئة جناح؟ وفي هذه الحالة لن يكون لقاء غار حراء مجرد لقاء أول بين رسول الخالق إلى مخلوقه؟ لكن، إذا ما نُظر إليها من منظور الأسطورة؛ فإنها ستبدو ذات منطق خاص، سيؤدي لا محالة إلى التراجيديا الدينية، حين يفقد هذا الطائر بأجنحته الستمائة كل مصادر قوته، ويغدو عرضة لاعتداء البشر عليه. ومع هذا، لا بد من إعادة طرح السؤال نفسه: أين كان دحية الكلبي في هذا الوقت حين ظهر جبرائيل بأجنحته وسدّ الأفق؟ هل كان مشركًا من المشركين؟ هل كان مجرد تاجر في الشام يجوب مدن الجزيرة العربية؟

قد نجد الجواب حين نناقش مسألة انقطاع الوحي بعد تكليف النبي ﷺ بالرسالة الدينية. لقد أثار حديث الإسراء، الكثير من اللغط حتى في صفوف المسلمين، بيد أن أحدًا منهم لم يترك لنا أي رأي له قيمة تاريخية، ربما لأن كل ما نُقل إلينا، يكاد يقتصر على تفاصيل تتعلق بردود أفعال المشركين الذين سارعوا إلى رفض الفكرة من أساسها. وفي خبر الإسراء، ثمة ما يدعو للعودة إلى الأسئلة المحرّمة التي طرحت ولم تصلنا، منها أن لا شيء يشير إلى أن جبرائيل في تلك اللحظات، كان في هيئة محدّدة، فلا هو بملاك، أو طائر، أو رجل؟ ولو كان في هيئته السماوية حين هبط إلى الأرض، ثم أسرى بالنبي ﷺ، فماذا عن أجنحته الستمائة، هل رآها تسدّ الأفق؟ وإذا كان رآها رأي العين، فكيف تسنى له أن يشبّه جبرائيل بدحية وما هو وجه الشبه بين الطائر والإنسان؟ وماذا عن المسافة الزمنية الأسطورية بين كل جناح؟ ولماذا لم يشعر بالذعر، وبأن ما يراه غير قابل للوصف؟ وأن هذه الصورة لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتطابق مع صورة دحية الإنسان؟ وإذا ما كان في صورة أخرى، وهو أردف النبي ﷺ خلفه، ثم طار بهما البراق معًا، فلماذا استلزمت الرحلة السماوية حصانًا سماويًا طائرًا، مادام هناك ملاك طائر له 600 جناح؟ وهل ينبغي علينا التساؤل أن اللقاء الأول مع جبرائيل في لحظة الإسراء، لم يكن لقاء مع طائر بستمائة جناح تسدّ الأفق بينهما مسافة تقاس بسنوات من الزمن الأسطوري، وإنما مع إنسان خارق الجمال معه حصان سماوي؟

برأي ابن قتيبة الدينوري[1] استنادًا إلى حديث عائشة، فقد كان ابتداء نزول الوحي مع إسرافيل وليس مع جبرائيل؟ (وعن الشعبي أن رسول اللّه ﷺ وكّل به إسرافيل، فكان يتراءى له ثلاث سنين ويأتيه بالكلمة من الوحي، ثم وكّل به جبريل فجاءه بالقرآن والوحي). وهذا الحديث الصحيح ـ بحسب بعض مزاعم الفقهاء ونحن لا نراه كذلك لأسباب كثيرة سوف نستعرضها تاليًا ـ يؤكد أن النبي ﷺ التقى جبرائيل أول مرة في الرؤيا (الحلم) وليس في الواقع، ثم تجلّى له بعد ذلك في غار حراء، ولكنه لم يشاهده في هيئته السماوية إلّا في لحظة الإسراء، وأنه كان على علاقة بملاك آخر يدعى إسرافيل (إسرائيل؟). فلماذا حلّ ملاك محل آخر؟ لقد اختلف العلماء[2] في المعراج والإسراء، و(هل كانا في ليلة واحدة أم لا، وأيهما كان قبل الآخر، وهل كان ذلك كله في اليقظة أو في المنام؟ أو بعضه في اليقظة وبعضه في المنام؟ وهل كان المعراج مرة أو مرات؟ واختلفوا في تاريخ ذلك)[3]. وعن ابن سعد عن محمد بن عمر عن أبي بكر ابن عبداللّه بن أبي سبرة وغيره من رجاله، قالوا: (كان عليه السلام يسأل ربه أن يريه الجنة والنار، فلما كانت ليلة السبت لسبع عشرة خلت من شهر رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهرًا ورسول اللّه ﷺ في بيته نائم ظهرًا، أتاه جبريل ومكائيل، فقالا انطلق إلى ما سألت اللّه، فانطلقا به إلى ما بين المقام وزمزم، فأتي بالمعراج؛ فإذا هو أحسن شيء منظرًا، فعرجا به إلى السموات سماء، سماء)[4]. في هذا النصّ، لا يخبرنا ابن سعد ـ كما لم يفعل ابن قتيبة ـ ما هو المعراج الذي جاء به جبرائيل وميكائيل، والقول إنه (أحسن شيء منظرًا) لا معنى له، فهل كان سلّمًا سماويًّا ارتقاه النبيّ ﷺ؟ عند هذه النقطة سأتوقف قليلًا للكشف عن مصدر المعتقد القائل بوجود

(1) عيون الأثر: ج1/ 120.
(2) عيون الأثر، كذلك: ج1/ 194.
(3) كذلك.
(4) ابن سعد ـ الطبقات، 1/ 214 وما بعدها.

معراج سماوي. برأيي، إن سائر العقائد العظيمة في حضارات العالم القديم تصوّرت شكل التواصل بين الخالق والمخلوق، عبر الارتقاء بواسطة مرتفع (جبل، هرم، زقورة بابلية[1]، حزورة مكة[2] إلخ). ونحن نعلم من الأساطير السومرية أن بعض ملوك كيش، روى أسطورة طيرانه فوق ظهر نسر، وأنه بلغ الأعالي بحثًا عن نبتة الخلود السماوية. وبهذا المعنى فهم المفسّرون المسلمون بإجماعهم خطأ، مسألة المعراج، وتخيّلوه (شيئًا) هو (أحسن منظرًا) ومن دون أن يفسروا لنا معنى هذا الشيء، في ما هو تعبير عن عقيدة الارتقاء نحو السماء. وهذه عقيدة قديمة تضرب في جذورها في تربة الأساطير الأولى، ذلك أن تحقيق الصلة بين الخالق والمخلوق والتواصل بين الأرض والسماء، لن يتحققا دون وجود وسيط، يمكّن الإنسان من الانتقال من الأرض إلى السماء، وليبلغ أعلى نقطة فيها ليناجي ربّه. ولذا، فالمعراج هو وسيلة الارتقاء، والإسراء هو فعل الارتقاء.

في هذا السياق ذكر السهيلي خلاف السلف في الإسراء، هل كان يقظة أو منامًا؟ (وما يحتجّ به لكل قول منهما) فارتأى أن هناك طائفة ثالثة (ذهبت إلى تصديق المقالتين وتصحيح المذهبين، وأن الإسراء كان مرتين، إحداهما في نومه توطئة له وتيسيرًا عليه، كما كان بدء نبوته، الرؤيا الصالحة ليسهل عليه أمر النبوة)[3]. وفي أحاديث الإسراء هذه، كما يُلاحظ لا توجد أدنى إشارة إلى أن جبرائيل كان رجلًا بشريًا. فهل كان النبي ﷺ في تلك اللحظة يشاهده في صورته السماوية غير القابلة للوصف، أم يشاهده في صورة دحية؟ لكن، وطبقًا لحديث شجرة (سدرة المنتهى) فقد تمكن النبي ﷺ من رؤيته في تلك اللحظة فقط بهيئته السماوية. وفي هذا الصدد يرتئي

(1) الزقورة صرح ديني استخدمه كهنة بابل كمكان عبادة.
(2) الحزورة: بناء هرمي الشكل في مكة قرب الكعبة قيل إن وكيعًا الإيادي وكان من كبار الموحدين بناه لنفسه للتعبّد.
(3) السهيلي، الروض الأنف.

الشوكاني[1] نقلًا عن ابن مسعود لحل هذه المعضلة: إن رسول اللّه لم ير جبريل في صورته إلّا مرّتين، أما واحدة، فإنه سأله أن يراه في صورته فأراه صورته فسدّ الأفق. وأما الثانية، فإنه كان معه حيث صعد، فذلك قوله: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[2]، ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[3]. ثم يقول (وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عنه أن النبيّ ﷺ قال : رأيت جبريل عند سدرة المنتهى له ستمائة جناح). والسدر[4] هو شجر النبق (وهذه السدرة هي في السماء السادسة كما في الصحيح، وروي أنها في السماء السابعة، والمنتهى مكان الانتهاء). وحكى الثعلبي[5] عن مجاهد وقتادة والضحاك أن المقصود من آية ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[7][6] المسافة من الأرض إلى سدرة المنتهى التي هي مقام جبريل.

لكن رؤية النبي ﷺ لجبريل، بنظر ابن كثير[8]، وارتباطًا بآية ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ

(1) الشوكاني، فتح القدير: ج7/ 79 ـ80 (المنتهى: هو مصدر ميمي، والمراد به الانتهاء نفسه، قيل إليها ينتهي علم الخلائق، ولا يعلم أحد منهم ما وراءها، وقيل: ينتهي إليها ما يعرج به في الأرض وقيل: تنتهي إليها أرواح الشهداء، وقيل غير ذلك. وإضافة الشجرة إلى المنتهى من إضافة الشيء إلى مكانه ـعِندَهَا جَنَّةُ المأوى ـ أي: عند تلك السدرة جنة تعرف بجنة المأوى، وسميت جنة المأوى لأنه أوى إليها آدم، وقيل إن أرواح المؤمنين تأوي إليها).

(2) سورة النجم، الآية 7.

(3) سورة النجم، الآية 18.

(4) الشوكاني، المصدر نفسه ج7/ 71.

(5) الطبري ج4/ 456 قال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد اللّه بن الزبير، عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول اللّه ﷺ وذكر سدرة المنتهى، قال: «يسير في ظل الفنن منها الراكب مائة سنة ـ أو: قال ـ: يستظل في الفنن منها مائة راكب، فيها فراش الذهب، كأن ثمرها القلال).

(6) (والمراد: أن جبريل ومن معه من الملائكة يسيرون في ذلك المقام إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة في مقدار يوم واحد من أيام الدنيا).

(7) سورة الأعراف: الآية4.

(8) ابن كثير ج 7/ 445.

عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۞ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۞ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۞ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۞ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۞ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[1] لم تكن ليلة الإسراء، بل قبلها، عندما كان رسولُ اللّه في الأرض (فهبط عليه جبريل، عليه السلام، وتدلى إليه، فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه اللّه عليها، له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، يعني ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعدما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة، فأوحى اللّه إليه سورة ـ اقرأ ـ، ثم فتر الوحي فترة).

ويُفهم من رواية ابن كثير وهي خالية من أي أدلة مقبولة، أن النبي ﷺ التقى جبرائيل في صورته السماوية ليلة الإسراء. وأنه شاهد في الأرض أجنحته التي تسدّ الأفق، بينما يُفهم من حديث الإسراء كما جاء على لسان النبي ﷺ، أنه شاهد للمرة الأولى جبرائيل في صورته تلك في السماء السابعة ولم يشاهدها في الأرض؟ والمثير أن الخلاف حول تفسير الآية بين المسلمين في الإسلام المبكر، تواصل حتى مطالع القرن قبل الماضي، حين زج المستشرقون الغربيون أنفسهم في هذا السجال، وانغمس بعض المستشرقين الألمان في نقاشات تفصيلية مملّة وعقيمة، حول المقصود من (جنة المأوى) في الآية. وقد لاحظ نولدكه[2] في (تاريخ القرآن) وهو يوجّه نقدًا لاذعًا لبعض التصورات غير المتبصرة، أن الاستشراق الألماني لم يقدم من هذه الزاوية أي معالجة مقبولة، فعندما يقوم أوغست مولر[3] مثلًا، بوضع ـ جنة المأوى ـ في مكة بوصفها مكانًا محددًا، فهو إنما يقوم بتزييف مضمون الآية القرآنية لا بمجرد التلاعب في تفسيرها، لأن مكة لا تعرف موضعًا أو مكانًا بهذا الاسم. وكان مولر، أثار ضجيجًا سخيفًا بين المستشرقين الألمان، حين زعم أن (جنة المأوى) مكان بعينه في مكة. وفي

(1) سورة النجم، الآيات 12 ـ 18.
(2) نولدكه، تاريخ القرآن 429.
(3) المصدر السابق نفسه.

هذا النطاق المحدود من الالتباس، تفصح الآية الكريمة من سورة الأنعام عن المضمون الحقيقي لتجسّد الملاك في صورته البشرية ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[1] فهي تشير إلى أن الملائكة، يمكن أن يهبطوا الأرض في صور بشرية، وأن يعيشوا كبشر وأن يتشبّهوا بهم. ومع ذلك، فلم يكن لمثل هذا التشبيه أن يؤدي، بسرعة أكبر من المتوقع إلى تهدئة خواطر المسلمين الحائرين، لأن النبي ﷺ ظل يردد على أسماعهم: إن جبرائيل يأتي في صورة دحية الكلبي؟ ولذلك تواصل النقاش داخل مجتمع الجماعة الإسلامية الصغيرة ـ المهاجرة ـ مع تردد أخبار وشائعات وأحاديث متضاربة عن ظهوره المفاجىء في الحروب التي اندلعت ضد القبائل اليهودية في الجزيرة العربية.

سنقدم هنا إيجازًا سريعًا يقوم على تسلسل الوقائع في هذه المسألة، بهدف استيعاب وفهم طبيعة النقاش حول شخصة دحية:

كانت المرة الأولى التي يسمع فيها المسلمون بحديث دحية، حين تناهت الأخبار عن مشاهدة رجل غريب يرتدي ملابس بيضاء ناصعة ويمتطي صهوة جواد أبيض لا أثر عليه من غبار السفر، وهو يتجه صوب المسجد بيثرب.ثم تتابعت الشائعات بعد مزاعم عن لقاء النبيّ ﷺ به وكيف أنه تصرّف معه كمعلّم. وحين غادر المكان سأل النبي ﷺ المسلمين المندهشين: أتعرفون مَنْ يكون هذا؟ قالوا، لا. قال: هذا جبريل، وهو يأتي في صورة دحية الكلبي[2]. إن نصّ الترمذي[3] عن هذه الواقعة، والمنقول بإسناد حسن عن ابن قدامة عن جرير عن أبي ذرّ الغفاري، يتمتع بمزية كونه من أكثر النصوص تماسكًا، مقارنة بسائر المرويات والنصوص المماثلة، فهو يؤكد حقيقة أن الغريب القادم من السماء في صورة رجل، جاء بنفسه للقاء النبي ﷺ، وأنّ المسلمين فوجئوا بالطريقة التي أدار

(1) سورة الأنعام، الآية 9.

(2) الترمذي، ج6 م409.

(3) النسائي، ج15/ 179.

فيها الحوار معه، فقد أنكروا عليه أنه كان يسأل لا طلبًا للجواب، وإنما رغبة في امتحان النبي ﷺ؟ وهذا هو بالضبط مصدر اللبس الذي أشارت إليه الآية القرآنية.

يقول الترمذي نقلًا عن أبي ذرّ وأبي هريرة:

كَانَ النبي ﷺ يَجْلِسُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَصْحَابِهِ، فَيَجِيءُ الْغَرِيبُ فَلَا يَدْرِي أَيُّهُمْ هُوَ، حَتَّى يَسْأَلَ. فَطَلَبْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَجْعَلَ لَهُ مَجْلِسًا عَرَفَهُ الْغَرِيبُ إِذَا أَتَاهُ، فَبَنَيْنَا لَهُ دُكَّانًا مِنْ طِينٍ كَانَ يَجْلِسُ عَلَيْهِ. وَإِنَّا لَجُلُوسٌ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَجْلِسِهِ (إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ أَحْسَنُ النَّاسِ وَجْهًا وَأَطْيَبُ النَّاسِ رِيحًا، كَأَنَّ ثِيَابَهُ لَمْ يَمَسَّهَا دَنَسٌ حَتَّى سَلَّمَ فِي طَرَفِ الْبِسَاطِ، فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ. قَالَ: أَدْنُو يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ ادْنُ، فَمَا زَالَ يَقُولُ أَدْنُو مِرَارًا وَيَقُولُ لَهُ ادْنُ، حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رُكْبَتَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وقَالَ يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ. قَالَ إِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ فَقَدْ أَسْلَمْتُ؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَ: صَدَقْتَ. فَلَمَّا سَمِعْنَا قَوْلَ الرَّجُلِ صَدَقْتَ أَنْكَرْنَاهُ). ومن الواضح، طبقًا لهذه الرواية الموثقة، أن الجماعة المسلمة في المسجد، فوجئت بأن طالب الإسلام هذا، كان يسأل بقصد اختبار النبي ﷺ وامتحان معرفته بالدين. لكنهم، وهم يشاهدون النبي ﷺ يبدي اهتمامًا خاصًا بالرجل، لزموا الصمت. ثم عاد الرجل الغريب يسأل: (يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ، وَتُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ. قَالَ: فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ فَقَدْ آمَنْتُ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَعَمْ. قَالَ: صَدَقْتَ). وزاد كل ذلك في دهشة واستغراب المسلمين. ثم عاد الرجل يسأل: (يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. قَالَ: صَدَقْتَ). ولم يكف الرجل عن أسئلته فعاد يسأل: (يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ فَنَكَسَ ـ النبي ﷺ ـ فَلَمْ يُجِبْهُ شَيْئًا ثُمَّ أَعَادَ فَلَمْ يُجِبْهُ شَيْئًا، ثُمَّ أَعَادَ فَلَمْ يُجِبْهُ شَيْئًا، وَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. وَلَكِنْ لَهَا عَلَامَاتٌ تُعْرَفُ بِهَا، إِذَا رَأَيْتَ الرِّعَاءَ الْبُهْمَ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ وَرَأَيْتَ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ مُلُوكَ الْأَرْضِ، وَرَأَيْتَ

الْمَرْأَةَ تَلِدُ رَبَّهَا)[1]. وكان أكثر ما أثار دهشة المسلمين في المسجد أن الرجل الغريب، كان يخاطب النبيّ ﷺ باسمه (يا محمد). وبحسب رواية أخرى منسوبة لعمر بن الخطاب ﷺ فقد دهش هو نفسه من الطريقة التي كان فيها الرجل طالب الإسلام، يخاطب فيها النبي ﷺ؟ وينقل لنا ابن حجر العسقلاني[2] أجواء الدهشة والذهول هذه في نص فريد[3]، لكنه يرتئي أن كلمة (صدقت) الجارحة التي ردّدها الغريب، كانت زيادة في الحديث المنقول، وهذا أمر غير صحيح، لأن سائر الروايات عن عمر، أشارت إلى أنه استخدم الكلمة. ومع ذلك ارتأى ابن حجر أن مُسْلِمًا في روايته لواقعة

(1) ثم قرأ النبي آية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إِلَى قَوْلِه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾. قوله: (قال: أن تلد الأمة ربتها). في رواية البخاري ومسلم عن أبي هريرة، والبغوي والأشعري (أن تلد الأمة ربّها). وفي رواية عمارة بن القعقاع عند مسلم وأبي فروة (ورأيت المرأة تلد ربّها). وفي مسند أحمد: (ولدت الإماء ربّاتهن). وفي رواية أبي حيّان التيمي عند مسلم (إذا ولدت الأمة بعلها، يعني السراري). واختلف العلماء قديمًا وحديثًا في معنى (أن تلد الأمة ربتها). الحفاة: جمع حافٍ وهو من لا نعل برجله. العراة: جمع عارٍ وهو من لا شيء على جسده. العالة: جمع عائل هو الفقير ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ (الضحى 8). رعاء: جمع راعٍ، ويجمع أيضًا على رعاة. والرعي: الحفظ. الشاء: جمع شاة، وتجمع على شياه. أما ابن حجر فيفسّره هكذا (وهو كناية عن كون الأسافل يصيرون ملوكًا، أو كالملوك، أي إذا رأيت أهل البادية الغالب عليهم الفقر وأشباههم من أهل الحاجة والفاقة، قد ملكوا أهل الحاضرة بالقهر والغلبة،فكثرت أموالهم واتّسع في الحطام آمالهم، فتفرَّق همُّهم إلى تشييد المباني، وهدم أركان الدين بعدم العمل بآي المثاني، فذاك من علامات الساعة) انظر: **شرح السيوطي لسنن النسائي**، جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي ـ دار البشائر الإسلامية 1986م **مسند أحمد** 2/ 426 .**صحيح مسلم بشرح النووي** 1/ 158 ـ **فتح الباري** 1/ 149 ـ **عمدة القاري شرح صحيح البخاري** 1/ 366 ـ **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان**، حديث رقم 159.

(2) ابن حجر، **فتح الباري** ج1/ 82 ـ84: هَذَا السُّؤَال وَالْجَوَاب وَقَعَ بَيْن عِيسَى ابْن مَرْيَم وَجِبْرِيل، لَكِنْ كَانَ عِيسَى سَائِلًا وَجِبْرِيل مَسْؤُولًا . قَالَ الْحُمَيْدِيّ فِي نَوَادِره: حَدَّثَنَا سُفْيَان حَدَّثَنَا مَالِك بْن مِغْوَل عَنْ إِسْمَاعِيل بْن رَجَاء عَن الشَّعْبِيّ قَالَ: سَأَلَ عِيسَى ابْن مَرْيَم جِبْرِيل عَن السَّاعَة، قَالَ: فَانْتَفَضَ بِأَجْنِحَتِهِ وَقَالَ: مَا الْمَسْؤُول عَنْهَا بِأَعْلَم مِنَ السَّائِل.

(3) ابن حجر، المصدر نفسه.

المسجد، زاد: (فِي رِوَايَة عُمَارَة بْن الْقَعْقَاع، قَوْل السَّائِل ـ صَدَقْت ـ عَقِب كُلّ جَوَاب مِنَ الْأَجْوِبَة الثَّلَاثَة، وَزَادَ أَبُو فَرْوَة فِي رِوَايَته: فَلَمَّا سَمِعْنَا قَوْل الرَّجُل صَدَقْت أَنْكَرْنَاه. وَفِي رِوَايَة كَهْمَس: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلهُ وَيُصَدِّقهُ. وَفِي رِوَايَة مَطَر: اُنْظُرُوا إِلَيْهِ كَيْف يَسْأَلهُ وَانْظُرُوا إِلَيْهِ كَيْف يُصَدِّقهُ؟ وَفِي حَدِيث أَنَس: اُنْظُرُوا وَهُوَ يَسْأَلهُ وَهُوَ يُصَدِّقهُ كَأَنَّهُ أَعْلَم مِنْهُ؟ وَفِي رِوَايَة سُلَيْمَان بْن بُرَيْدَةَ، قَالَ الْقَوْم: مَا رَأَيْنَا رَجُلًا مِثْل هَذَا، كَأَنَّهُ يُعَلِّم رَسُول اللَّه ﷺ، يَقُول لَهُ: صَدَقْت صَدَقْت). وفي المقطع الممتاز الذي يلخّص فيه ابن حجر، طبيعة الاختلاف بين المسلمين حول ما دار بالضبط داخل المسجد، وحدوده، يتأكد لنا أن ثمة واقعة مؤكدة، هي أن المسلمين في يثرب، وكانوا جماعة صغيرة مهاجرة ومُطاردة من مشركي مكة، شاهدوا رجلًا غريبًا في هيئة غريبة، وأنه تصرّف مع النبيّ ﷺ كمعلّم لا كطالب دين؟ يضيف ابن حجر: (وقَالَ الْقُرْطُبِيّ: إِنَّمَا عَجِبُوا مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيّ ﷺ لَا يُعْرَف إِلَّا مِنْ جِهَته، وَلَيْسَ هَذَا السَّائِل مِمَّنْ عُرِفَ بِلِقَاءِ النَّبِيّ ﷺ وَلَا بِالسَّمَاعِ مِنْهُ، ثُمَّ هُوَ يَسْأَل سُؤَال عَارِف بِمَا يَسْأَل عَنْهُ لِأَنَّهُ يُخْبِرهُ بِأَنَّهُ صَادِق فِيهِ، فَتَعَجَّبُوا مِنْ ذَلِكَ تَعَجُّب الْمُسْتَبْعِد لِذَلِكَ).

وحين غادر الرجل الغريب المسجد، التفت النبي ﷺ إلى الجماعة المسلمة قائلًا وسط ذهول الجميع: (إِنَّهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام نَزَلَ فِي صُورَةِ دِحْيَةَ الْكَلْبِيّ)[1].

---

(1) هنا ملخص لآراء الفقهاء والمفسّرين: برأي الزّجاج، فقد انصرف معنى آية ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾ في سورة الأنعام إلى أن المشركين وبعض المسلمين من حديثي الإسلام ـ كانوا يقولون لمجادليهم، ردًّا على ما سمعوه من أخبار وتقوّلات عن هبوط جبرائيل بالوحي (إنما محمد بشر وليس بينه وبينكم فرق، فيلبسون عليهم بهذا ويشككّونهم، فأعلمهم اللّه عز وجل، أنه لو أنزل ملكًا في صورة رجل لوجدوا سبيلًا إلى اللبس، كما يفعلون. واللبس الخلط، يقال: لبَستُ عليه الأمر ألبسته لبسًا أي خلطته، وأصله التستر بالثوب ونحوه). وبرأي البغوي ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾ أي: لو أرسلنا إليهم مَلكًا ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ يعني في صورة [رجل] آدمي، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة، وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي. وأخرج ابن أبي شيبة عن عامر الشعبي قال: شبَّه النبي ﷺ ثلاثة نفر من أمته قال: (دحية الكلبي يشبه جبريل، =

= وعروة بن مسعود الثقفي يشبه عيسى ابن مريم، وعبد العزى يشبه الدجال). أما الواحدي فيرى في تأويل الآية، أن المقصود من ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾ أيْ: ولو جعلنا الرَّسول الذي ينزل عليهم ليشهدوا له بالرِّسالة، مَلَكًا كما يطلبون ـ و ـ ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ لأنَّهم لا يستطيعون أن يروا المَلَك في صورته، لأنَّ أعين الخلق تحار عن رؤية الملائكة، ولذلك كان جبريل عليه السَّلام يأتي رسول اللَّه ﷺ في صورة دحية الكلبيّ ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم، حتى يشكُّوا فلا يدروا أمَلَكٌ هو أم آدميٌّ؟ أما البقاعي فيقول: وأما إن جعلناه على صورة يستطيعون نظرها، فإنّا نجعله على صورة رجل، فإنها أكمل الصور؛ وحينئذٍ يقع لهم اللبس الذي وقع لهم بدعائك، وهو معنى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾ أي مطلوبَهم ﴿مَلَكًا﴾ أي يمكن في مجاري العادات في هذه الدار رؤيتهم له، وبقاؤهم بعد رؤيته ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ أي في صورة رجل، ولكنه عبّر بذلك، إشارة إلى تمام اللبس، حتى أنه لا يشك أحد يراه في كونه رجلًا، كما كان جبريل عليه السلام ينزل في بعض الأوقات على النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي، فإذا رآه بعض الصحابة لم يشك أنه دحية ـ ﷺ ـ ولو جعلناه رجلًا ـ للبسنا عليهم ما يلبسون ـ أي لخلطنا عليهم بجعلنا إياه رجلًا ما، يخلطونه على أنفسهم وعلى غيرهم، فوقع اللبس عليهم بأنه لما كان هذا الذي يقول: إنه رسول، ملكًا كان رجلًا).



عمر ودحية الكلبي

رأينا فِي رِوَايَة أَبِي فَرْوَة[1] أنه زاد فيها على ما سمعه من مرويات كلمة (صدقت)، وأن هذه الزيادة وضعت على لسان دحية عند سماعه جواب النبيّ ﷺ، ولكن الرواية حافظت على بنيتها الأصلية. ومع ذلك، ظلت هناك أكثر من معضلة في أصل الرواية، فبعد أن غادر الغريب، قال النبي ﷺ: وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ، مَا كُنْت بِأَعْلَم بِهِ مِنْ رَجُل مِنْكُمْ، وَإِنَّهُ لَجِبْرِيل.

وهذا يعني أن النبيّ ﷺ ينفي نفيًا قاطعًا أن يكون عرف الرجل من قبل؟ ولو تقبّلنا هذا الحديث المنسوب حتى نتيّقن منه ـ فكيف لنا أن نتقبّل فكرة خضوع النبيّ ﷺ للامتحان أمام الجماعة الإسلامية ومن جانب شخص لا يعرفه؟ يستطرد ابن حجر في توثيق أجواء السجال حول رواية دخول دحية أول مرة المسجد، فيقول: (وَفِي حَدِيث أَبِي عَامِر: ثُمَّ وَلَّى فَلَمَّا لَمْ نَرَ طَرِيقه قَالَ النَّبِيّ ﷺ: سُبْحَان اللَّه، هَذَا جِبْرِيل جَاءَ لِيُعَلِّم النَّاس دِينهمْ. وَاَلَّذِي نَفْس مُحَمَّد بِيَدِهِ مَا جَاءَنِي قَطُّ إِلَّا وَأَنَا أَعْرِفهُ، إِلَّا أَنْ تَكُون هَذِهِ الْمَرَّة). وَفِي رِوَايَة التَّيْمِيّ التي نقلها ابن حجر: (ثُمَّ نَهَضَ فَوَلَّى، فَقَالَ رَسُول اللَّه ﷺ: عَلَيَّ بِالرَّجُلِ، فَطَلَبْنَاهُ كُلّ مَطْلَب فَلَمْ نَقْدِر عَلَيْهِ. فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَنْ هَذَا؟ هَذَا جِبْرِيل أَتَاكُمْ لِيُعَلِّمكُمْ دِينكُمْ، خُذُوا عَنْهُ، فَوَاَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا شُبِّهَ عَلَيَّ مُنْذُ أَتَانِي قَبْل مَرَّتِي هَذِهِ، وَمَا عَرَفْته حَتَّى وَلَّى. قَالَ ابْن حِبَّان، تَفَرَّدَ سُلَيْمَان التَّيْمِيُّ بِقَوْلِهِ: خُذُوا عَنْهُ). ثم يعلق ابن حجر بالقول (قُلْت: وَهُوَ مِنَ الثِّقَات الْأَثْبَات ـ أي ابن حبان ـ وَفِي قَوْله: جَاءَ لِيُعَلِّم النَّاس دِينهمْ، إِشَارَة إِلَى الزِّيَادَة، فَمَا تَفَرَّدَ إِلَّا بِالتَّصْرِيحِ، وَإِسْنَاد التَّعْلِيم إِلَى جِبْرِيل مَجَازِيّ؛ لِأَنَّهُ كَانَ

(1) ابن حجر، كذلك.

السَّبَب فِي الْجَوَاب، فَلِذَلِكَ أَمَرَ بِالْأَخْذِ عَنْهُ).لكن ابن حجر، يقوم ـ فضلًا عن التدقيق في طبيعة ونوع الإضافات والزيادات التي وقعت على الرواية الأصلية ـ بملاحظة جوانب الاتفاق في ما بينها، وكيفية تشكلّه، وتأكيده على أن الواقعة صحيحة. قال: (وَاتَّفَقَتْ هَذِهِ الرِّوَايَات عَلَى أَنَّ النَّبِيّ ﷺ أَخْبَرَ الصَّحَابَة بِشَأْنِهِ بَعْد أَنِ اِلْتَمَسُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ. وَأَمَّا مَا وَقَعَ عِنْد مُسْلِم وَغَيْره مِنْ حَدِيث عُمَر فِي رِوَايَة كَهْمَس: ثُمَّ انْطَلَقَ، قَالَ عُمَر بن الخطاب ﷺ «فَلَبِثْت مَلِيًّا» ثُمَّ قَالَ ـ: يَا عُمَر أَتَدْرِي مَنِ السَّائِل؟ قُلْت: اللَّه وَرَسُوله أَعْلَم. قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيل ـ فَقَدْ جَمَعَ بَيْن الرِّوَايَتَيْنِ بَعْض الشُّرَّاح بِأَنَّ قَوْله: فَلَبِثْت مَلِيًّا: أَيْ: زَمَانًا بَعْد انْصِرَافه).

تنصبّ أهم ملاحظات ابن حجر على سائر الروايات في النقطتين المركزيتين التاليتين:

1: إن الروايات التي تنسب إلى عمر بن الخطاب ﷺ حضوره في المسجد، ورؤيته جبرائيل أو دحية الكلبي، ثم قوله فلبثت ثلاثًا أي ثلاثة أيام بعد الواقعة، هي من بين المزاعم التي تعكّر علَى الإجماع حول أصل رواية دخول دحية المسجد، وإن الرواية بمجملها تظل صحيحة باستثناء مسألة الزّج باسم عمر. وما يدعم هذه الملاحظة: (قَوْله فِي رِوَايَة النَّسَائِيّ وَالتِّرْمِذِيّ: فَلَبِثْت ثَلَاثًا، ادَّعَى بَعْضهمْ فِيهَا التَّصْحِيف، وَأَنَّ ـ مَلِيًّا ـ صُغِّرَتْ مِيمهَا فَأَشْبَهَتْ ـ ثَلَاثًا ـ لِأَنَّهَا تُكْتَب بِلَا أَلِف، وَهَذِهِ الدَّعْوَى مَرْدُودَة، فَإِنَّ فِي رِوَايَة أَبِي عَوَانَة: فَلَبِثْنَا لَيَالِي، فَلَقِيَنِي رَسُول اللَّه ﷺ بعْد ثَلَاث. وَلِابْنِ حِبَّان: بَعْد ثَالِثَة، وَلِابْنِ مَنْدَهْ: بَعْد ثَلَاثَة أَيَّام. وَجَمَعَ النَّوَوِيّ بَيْن الْحَدِيثَيْنِ بِأَنَّ عُمَر لَمْ يَحْضُر قَوْل النَّبِي ﷺ فِي الْمَجْلِس. وَلَمْ يَتَّفِق الْإِخْبَار لِعُمَر إِلَّا بَعْد ثَلَاثَة أَيَّام، وَيَدُلّ عَلَيْهِ قَوْله: فَلَقِيَنِي، وَقَوْله: فَقَالَ لِي: يَا عُمَر، فَوَجَّهَ الْخِطَاب لَهُ وَحْده، بِخِلَافِ إِخْبَاره الْأَوَّل، وَهُوَ جَمْع حَسَن).

2: إن سائر الروايات تؤكد نفي النبيّ ﷺ معرفته المسبقة بدحية، وأن هذا اللقاء هو الأول بينهما.

إذا تقبلنا هذا التحقيق الدقيق للأقوال المتناقلة، فسوف يكون علينا أن نسقط من سائر المرويات والأحاديث، واقعة وجود عمر بن الخطاب في المسجد عند مجيء دحية الكلبي أو جبرائيل، وهو لم يسمع بها إلّا بعد ثلاثة أيام، وأن نتقبّل نفي النبيّ ﷺ، فهو لم يسبق له رؤية دحية الإنسان، ولكنه عرف فيه شخص الملاك الذي جاء يعلّم المسلمين دينهم. ومع ذلك، يتبقى أمامنا الإطار الصحيح للواقعة، وهو إطار مقبول من جميع الرواة والمفسرين، ويؤكد بشكل جازم أن ما جرى من حديث في المسجد بين النبي ﷺ ودحية كان نوعًا من امتحان؟ ولعل أكثر ما أثار دهشة وحيرة المسلمين، أن النبي ﷺ أجاب عن سؤال الساعة بالقول، مخاطبًا الرجل الغريب (ما المسؤول بأعلم من السائل). فذلك ما تبدّى في أعينهم، اعترافًا ضمنيًّا بأنه يعرف الجواب الصحيح. ولم يكن هناك أحد في تلك اللحظات يعرف بالسمع أو رأي العين، أن دحية كان عالمًا بالإسلام حتى يحق له الرّد على النبي ﷺ بعبارة (صدقت)، أو أن ثقة النبي ﷺ بعلمه بلغت هذا الحدّ وبحيث يقول له أمام المسلمين وهو النبي ﷺ: إن السائل يعرف أكثر منه.

وهنا نموذج شائع عن رواية تنسب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حضوره في المسجد، كما نقلها أبو داود في السنن[1]، قال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:

(بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا نَعْرِفُهُ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ صَدَقْتَ. قَالَ فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ

(1) سنن أبي داود، 12/ 310.

الْإِحْسَانِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟ قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ. قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ ثَلَاثًا. ثُمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ هَلْ تَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ)[1].

إن نصّ سنن أبي داود هذا، لا أساس له، وهو يزجّ بعمر بن الخطاب في قصة لم يكن طرفًا فيها، ومع ذلك يمكن إجرائيًا، وبصرف النظر عمّا إذا كان عمر حاضرًا[2] في المسجد أم لا؛ القول إنه وبعد ثلاثة أيام فقط، عرف من النبيّ ﷺ مباشرة، بمجريات ما حدث. ولذا، فقد اصبح طرفًا في رواية تخصّ رجلًا من المسلمين اسمه دحية، وربما في تكوين الصورة الغرائبية التي رسمها الرواة عنه. بيد أنَّ ما يثير اشتباهنا بقوة، أن كل ما روي نقلًا عن عمر من أحاديث ومرويات أو رواه بنفسه، يخلو كليًا من أي ذكر أو إشارة إلى شخص باسم دحية الكلبي؟ بماذا نفسّر ذلك؟ هل تجاهل عمر شخصًا اعتبر تقليديًا من كبار الصحابة؟ ولماذا يتجاهله ولا يذكر اسمه؟ وإذا كان دحية هذا رجلًا حقيقيًا وشاهده عمر في المسجد كما تزعم رواية أبي داود ـ أم سمع القصة بعد ثلاثة أيام ـ فلماذا لا نجد أي حديث صحيح منقول عن عمر بن الخطاب أو عن رواة مسلمين موثوق بهم كابن عباس مثلًا، يشير أو يلمح إلى وجوده؟ لكن هذا الأمر قد يبدو عديم القيمة والأهمية أمام سؤال آخر موازٍ: لماذا غابت هذه الشخصية أصلًا عن عهد عمر ومن قبل عن عهد أبي بكر[3]، ثم

---

(1) سنن أبي داود، المصدر نفسه.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: ج11/ 436 يدلل تفسير ابن عاشور على أن الكثير من المفسرين والفقهاء لم يدققوا في المرويات الإسلامية.

(3) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: ج3/ 98 (أما ما روي أن دحية الكلبي أسلم في زمن أبي بكر ﷺ فإنه منكر؛ ولو لم يكن دحية مسلمًا في عهد النبي ﷺ لم يبعثه سريةً وحده، ولا كان جبريل عليه السلام يتشبه في صورته).

عن عهد عثمان غيابًا كليًا، بينما توجد رواية واحدة فقط، تفيد أنه دخل على علي بن أبي طالب في الكوفة؟ كيف نفسّر أن هذا الصحابي الكبير الذي كان يمتحن النبيّ ﷺ، لم يلتق عمر في خلافته؟ وكيف يمكن لشخصية بهذه المكانة الفريدة، أن تختفي كليًا من عصر الخلافة الراشدة، باستثناء رواية ركيكة لا سند لها عن رحلته إلى الكوفة واللقاء مع علي؟ ليس لدينا أي جواب مقبول أو منطقي، سوى القول إن شخصية دحية الكلبي التاجر الشامي الذي تجلى في هيئة جبرائيل، هي من مختلقات الأمويين، وإن (اختلاقها) كانت له دوافع أساسية لها صلة بإضفاء نوع من القداسة على مركز الخلافة الجديد.

ومع ذلك، فسوف نحلّل هذا النوع من الاختلاق في سياق تحليل (اختلاق الشخصية) نفسها.

ينفرد ابن عبد البر[1] بالرواية المثيرة التالية التي تؤكد، أن دحية مات في عصر معاوية[2] وأنه قبل ذلك بقليل قدِم (على أمير المؤمنين عليّ عليه السلامُ، فما زال يَذْكر مُعاوية ويطْريه في مجلسه؛ فقال عليٌّ عليه السلام:

صَديقُ عَدُوِّي داخلٌ في عَدَاوَاتي ... وإنّي لـمَن وَدَّ الصّديقَ وَدودُ

فلا تَقْرَبًا منّي وأنت صَديقُه ... فإنّ الذي بين القُلوب بعيدُ)

ما يثير الاشتباه في صحة هذه الرواية، أن تاريخ الإسلام المكتوب، يخلو من أي إشارة أو تلميح إلى وجود دحية كطرف في الخلاف بين علي ومعاوية؟ وإذا ما كان منحازًا، بالفعل إلى معاوية بهذا الشكل السافر، وبحيث إنه كان يمتدحه عند خصمه علي، فلماذا لا نجد رواية واحدة عن استقباله في بلاط معاوية؟ على الأقل للتدليل لعلي بن أبي طالب، أن والي الشام له أنصار كثر في مقدمهم أكبر الصحابة مكانة عند النبيّ ﷺ؟ من المؤكد أن الزجّ

(1) ابن عبد ربه الأندلسي، **العقد الفريد**: ج1/ 191.

(2) **تاريخ ابن خلدون**: ج2/ 86 وأقام يزيد بن أبي سفيان بدمشق وكان الفتح في رجب سنة أربع عشرة وبعث يزيد دحية الكلبي إلى تدمر وأبا الأزاهر القشيري إلى حوران والبثنة، فصالحوهما ووليا عليهما ووصل الأمراء إلى فحل فبيتهم الروم فظفر المسلمون بهم.

بشخصية دحية في الخلاف بين علي ومعاوية، هو في صلب وظائف الاختلاق، فقد كان لابد من إظهار أن صحابيًا كبيرًا، تمثل جبرائيل في صورته البشرية، كان شخصًا مؤيدًا للخليفة الأموي ضد خصمه في الكوفة.

وثمة روايات أخرى، لا تذكر أي شيء عن هذه الواقعة، لكنها تقول إنه مات في عهد معاوية. ولتأكيد اشتباهنا بكل هذه الروايات، يكفي أن نشير إلى أن تاريخ ابن خلدون يكذّبها ويؤكد أن دحية لم يمت في عصر معاوية، وأنه عاش حتى عهد ابنه يزيد الذي بعثه إلى تدمر وولاه عليها؟ فكيف نوفق بين رواية موته في عصر معاوية وتوليته تدمر في عصر ابنه يزيد؟ وإذا كان حقًّا عاش في عصر معاوية، فلماذا لا نملك أي رواية مهما تدنّت قيمتها، تفيد بأنه دخل على الخليفة الأموي وهو الصحابي الكبير؛ بل أكبر الصحابة وأهمهم؟

وفي سياق هذه المتناقضات يروي ابن عاشور[1] في تفسيره،أنه ثبت حضور عمر في المسجد، وهذا أمر لا يوافق عليه كثيرون كما رأينا. ومع أننا نضرب صفحًا عن هذا النمط من التشبّث بمرويات وأحاديث واهية من جانب المفسرين المتأخرين؛ فإننا نعترف بأهمية ما قدموه من رؤى فلسفية عميقة للنص القرآني، ففي تفسيره يقوم ابن عاشور بتقديم تأويل هام للغاية لكيفيّة تشكّل الملائكة في صورة بشرية. وهذا ما يدعم تصورنا عن الاهتمام الفلسفي الذي أثارته مسألة تحوّل الملاك إلى بشر. وبكل يقين، سوف يصبّ هذا الاهتمام في نهاية المطاف في فكرة وجود تراجيديا دينية، اتخذت طابع الرواية التاريخية والجدل الفلسفي، ولكن دون أن تكتسب إلّا بصورة عرضية طابعها الأدبي. وما يستوقفنا في الجدل الفلسفي حول مأساة الملاك المتحوّل، أن الفقهاء المسلمين المتفلسفين، سعوا إلى تقديم براهين، بعضها لا يتناقض مع النصوص التي زعمت أن دحية كان هو نفسه جبرائيل، وربما

---

(1) ابن عاشور هو: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت 1393هـ). ولد بتونس وتوفي بها. وتفسيره المسمى بالتحرير والتنوير اسمه الأصلي **(تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد وتفسير الكتاب المجيد)**. والكتاب له طبعتان: أجزاء متفرقة نشرتها الدار التونسية للنشر، وطبعة سنة 1384هـ بمطبعة عيسى البابي الحلبي.

على العكس، سارت في الاتجاه نفسه. وبطبيعة الحال، فقد ظلت واقعة حضور دحية وعمر في المسجد، مادة ثمينة استخدمت بشكل منتظم لإنشاء الكثير من المرويات، وفقط لأجل البرهنة على صحة الواقعة عبر التأكيد على وجود عمر شخصيًا، وهو أمر لا أساس له في المرويات الأخرى الموثقة. ويبدو من قراءة متمعّنة فيها، أن هناك إجماعًا بين المسلمين الحاضرين على أن أحدًا لم يكن يعلم علم اليقين، أو يعرف أي شيء عن شجرة أنسابه ولا من أن يأتي، وبعضهم عرف متأخرًا فقط، أنه يأتي من الشام لوقت قصير ويختفي فلا يعرف له أثر. كما قيل في وقت متأخر أن نسبه يرتفع إلى بطن من كلب هو بطن فروة. وأكثر ما أثار فضول واهتمام وذهول الجماعة الإسلامية الصغيرة، أنه كان آية في الجمال والنظافة، فلا يُرى على ثيابه أي أثر من آثار السفر والمشاق، وأنه كان يصل ممتطيًا صهوة جواد أبيض وفي ثياب بيضاء نظيفة. ولأن أحدًا من أهل يثرب، والجماعة الإسلامية الصغيرة كذلك، لا يعرف الرجل ولم يسبق له أن شاهده، فقد أوشك بعضهم على إبداء ما يفهم منه أنه عدم تصديق لفكرة أنه جاء من الشام توًا، أو أنه اعتنق الإسلام هناك، لأن الدعوة في هذا الوقت لم تخرج من مكة بعد؟ كما تساءل بعضهم، هل يمكن حقًا، للبشر أن يروا الملائكة؟ أم أن الأمر يقتصر على الأنبياء؟ ومن أين جاء الرجل حتى وصل يثرب، ودون أن تبدو عليه آثار السفر الطويل والشاق؟ وهل كان في مكة أم جاء من الشام كما سيقال لهم في ما بعد؟ وفي إطار هذا الالتباس أيضًا، نزلت الآية الكريمة وآيات أخرى[1]، نبّهت إلى مسألة تمثل الملائكة في صور بشرية، وأن المراد بها، أن اللّه جعل رسلًا إلى الأنبياء، إما بالمعنى المصطلح عليه أو بالمعنى اللغوي المباشر[2] أي إنه رسول اللّه إلى النبي ﷺ. ومن المؤكد أن هذا النقاش اتخذ في بعض الأحيان، بُعدًا تفصيليًا دقيقًا، يتعلق بمسألة وجود

(1) ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: 13]، ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: 1].

(2) الآلوسي شهاب الدين محمود بن عبداللّه الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج10/ 180.

الملاك كنذير للبشر إلى جانب النبيّ ﷺ، لتبليغ الرسالة السماوية على أوسع نطاق، وأن الآيات جاءت لتأكيد الحقيقة التالية:

أن الملائكة لم يبعثوا إلى الأنبياء إلّا ممثلين بصور الرجال[1] دون النساء، وذلك قول القرآن ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[2].

ومع هذا ما فتئ المسلمون الأوائل يجادلون في مسألة طاعة ملائكة هم في نهاية المطاف، رجال مثلهم؟ ولذا نزلت آية﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾[3] تأكيدًا لنقاش مثار، اتخذ مسارًا تشكيكيًا خطيرًا، وهو أمر تطلب توضيحًا حاسمًا من النصّ القرآني ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۞ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾[4]. من خلال هذا الاعتراف القرآني الصريح، بأنَّ الملاك السماوي يمتلك القدرة الإلهية على التجسّد في صورة بشرية، يأكل ويشرب مثل البشر ويعيش بينهم كواحد منهم، جرى توظيف الاختلاق وتلفيق شخصية دحية،أي إن الفقهاء استخدموا النصّ القرآني وبكل قوة الاعتراف والإقرار فيه بصحة التجسّد، وإمكانيته، وفقط بهدف (تصنيع) شخصية لا وجود لها. بيد أن هذا الاختلاق قد لا يكون مصمّمًا لأغراض سياسية أو لتعزيز مكانة وقدسية مركز الخلافة الجديد؛ وإنما هو موظف لإنشاء تراجيديا دينية لها نسق ثقافي مستمر ومتواصل، فالملائكة الذين تجسّدوا في صور بشرية من قبل، مع إبراهيم ولوط، كانوا في قلب المأساة، حين دمروا مدن البشر الأشرار. وهذا الجزء الحيويّ من فكرة التجسد، يندرج في إطار ديني (ميثولوجي) قديم، فقد كان المسيح الذي جسّد الرّب، صورة من صور هذه التراجيديا الدينية حين صُلب وتعرض للانتهاك والعدوان من البشر. فهل كان المسلمون في العصر الأموي، يعيدون ـ عبر تلفيق شخصية دحية الكلبي ـ يعيدون إنتاج مأساة المسيح

(1) الآلوسي المصدر السابق.
(2) سورة الفرقان: الآية 7.
(3) سورة الفرقان: الآية 7.
(4) سورة المؤمنون: الآيتان 33 ـ 34.

المخلّص الذي تجسّد في صورة بشرية؟ وأن هذا التلفيق هو في صلب تقاليد أدبية ودينية متواصلة منذ عصر إبراهيم ولوط؟ شخصيًا لا أفضل ردّ المسألة إلّا إلى هذا الجانب من التقاليد الدينية والأدبية، أي تقاليد إنشاء تراجيديات دينية، بينما تظل الأهداف (الدنيوية الأخرى) أقل أهمية. ومما يؤكد هذا المنحى في تفسير بواعث (التلفيق) أن المسلمين كانوا ينسبون الحادثة برمتها لعيسى المسيح ابن مريم؟ ولعل نص ابن حجر[1]، واضح في هذا الصدد، فهو يرتئي أن مسألة السُّؤَال وَالْجَوَاب ـ في المسجد ـ لم تكن مع محمد، وإنما وقعت بَيْن عِيسَى ابْن مَرْيَم وَجِبْرِيل (لَكِنْ كَانَ عِيسَى سَائِلًا وَجِبْرِيل مَسْؤُولًا. قَالَ الْحُمَيْدِيّ فِي نَوَادِره: حَدَّثَنَا سُفْيَان حَدَّثَنَا مَالِك بْن مِغْوَل عَنْ إِسْمَاعِيل بْن رَجَاء عَنِ الشَّعْبِيّ قَالَ: سَأَلَ عِيسَى ابْن مَرْيَم جِبْرِيل عَنِ السَّاعَة، قَالَ فَانْتَفَضَ بِأَجْنِحَتِهِ وَقَالَ: مَا الْمَسْؤُول عَنْهَا بِأَعْلَم مِنَ السَّائِل).

إن المناقشة الممتازة التي قدمها ابن حجر العسقلاني[2]، توضح الكثير من الجوانب الغامضة في التفاسير والمرويات والأحاديث الشائعة عن دحية الكلبي، وأهمية القراءة التي قدمها، وفرادتها وتميّزها كذلك عن سائر القراءات الأخرى، تكمن في أنها شرعت بجرأة في تفكيك النص القرآني، انطلاقًا من تفكيك الأحاديث التي ربطت بها، فقَوْله تعالى: (فَأَتَاهُ رَجُل) أَيْ: مَلَك فِي صُورَة رَجُل (إِذْ أَتَاهُ رَجُل يَمْشِي). وهي آية تقطع بأن الملاك تحوّل إلى رجل بشري حقيقي يمشي، وأنه مرسل من السماء للرسول، أي هو رسول اللّه إلى النبيّ ﷺ، أي إلى رسول اللّه البشري؟ وهنا سأتوقف لإثارة الأمر من زاوية أخرى، لعلها تساهم في تفكيك لغز وجود تعبيرين(لقبين) لمحمد وللأنبياء الآخرين، فهو نبيّ وهو رسول، وهم أنبياء اللّه ورسله في الآن ذاته؟ وبرأيي، أن (لقب) نبيّ اللّه، أو النبيّ ليس هو ذاته اللقب الآخر (رسول اللّه) لأن الأول ينصرف إلى التنبؤ بين البشر، وأن من يقوم به شخص هو في الأصل بشريّ، ولذلك زعم مشركو قريش أن

---

(1) ابن حجر: فتح الباري ج1/ 82 ـ84.
(2) ابن حجر، فتح الباري: كذلك.

محمدًا كاهن أو شاعر أو ساحر متنبئ، بينما ينصرف الثاني إلى وصف الملاك الموفد والمرسل من السماء، فهو رسول اللّه الذي تحوّل إلى بشريّ. وفي هذه الحالة يصبح الدمج بين اللقبين، استطرادًا في صورة المسيح نفسه - وسائر المخلصين السابقين في التراجيديات والأساطير والمرويات الدينية، مثل موسى وتموز وإيزيروس إلخ -، فهم أنبياء ورسل.لقد تجسّد في شخصيتهم البشرية بُعد إلهي، سماوي. وفي هذه الحالة يتماهى الشخصان في صورة شخص واحد. ولذا، اختفى دحية الكلبي من النسق الديني الإسلامي كليًا، وحل في شخص النبيّ الرسول، وهذا ما يفسّر سبب العجز والفشل المتواصل في تبرير عدم وجوده في التاريخ الحقيقي للإسلام؟ إنه، بكلام آخر، صورة دينية لاتاريخية عن معنى التجسّد وحدوده.

يدقق ابن حجر في رواية أبي فروة - عن كثرة من الرواة - ويلاحظ أن ما ورد فيها (فَإِنَّا لَجُلُوسٌ عِنْده - عند النبي ﷺ - ثُمَّ وَضَعَ يَده عَلَى رُكْبَتَي النَّبِيّ ﷺ) يفيد أَنَّ الضَّمِير فِي قَوْله عَلَى فَخِذَيْهِ (يَعُود عَلَى النَّبِيّ ﷺ، وَبِهِ جَزَمَ الْبَغَوِيُّ وَإِسْمَاعِيل التَّيْمِيُّ، لِأَنَّهُ نَسَق الْكَلَام، خِلَافًا لِمَا جَزَمَ بِهِ النَّوَوِيّ، وَوَافَقَهُ التُّورْبَشْتِيُّ لِأَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى أَنَّهُ جَلَسَ كَهَيْئَةِ الْمُتَعَلِّم بَيْن يَدَيْ مَنْ يَتَعَلَّم مِنْهُ، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ ظَاهِرًا مِنَ السِّيَاق، لَكِنْ وَضْعه يَدَيْهِ عَلَى فَخِذ النَّبِيّ ﷺ صَنِيع مُنَبِّه لِلْإِصْغَاءِ إِلَيْهِ، وَفِيهِ إِشَارَة لِمَا يَنْبَغِي لِلْمَسْؤُولِ مِنَ التَّوَاضُع وَالصَّفْح عَمَّا يَبْدُو مِنْ جَفَاء السَّائِل. وَالظَّاهِر أَنَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ الْمُبَالَغَة فِي تَعْمِيَة أَمْره، لِيُقَوِّيَ الظَّنّ بِأَنَّهُ مِنْ جُفَاة الْأَعْرَاب، وَلِهَذَا تَخَطَّى النَّاس حَتَّى اِنْتَهَى إِلَى النَّبِيّ ﷺ. وَلِهَذَا اِسْتَغْرَبَ الصَّحَابَة صَنِيعه ؛ وَلِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْل الْبَلَد وَجَاءَ مَاشِيًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَثَر سَفَر. فَإِنْ قِيلَ: كَيْف عَرَفَ عُمَر أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفهُ أَحَد مِنْهُمْ؟ أُجِيبَ بِأَنَّهُ يَحْتَمِل أَنْ يَكُون اِسْتَنَدَ فِي ذَلِكَ إِلَى ظَنّه، أَوْ إِلَى صَرِيح قَوْل الْحَاضِرِينَ. قُلْت: وَهَذَا الثَّانِي أَوْلَى، فَقَدْ جَاءَ كَذَلِكَ فِي رِوَايَة عُثْمَان بْن غِيَاث؛ فَإِنَّ فِيهَا: فَنَظَرَ الْقَوْم بَعْضهمْ إِلَى بَعْض فَقَالُوا: مَا نَعْرِف هَذَا). ويتضح من أجواء هذا النقاش الفقهي واللغوي التاريخي حول قصة دخول دحية المسجد، والخلاف على مسألة وجود عمر هناك، أنه اتخذ بعدًا جديدًا يتصل بسلوك دحية (أو جبريل) وكيف أنه تصرّف مع النبيّ ﷺ

كمعلّم، وأن المسلمين تحت ضغط هذا الخلاف، سعوا إلى التدقيق بصورة منهجية في مسألة أخرى، تتعلق بردّة فعل النبيّ ﷺ، حين دخل دحية ثم حين خرج دون أن يعثر له على أثر؟ إذ أَفَادَ مُسْلِم فِي رِوَايَة عُمَارَة بْن الْقَعْقَاع أن سَبَب وُرُود هَذَا الْحَدِيث الخاص بـ (هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم) يتعلق باستغراب المسلمين من الطريقة التي خاطبه فيها، ودهشتهم من اختفاء أي أثر له بعد خروجه من المسجد. لقد جاء رسول اللّه إلى النبيّ (نبيّ اللّه) ليعلّمه الإسلام؟ هل هذا ما يمكن فهمه من الروايات؟ وأن المقصود من (رسول اللّه) دحية الكلبي، بينما المقصود من (النبيّ) محمد بن عبد اللّه، وأن دحية حين اختفى من المشهد، أو تماهى في شخص النبيّ البشري، فقد أصبح رسول اللّه القادم من السماء هو نبي اللّه، وامتلك اللقبين معًا. وبرأي ابن حجر فقد وقع اللبس فِي رِوَايَة إِبْن مَنْدَهْ مِنْ طَرِيق يَزِيد بْن زُرَيْع عَنْ كَهْمَس، إذ قال (بَيْنَا رَسُول اللّه ﷺ يَخْطُب إِذْ جَاءَهُ رَجُل.وَظَاهِره أَنَّ مَجِيء الرَّجُل كَانَ فِي حَال الْخُطْبَة ـ أي أثناء خطبة النبي ﷺ في المسجد ـ، فَإِمَّا أَنْ يَكُون وَافَقَ إِنْقِضَاءَهَا، أَوْ كَانَ ذَكَرَ ذَلِكَ الْقَدْر جَالِسًا وَعَبَّرَ عَنْهُ الرَّاوِي بِالْخُطْبَةِ. وقَوْله: يَا رَسُول اللّه مَا الْإِيمَان؟[1] فَإِنْ قِيلَ: فَكَيْف بَدَأَ بِالسُّؤَالِ قَبْل السَّلَام؟ أُجِيبَ بِأَنَّهُ يَحْتَمِل أَنْ يَكُون ذَلِكَ مُبَالَغَة فِي التَّعْمِيَة لِأَمْرِهِ، أَوْ لِيُبَيِّنَ أَنَّ ذَلِكَ غَيْر وَاجِب، أَوْ سَلَّمَ فَلَمْ يَنْقُلهُ الرَّاوِي. قُلْت: وَهَذَا الثَّالِث هُوَ الْمُعْتَمَد، فَقَدْ ثَبَتَ فِي رِوَايَة أَبِي فَرْوَة، فَفِيهَا بَعْد قَوْله كَأَنَّ ثِيَابه لَمْ يَمَسّهَا دَنَس، حَتَّى سَلَّمَ مِنْ طَرَف الْبِسَاط فَقَالَ: السَّلَام عَلَيْك يَا مُحَمَّد)[2].

يكشف هذا النص الرائع وبسطوع، كيف أن رواة الأخبار، وقعوا في

(1) لا يوافق ابن حجر على الروايات التي أفادت أنه خاطبه(يا محمد؟) مع أنه سيعود إلى قبول هذه المرويات؟.

(2) ابن حجر، المصدر نفسه (فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَام. قَالَ: أَدْنُو يَا مُحَمَّد ؟ قَالَ: ادْنُ. فَمَا زَالَ يَقُول أَدْنُو مِرَارًا وَيَقُول لَهُ ادْنُ. وَنَحْوه فِي رِوَايَة عَطَاء عَنِ ابْن عُمَر، لَكِنْ قَالَ: السَّلَام عَلَيْك يَا رَسُول اللّه. وَفِي رِوَايَة مَطَر الْوَرَّاق فَقَالَ: يَا رَسُول اللّه أَدْنُو مِنْك).

تناقضات تبدو غير قابلة للحل، ولكنهم في الآن ذاته سعوا إلى بناء سردية جديدة، تسمح برؤية البُعد البشري في الشخصية الإلهية التي دخلت المسجد. لقد جاء رسول اللّه جبرائيل أو دحية ليمتحن النبيّ ﷺ في الدين؟ وهو اختار المسجد ليكون مكانًا لأول لقاء وأمام البشر. لقد تمّ توظيف الأفكار الفلسفية في الإسلام المتأخر، للبرهنة على أن الملاك أنجز تحوله وأصبح بشريًا، وأن هذا التحوّل ـ من منظور علموي ـ ممكن، لأن التشكّل في صور بشرية، هو في جوهره تحوّل في طبيعة نشاط الذّرات التي تتشكل منها الأجسام السماوية. يقول ابن عاشور (وهذا التشكل انكماش وتقبّض في ذرات نورانيتهم، وإعطاء صورة من صور الجسمانيات الكثيفة لذواتهم، دلّ على تشكلهم قوله تعالى لهم يوم بدر ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[1] وثبت تشكل جبريل عليه السلام للنبي ﷺ في صورة دِحية الكلبي، وتشكّله له ولعمر بن الخطاب في حديث السؤال عن الإيمان والإسلام والإحسان والساعة في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفَر، ولا يَعرفه منا أحد،أي من أهل المدينة).

بيد أن هذا الخطاب الفلسفي الذي سعى إلى قراءة التراجيديا الدينية، واجهه ـ في العصر نفسه ـ خطاب تاريخي مضادّ، ينفي جملة وتفصيلًا كل أساس قام عليه هذا الزعم. ومع هذا بدا الخطاب الذي يستند إلى التاريخ، ويا للمفارقة وكأنّه يعجّ بكل أشكال التشكيك والخلط الفظيع بين الرسول والنبيّ، ويرى إلى المعضلة على أنها تكمن في الدمج غير العقلاني بين قول النبيّ، أن دحية شبيه بجبرائيل، وبين تحوّل جبرائيل، الكامل إلى بشر، كما يرى أن الأمر برّمته لا يتعدى حدود التشبيه، أي إن المسألة برمّتها لا تتجاوز وجود (حديث نبويّ) شبّه فيه النبي ﷺ رجلًا من المسلمين بجبرائيل؟ فهل نجمت مأساة الملاك عن هذا الخلط؟ أي إنه لم يتحوّل إلّا تجريديًا في أذهان بعض المسلمين. وعندئذٍ، تكون الآية الكريمة قد وصفت ببلاغة نوع المأساة:

---

(1) سورة الأنفال: الآية 12.

لقد التبس الأمر على البشر، ولم يعودوا يعرفون: هل هو ملاك في هيئة رجل، أم رجل تقمص ـ هيئة الملاك؟

لقد عرفت النصرانية الأولى (ثم مسيحية بولس الرسول) صورة أثيرة لجبرائيل الملاك السماوي، كما عرفت مثل هذا الدمج بين لقب النبيّ والرسول. ولعل اللّقب الذي تلقّب به بولس (الرسول) هو استطراد في هذه التقاليد، فقد سمّى نفسه رسولًا، لأن عمله كان ينصبّ في مهمة كبرى، أن يكمل رسالة النبيّ عيسى ابن مريم المسيح. ومع أننا لانملك أي أدلة علمية على وجود شخصية تاريخية وحقيقية باسم بولس الرسول ـ ويجب أن لا يفهم هذا بأنه نكران لوجوده ـ وما إذا كان عاش قريبًا من زمن المسيح بالفعل؛ فإننا ـ في نهاية المطاف ـ تقبّلنا فكرة وجود النبيّ ثم الرسول. ومن الملاحظ، أن محمدًا ﷺ تلقّب في مطلع الدعوة الإسلامية بلقب النبيّ. وسائر الروايات عن هذه الحقبة تركز على النبوّة. وليس ثمة وقائع تشير إلى أنه استخدم لقب رسول اللّٰه في عهد الدعوة بمكة، لكن على العكس من ذلك، لدينا الكثير من الأدلّة أنه استخدمه بعد خمس سنوات من الهجرة إلى يثرب وفي أعقاب الحرب على بني قريظة (عام 5 للهجرة). وأن اللقب استخدم بكثافة في العصر الأموي ثم العباسي، وبحيث صار مرادفًا للقب النبيّ. ومع ذلك ثمة ما يدلّ على وجود جذور ثقافية قوية في هذا التلفيق، وأن من قاموا بذلك في العصرين الأموي والعباسي، استندوا إلى بعض المعطيات الواقعية، فقد كان اللقبان(نبيّ اللّٰه) و(رسول اللّٰه) جزءًا من ثقافة روحية.

بهذا المعنى وحده، يتوجب تقسيم تاريخ الإسلام إلى عهدين أو حقبتين:

الأولى:

عهد النبوّة، وهي الفترة التي تسمّى (تلقّب) فيها محمد باسم أو لقب النبيّ. وكانت فترة قصيرة في مكة قبل الهجرة إلى يثرب. ومن المؤكد أنّ اللقب كان مألوفًا في التراث الروحي للجزيرة العربية واليمن، فقد عرفته الإبراهيمية واليهودية ثم المسيحية ـ مرورًا بأديان صغيرة مثل الصابئية ـ. وبرأينا، يجب أن ينصرف اللقب إلى دلالته البشرية، فالمتنبئ سواء أكان من

الكهنة أم من صغار خدم المعبد الديني،هو في نهاية الأمر رجل بشريّ دخل طوره الإلهي. وهذا العهد ينتسب بقوة للتراث اليهودي الذي يعرف (أنبياء بني إسرائيل) ولا يعرف لقب (رسول اللّٰه)..

الثانية:

عهد الرسولية، وهي الفترة الأطول في حياة محمد الرسول، وكانت يثرب موطنها التاريخي والحقيقي، لأنها شهدت ولادة أسطورة دحية الكلبي، وفيها تجسّدت شخصية الملاك في صورته البشرية كرسول من السماء. وهذه صورة تنتسب بقوة للتراث المسيحي. ومن المرجّح في ضوء الكثير من الأدلّة أن شخصية جبرائيل البشري، أي دحية كانت سلاحًا في الصراع ضد يهود الجزيرة العربية، لأن اليهودية العربية تكنّ كراهية خاصة لجبرائيل.

ابن عباس ودحية

في هذا الإطار، يروي الذهبي[1] حديثًا ورد على لسان ابن عباس يزعم فيه أن جبرائيل استوصى النبي ﷺ به، لأنه سيكون حبر الأمة؟ يقول الذهبي (عن عبد اللَّه بن بريدة، عن ابن عباس قال: أرسلني أبي إلى رسول اللَّه ﷺ أطلب الأدام، وعنده جبريل، فقال ـ أي جبرائيل ـ: هو ابن عباس؟ قال: بلى، قال: فاستوصِ به خيرًا؛ فإنه حبر أمتك، أو قال: حبر من الأحبار.هذا حديث منكر. قلت: جاء من غير وجه، أنه رأى جبريل عند رسول اللَّه ﷺ في صورة دحية الكلبي، فروي أن رسول اللَّه ﷺ قال: لن يموت عبد اللَّه حتى يذهب بصره، فكان كذلك).

إذا ما صدّقنا منطوق الحديث ـ حرفيًا ـ فسوف يكون علينا كذلك، تصديق قول ابن عباس: (أرسلني أبي إلى رسول اللَّه ﷺ أطلب الأدام[2]، وعنده جبريل). فهل كان ابن عباس نفسه، يوم كان طفلًا، ضحية هذا الالتباس، وبحيث اعتقد جازمًا أنه شاهد جبرائيل عند النبيّ ﷺ؟ في هذه الحالة، يكون الملاك قد تحوّل فعليًا إلى بشر في اللقاء الأول مع النبي ﷺ داخل مسجد يثرب، ثم بدأ يتصرف بوحي من هذا التجسّد، كشخص بشريّ حقيقي، يمكن أن يُنظر إليه على أنه جبرائيل ودحية في الآن ذاته؟ فمن هو دحية الكلبي هذا؟ وهل هو شخصية تاريخية حقيقية أم وهمٌ اختلقه الرواة؟ وهل هو جبرائيل وقد تجسّد في صورته؟ أم هو رجل حقيقي له شبه بالملاك لشدّة جماله وحسب، وقد شاهده بعض المسلمين حقًّا؟ أم إن مسألة وجوده

(1) الذهبي، **تاريخ الإسلام**: ج2/ 95.
(2) الأدام: الجلود المدبوغة.

تندرج في إطار ما يسمى مختلقات الإخباريين والمفسرين في العصر الأموي ثم العباسي، وإن كل ما كتب وقيل بصدده في الكتب والمؤلفات التاريخية، لا أساس له في الواقع ولا يتعدى نطاق التلفيق؟ والآن ـ مرة أخرى ـ إذا ما صدقنا ما زعمه الإخباريون ومفسرو القرآن، بأن دحية الكلبي كان صحابيًّا، وأنه كان يزور يثرب في أوقات متباعدة، ولم يصل مكة أبدًا، فهذا يعني أن بعض المسلمين، إما شاهده مصادفة أو تسنى له التعرّف إليه بشكل غير مباشر. فهل يمكن للبشر من غير الأنبياء أن يروا الملائكة؟ لقد كان هذا السؤال القديم، مطروحًا للنقاش بقوة في أوساط مسلمي الجماعة الأولى، وكانوا من الشجاعة والذكاء، بحيث إنهم دخلوا في سجال علني حول مسألة دحية الكلبي، وذلك ما يبرره ـ وربما يفسره ـ نزول آيات كثيرة، سعت إلى شرح علاقة النبي ﷺ بجبرائيل؟ ولو لم يكن هذا النقاش متفجّرًا وحقيقيًّا، لما نزلت الآيات وانغمس المفسّرون والقرّاء في تأويل مضامينها. إن منطوق آية ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[1] لا تبدو مفهومة، فهل يرسل اللّه ملاكًا إلى ملائكة يمشون في الأرض مطمئنين كما لو كانوا بشرًا حقيقيين؟ وهل يمكن الافتراض أنها تنفي من الأساس وجود ملائكة في الأرض تمثّلوا، أو تجسّدوا في صور بشرية، وأن ذلك لو حدث، لأرسل اللّه ملاكًا لهم؟ إن لمن العسير، بالفعل على مسلم مؤمن، فهم مضمون هذه الآية، إلّا إذا تمكن من فهم واستيعاب قضية دحية الكلبي التي أثارت الجدل والحيرة قبل أكثر من 1400 عام من الآن؟ ومع ذلك تقطع سائر الآيات التي نزلت لشرح قضية دحية الكلبي، بحقيقة أن العرب والمسلمين أثاروا مسألته بقوة، وأن بعضهم شكّك بأنه جبرائيل، فأنشاوا سرديات متعدّدة الوظائف والمستويات، أجمعت على أنه شبيهه فقط. ويمكن التدليل على نوع وطبيعة التعقيد والعسر في هذه الآية، أن الطبري[2] فشل في تقديم تفسير مقبول

(1) سورة الإسراء: الآية 95.

(2) الطبري، تفسير، ج17/ 588.

حتى في الحدود الدنيا، فهي برأيه نزلت بعد أن أثير مثل هذا النقاش، وبعد أن تجادل المسلمون حول حقيقة التجسيد.

هاكم ما يقوله الطبري، ودقّقوا في إمكانية فهم النص والتأويل:

(الملائكة إنما تراهم أمثالهم من الملائكة،ومن خصّه اللّه من بني آدم برؤيتها، فأما غيرهم فلا يقدرون على رؤيتها، فكيف يبعث إليهم من الملائكة الرسل، وهم لا يقدرون على رؤيتهم وهم بهيئاتهم التي خلقهم اللّه بها، وإنما يرسل إلى البشر الرسول منهم، كما لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، ثم أرسلنا إليهم رسولًا، أرسلناه منهم ملكًا مثلهم).

لا يبدو هذا النص مفهومًا، ويصعب شرحه للقرّاء. كما أنَّ تساؤلات الطبري وتفسيراته هذه، تبدو عقيمة وعديمة الجدوى، فهي لا تقدم أي جواب عن السؤال المطروح: هل كان المسلمون أصلًا، يعتقدون أن في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين؟ ومتى كان ذلك؟ ولماذا يرسل اللّه للملائكة رسولًا؟ وكيف يرسل اللّه رسولًا لملائكة أرسلوا للنبي ﷺ؟ بيد أن تفسير الطبري، مثله مثل التفاسير الشائعة، يثير من جانب موازٍ مشكلة جديدة، فإذا كان البشر لا يرون الملائكة ـ باستثناء الأنبياء ـ فكيف تسنى للمسلمين أن يروا الملاك في صورة دحية الكلبي؟ هل رأوه فقط بوصفه رجلًا منهم، جميل الصورة والهيئة، وأن الشبه بينه وبين جبرائيل هو مجرد شبه تمّ استخدامه وتوظيفه لتقريب صورة الملاك في أعينهم، وأن كل مقاصد الحديث النبويّ عنه، تذهب إلى هذا الجانب وحده لا أكثر من ذلك؟ أم أنهم رأوا الملاك السماوي وقد عاش بينهم كإنسان حقيقي وشاركهم بعض حروبهم؟ إن حادثة بعينها هي التي أثارت كل هذا اللغط، فقد عاد النبي ﷺ من معركة الخندق متعبًا، وعازمًا على أن يستريح، ريثما يتمكن من التخطيط لمعركة أخرى، ولكنه ما أن دخل يثرب حتى توجه لرؤية ابنته فاطمة (وأراد أن يغسل رأسه. فجاءه جبريل عليه السلام: وقال: لا تغسل رأسك، ولكن اذهب إلى بني قريظة. فخرج رسول اللّه ﷺ). ويقال في روايات أخرى: (إن جبريل قال له حين وضع سلاحه: وضعت سلاحك؟ قال: نعم، قال:ما وضعت الملائكة سلاحها بعد، وقد أمرك اللّه عز

وجل أن تنهض نحو بني قريظة، فخرج رسول اللَّه إلى الناس فقال: عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَنْ لا تُصَلُّوا العَصْرَ إلَّا بِبَنِي قُرَيْظَة. فلبس سلاحه وخرج المسلمون معه، واللواء في يد علي بن أبي طالب، فمرَّ على بني عدي وبني النجار وقد أخذوا السلاح. فقال: مَنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَلْبَسُوا السِّلاح، فقالوا: دحية الكلبي. وكان جبريل عليه السلام يتمثل في صورته)[1].

إذا تقبّلنا هذا التفسير، فسوف يكون علينا في هذه الحالة تصديق كل المرويات الأخرى، بما فيها رواية دخوله المسجد في يثرب وسؤاله النبي ﷺ عن معنى الإسلام وساعة القيامة؟ وأنه كان يختبر معارف النبي ﷺ. وإذا ما رفضناه، فمن المنطقي أن نقوم برفض كل المرويات الخاصة بدحية، إذ كيف يمكن لرجل من المسلمين، مجرد رجل - وهو لم يكن صحابيًا معروفًا بعد، أن يقرر مسائل الحرب والسلام بين قبائل الجزيرة العربية، وهو التاجر القادم من الشام؟ ودون العودة إلى النبي ﷺ؟ لكن، لمّا كان دحية هذا، مجرد رجل غريب جاء من الشام للتوّ بثياب نظيفة، فكيف تسنى له أن يسبق النبي ﷺ إلى المسلمين بهذه السرعة، فيأمرهم بقتال بني قريظة، بينما كانت معركة أخرى قد انتهت للتّو؟ فهل هو مجرد رجل وجد النبي ﷺ فيه شبهًا بجبرائيل، أم هو جبرائيل نفسه تجسّد في صورة رجل؟ عند هذه النقطة من حديث الحرب مع بني قريظة، لن يكون ممكنًا بعد الآن قبول فكرة (وجود شبه) وحسب، بين جبرائيل ودحية، لأن مجرد الشبه لا يعطي دحية الحق في إعلان الحرب؟ أمّا إذا تقبّلنا فكرة أنه الملاك وقد تجسّد في صورة رجل، ففي هذه الحالة يمكننا تقبّل الحديث، أي إن من أمر بالحرب دون العودة للنبيّ ﷺ، إنما هو رسول اللَّه دحية الكلبي. سوف نقرأ في رواية البيهقي ما يدعم وجود مثل هذا النقاش، فهو يقول[2] إن عائشة سمعت ذات يوم صوت جلبة شديدة خارج منزلها، ثم رأت النبي ﷺ يخرج مسرعًا، وإنها حين أطلت برأسها، رأته وقد أخذ بلجام فرس دحية، ثم راح يمسح الغبار عن وجهه. وحين سألته عن

(1) الآلوسي: ج10/ 180.

(2) البيهقي، السنن الكبرى: ج4/ 68.

سبب خروجه مسرعًا ولماذا كان يمسح الغبار عن وجه الرجل، سألها النبي ﷺ: هل رأيته؟ فقالت: نعم لقد رأيته. وعندئذٍ قال: هذا جبريل.

هناك روايتان عن مشاهدة دحية في صورة جبرائيل وفي هيئة رجل اسمه دحية. الأولى تنسب المشاهدة لعائشة. والثانية تعيد تنسيبها لابن عباس. فمن منهما شاهده؟ في هذا الوقت، يجب أن نلاحظ أن عمر ابن عباس لم يتعد السنوات السبع، بينما كانت عائشة في الثانية عشرة من عمرها تقريبًا؟ فهل يمكن ـ إجرائيًا ـ قبول شهادتي صبيّين لم يبلغا سن الرشد؟

هاكم أولًا نصّ الرواية الخاصة بعائشة كما أوردها البيهقي:

عن عائشة، أن رسول اللّه ﷺ سمع صوت وثبة شديدة، فخرج إليه فاتبعته أنظر، فإذا هو متكئ على عرف برذونه، وإذا هو دحية الكلبي ـ فيما كنت أرى ـ وإذا هو معتم مرخ من عمامته بين كتفيه، فلما دخل عليّ رسول اللّه ﷺ، قلتُ: لقد وثبت وثبة شديدة ثم خرجت، فذهبت أنظر فإذا هو دحية الكلبي. قال «أوَرأيته؟» قلت: نعم. قال « ذاك جبريل أمرني أن أخرج إلى بني قريظة». قال عبد اللّه بن عمر: أخبرني يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة مثله. ورواه خالد بن مخلد عن عبد اللّه بن عمر عن أخيه يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد عن عائشة ـ وشاهد هذا الحديث في رؤية عائشة جبريل عليه السلام ـ قولها: فكأني أنظر إلى رسول اللّه ﷺ يمسح الغبار عن وجه جبريل فقلت: هذا دحية يا رسول اللّه؟ فقال: «هذا جبريل».

يُفهم من هذه المروية أن الرجل الذي رأته عائشة ـ وهي متأكدة تمامًا ممّا تشاهد وتقول ـ كان دحية الكلبي[1] وليس جبريل، لكن النبي ﷺ قال لها إنه جبريل؟ وبكل يقين، فليس ثمة ما يدلّ على أن المسألة تتعلق بوجود مجرد

(1) في رواية ابن عساكر مختصر تاريخ دمشق، ج4/ 239، أن النبي ﷺ كان يناجي دحية ولم يكن يتحدث معه، وهذا أمر لافت للانتباه. ـ قارن مع رواية البيهقي.

شبه شديد بين الملاك والرجل؛ بل على الضد من ذلك، يدلّ صراحة على أن الملاك والرجل،بالنسبة للنبي ﷺ كانا يتماهيان في صورة واحدة، بينما كان بالنسبة لعائشة رجلًا اسمه دحية؟ ومع ذلك، تقبّلت عائشة هذا التصوّر المباغت للحظة تماهي الرجل مع الملاك، ولو لم يكن الأمر كذلك، لما كان لها أن تتفهّم معنى ومضمون سلوكه، حين قام النبيّ بمسح الغبار عن وجهه؛ بل لما سُمع لوصوله صوت جلبة شديدة، حملت النبي ﷺ على الخروج مسرعًا للقائه. ولماذا يمسح النبي الغبار عن وجه رجل غريب قادم من الشام لو لم يكن ملاكًا أي لو لم يكن رسول اللّه؟ أما الرواية الثانية والمنسوبة لابن عباس، وهي رواية مكتوبة بشروط الأسطورة لا بشروط الخبر التاريخي، ونقلتها مصادر كثيرة (ابن عساكر مثلًا)[1] فيمكنها ـ عند إعادة تفكيكها وتحليلها ـ أن تفسّر هذا السلوك:

عن ابن عباس قال: مررت بالنبي ﷺ وقد انصرف من صلاة الظهر وعليه ثياب بيض، وهو يناجي دحية الكلبي فيما ظننت، وكان جبريل عليه السلام ولا أدري، فقال جبريل للنبي ﷺيا رسول اللّه، هذا ابن عباس، أما إنه لو سلم علينا رددنا عليه، أما إنه شديد وضح الثياب، وليلبسن ذريته من بعده السواد، فلما عرج جبريل وانصرف النبي ﷺ قال: ما منعك أن تسلم إذ مررت آنفًا؟ قال: قلت: يا رسول اللّه، مررت بك وأنت تناجي دحية الكلبي، فكرهت أن أقطع نجواكما بردكما عليّ السلام. قال: لقد أتيت النظر، ذاك جبريل وليس أحد رآه غير نبيّ إلّا ذهب بصره؛ وبصرك ذاهب، وهو مردود عليك يوم وفاتك. قال: فلما مات ابن عباس وأدرج في أكفانه، انقض طائر أبيض فأتى بين أكفانه، وطُلب فلم يوجد، فقال عكرمة مولى ابن عباس: أحمقى أنتم. هذا بصره الذي وعده رسول اللّه ﷺ أن يرد عليه يوم وفاته.

(1) مختصر تاريخ دمشق: ج6: 184.

إن تفكيك هاتين المرويتين، والصورتين السماوية والبشرية لكل من الملاك والرجل، يتطلب معالجة مركبّة، فهما صورتان تَنبنيان على أساس واحد يقول، بأن كلًا من عائشة وابن عباس، شاهد جبريل، ولكن في صورة بشرية، وكيف أن النبي ﷺ كان يناجي دحية بوصفه الملاك جبرائيل. ولنلاحظ أن النبي ﷺ في المروية الأولى لم يحذر عائشة من ضياع بصرها، لأنها رأت دحية في صورة جبرائيل، بل حمل لها منه سلامًا، بينما نلاحظ في المروية الثانية، أن النبي ﷺ سارع إلى تحذير ابن عباس ممّا شاهد، وأنذره لا بضياع البصر، وإنما لبس السواد في أحفاده ـ وهذه إشارة ميثولوجية تخصّ تصورات المسلمين لسبب اتخاذ العباسيين، نسل العباس الأب للون الأسود ـ وهو ما يدعونا للاعتقاد أن الرواية من تلفيقات العصر العباسي؟ ولنلاحظ كذلك، أن الرواية تتحدث عن ابن عباس الشاب، وليس الطفل أو الصبي الذي شعر بالحرج من إلقاء التحية لئلا يقطع مناجاة النبي ﷺ مع الملاك، بينما تقول لنا الرواية السابقة إنه كان طفلًا أرسله والده للنبيّ ﷺ ليجلب الطعام،وأنه شاهد جبرائيل يجلس عنده ولم يكن مشغولًا بمناجاته؟

فلماذا حدث كل هذا التناقض؟

وهل يمكن الافتراض أن مروية ابن عباس مشكوك بها من الأصل، لأنه لم يتلق تحذيرًا من هذا النوع؟ السبب الجوهري الذي يدفعنا إلى التشكيك بالمروية،أن المسلمين في مسجد يثرب شاهدوا دحية في صورة ملاك، ولكنهم لم يتلقوا التحذير نفسه من النبي ﷺ ولم يُصب أي منهم بالعمى مع أنهم شاهدوا الملاك، فلماذا يصاب ابن عباس بالعمى؟ المثير للاهتمام في هذه التناقضات، أن مؤلفًا مثل الأبشيهي[1] يقوم برواية المروية ذاتها دون إسناد، ولكن ليضع أبا ذر الغفاري محل ابن عباس؟ ويصبح أبو ذرّ هو منْ شاهد جبريل الذي سيخبر النبي ﷺ، أنه سيكون شهيرًا في زهده؟

هاكم رواية ثالثة من الأبشيهي[2] حيث يحل أبو ذرّ محل ابن عباس. يقول:

(1) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف: ج1/ 144.
(2) الأبشيهي ـ كذلك.

(ومرَّ أبو ذر على النبي ﷺ ومعه جبريل عليه السلام في صورة دحية الكلبي فلم يسلّم، فقال جبريل: هذا أبو ذر، لو سلّم لرددنا عليه. فقال: أتعرفه يا جبريل؟ قال: والذي بعثك بالحق نبيًّا، لهو في ملكوت السموات السبع، أشهر منه في الأرض، قال: بم نال هذه المنزلة؟ قال: بزهده ِ في هذه الحطام الفانية)

ما تقوله هذه الرواية ـ حرفيًّا ـ إن اللّٰه بعث محمد نبيًّا لا رسولًا، وإن أبا ذرّ شاهد الرسول دحية مع محمّد، عرضًا وأثناء مروره، فلم يلق التحيّة عليهما لئلا يقطع عليهما المناجاة، ولكن جبرائيل سارع لسؤال النبيّ ﷺ عن أبي ذرّ بالاسم، فأجابه مندهشًا: أتعرفه يا جبريل؟ أي إن النبيّ ﷺ كان متيقنًا تمامًا، أنه يتحدث لملاك الرّب جبرائيل وليس لشخص اسمه دحية، وهذا ينفي نفيًا قاطعًا أن يكون الأمر يتعلق بوهم أو التباس، فالرجل البشري كان هو نفسه الملاك؟ فهل من رآه، هو ابن عباس أم أبو ذر أم عائشة، ولماذا لم يصب أبو ذرّ ببصره أو يتلقى تحذيرًا؟ وهل، حقًّا حدث مثل هذا اللقاء؟ ولماذا نبدي الشكوك بشأنه؟ تبدو هذه المروية الضعيفة من المنظور التاريخي، ولكن المقبولة من المنظور الميثولوجي بوصفها مروية أسطورية، وكأنها مصمّمة لتمجيد ابن عباس كناقل ثقة للحديث، كما أنها مصمّمة لتمجيد أبي ذرّ كصحابيّ اشتهر بزهده ونضاله من أجل الإسلام. وعندما نعلم أن عمر ابن عباس كان وقت وفاة النبي ﷺ، أي قبل زمن طويل نسبيًّا من اللقاء مع جبرائيل، لم يكن ليتجاوز سبع ـ أو ثماني سنوات في أبعد تقدير ـ أي إنه كان طفلًا صغيرًا، وربما في السادسة من عمره في أحسن الأحوال لأن والده أرسله لطلب حاجة من النبيّ ﷺ، فسوف يصعب تصوّر أن النبي ﷺ عاتبه لأنه لم يلق التحية عليه، حين رآه مع جبرائيل؟ ذلك يعني أن أصل الرواية مثير للشكوك، ولذلك لا يبدو أمرًا منطقيًّا تقبلها كما وردت على لسان ابن عباس. وهل يمكن تخيّل طفل في هذه السن، قادرًا على معرفة صحابة النبي ﷺ، وأكثر من ذلك أن يعرف أنه كان يناجي جبرائيل؟ وأبعد من هذا، أن يميّز بين الملاك المتحوّل لبشري، وبين البشري شبيه الملاك؟

إن العنصر الحاسم في تأسيس وإنشاء التراجيديات الدينية، يكمن في الالتباس وغموض المصائر وانعدام أي منطق فيها، وبحيث إننا لا نعود قادرين على التعرّف بسهولة على سلوك الشخصيات ولا تبرير تصرفاتها وأفعالها. وكما هو شأن سائر التراجيديات الدينية، فقد التبس على المسلمين الشخص الذي رأى الملاك، واختلفوا حول مصيره. وفي هذا السياق بدت أحاديثه ومشاركاته في المعارك موضوعًا خلافيًا، مثلها مثل (معنى) اسمه. وبالفعل فقد نشب خلاف حول معنى اسمه وتجاوزه لإثارة نزاع موازٍ حول موته وقبره وأين دفن؟

إشكالية التجسيد في القرآن

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾

[الإسراء: 95]

لا تبدو هذه الآية مفهومة لقارئ متديّن شديد التكلف، وربما لن تكون كذلك بالنسبة لقارئ آخر شكاك ومتطلّب. وهذا حقيقي، لأن ما تتحدث عنه قد يشي بخطأ من نوع ما. فهل نزلت الآية بسبب وجود معتقد قديم عن (ملائكة يعيشون بين البشر)؟ أم هي تصبّ في مجرى النقاش نفسه حول تجسّد الملاك جبرائيل في صورة دحية؟ إن نص الآية التي استفاض القدماء في تأويلها دون جدوى، تبدو ذات طابع إشكاليّ غير قابل للتسوية، فهي تتحدث عن نقاش متفجّر حول وجود ملائكة تحوّلوا إلى بشر ويعيشون في مجتمع القبائل. لكن الردّ على هذا النقاش يبدو هو الآخر إشكاليًا وغير مفهوم، فهو يجزم بأن مثل هذا الأمر لم يحدث، ولو حدث، لأرسل اللّه لهم رسولًا؟ فما معنى هذا؟ يعيدنا التأويل السائد للآية إلى الدائرة نفسها في النقاش حول تجسّد الملاك جبرائيل في صورة دحية الكلبي، فهو رسول اللّه إلى النبيّ ﷺ. لكن ماذا يفعل الملائكة الآخرون؟ مشكلتنا الكبرى في فهم منطوق الآية تكمن هنا: إننا لم نعد نناقش مسألة تجسّد ملاك سماوي واحد في صورة رجل بشري؛ بل مسألة وجود ملائكة يمشون في الأرض مطمئنين، وهو معتقد عربي يبدو أنه كان سائدًا في مجتمع يثرب. بيد أن القرآن ينفي ذلك بشكل قاطع، ويحتجّ بأن مثل هذا الأمر لو حدث(لنزلنا عليهم ملكًا رسولًا)؟ وهذا النفي إشكاليّ، فلماذا يرسل اللّه

ملاكًا رسولًا لملائكة صاروا بشرًا؟ ولأيّ غرض أو هدف، وماذا عن الملاك الرسول الذي أرسله للنبي (البشري)؟ ولو حدث ذلك، فهل سيكون لدينا ملاكان سماويان، أحدهما مرسل لملائكة تحولوا لبشر، والآخر للنبيّ، أي لرجل بشري مقدّس، تسامى كشخص إلهيّ؟ وهل هذا هو الأصل في مسألة وجود ملاكين أحدهما يدعى جبرائيل والآخر ميخائيل؟ إن الاسم جبر - ءيل ينصرف إلى معنى إله القوة، بينما ينصرف اسم مخ - ءيل إلى معنى إله العقل (ومنه اسم ساحل المخا اليمني واسم الإله المقه - المكة المنتقل من جنوب إلى شمال الجزيرة العربية).

وفي شخصيهما سوف يتجسّد الصراع الأزلي بين القوة والعقل. إن ثنائية الملاك (الملاك المزدوج) تعبير عن ثنائية الخير والشر المانوية، ولكنها تعبر بالقدر ذاته من الجاذبية عن فكرة أعمق تخص وجود ملاك سماوي واحد، اتخذ هيئتين، ولنقل إنه مؤلف من عنصرين متصارعين، هما عنصر العقل وعنصر القوة، وإن الاسمين لا يدلّان على ملاكين؛ وإنما على ملاك واحد تزاوجت فيه القوة مع العقل، ولذا هو يتجلّى للبشر في صورتيه. لقد عجز الفقهاء والمفسرون القدماء في تقديم تفسير مقبول، ولأنهم لم يتمكنوا من فهم الآية، ولم يجرؤوا على إعلان التشكيك في صحّة منطوقها، فقد ضاعوا في لف ودوران لا أول له ولا آخر، فتارة يعيدون ويكررون الفكرة، وتارة يربطون الأمر بوجود ما يبدو أنه نقاش مثار حول ملائكة يمشون في الأرض مطمئنين، وهو ما يضع مسألة فهم الآية في موضع الشك على مستوى صحّته. قد تكون هذه الآية الإشكالية في القرآن، أكثر انتسابًا للعهد الرسوليّ وثقافته التي شاعت وسادت في مجتمع الجزيرة العربية واليمن، ربما تحت تأثير المصوّرات العظيمة التي تركها الآشوريون، حيث يتمثّل عالم الملائكة المجنّحين في صورٍ وأشكالٍ مختلفة، بينها الثيران الصخريّة العملاقة، رمز القوة والجبروت السماويّ، فيما يتمّ تمثيل منتظم لفكرة العقل في صور أخّاذة للرجل النسر تحت قدميه أسد، وهي الصورة التي بهرت بصر وعقل الشاعر النصراني أميّة بن أبي الصلت، وأحبّها محمد وظل يتغنى بها طويلًا: ومن هذه المصوّرات الآشورية انبثقت صورة الإله - الملاك جوبيتر (جبر - ءيل). قال أميّة:

رجـل وثـور تـحـت رجـل يـمـيـنـه والـنـسـر لـلأخـرى ولـيـث مـرصـد

وهذه الصور الشعرية تتضمن تعبيرًا رمزيًّا شاملًا عن الفكرة ذاتها، فثمة رجل ـ ثور تحت ساقه اليمنى ليث (أسد) هصور، بينما الساق الأخرى للرجل ـ النسر ـ الثور، نفسه بجناحيه الرائعين ويظهر تحتها الأسد نفسه ـ انظر الصورة رقم 1 من متحف الأناضول القرن السابع ق.م ـ. لقد تجسّد الملاك السماويّ بجناحيه الهائلين المرصّعين بالياقوت في صورة رجل ـ ثور، ورجل ـ نسر في آنٍ واحد. فمن أين استمد القرآن صورة الملائكة ـ الرجال الذين يمشون في الأرض مطمئنين؟ وأين شاهد أميّة بن أبي الصلت هذه اللوحة التي تجسد الملاكين (الملاك نفسه في صورتين).



دحية في اللغة

وكما حدث تلفيق فظيع على مستوى التاريخ، وبشكل أخص على مستوى تاريخ الإسلام النبويّ والرسولي (أي حقبتي النبوّة والرسولية) نجم عنه اختلاق شخصية دحية، فقد حدث تلفيق موازٍ في اللغة لتطويعها وإرغامها على إيجاد (معنى) للاسم. لقد درج اللغويون العرب على تلفيق الكثير من المعاني والدلالات، باستخدام توسّطات وتناظرات عمومية، ودون أن تكون هذه المعاني والدلالات ذات صلة حقيقية بالكلمة. وهذا ما نجد نموذجه في النقاش حول اسم دحية، فقد (لفقوا) معنى للكلمة باستنباط دلالة لا أساس لها، وفقط من خلال استخدام واقعة الشبه بينه وبين جبرائيل. وبما أن جبرائيل في المسيحية العربية كان رئيس الملائكة، وهو في المندائية كبيرهم الذي جلب (نهر اليردنا، ها ـ يردن) السماوي، فقد جرى الترويج لتفسير لغوي زائف يقول إن كلمة دحية تعني الرئيس[1]. حتى أن لغويًا شهيرًا مثل ابن أبي حاتِم، افترض أن الرَّئيس اسم ـ لقب ـ سُمِّيَ به دِحْيَةُ الكَلْبِيُّ[2]. (حكاه ابن السكّيت بالكسر، وحكاه غيره بالفتح، قال أبو عمرو: وأصل هذه الكلمة السيد بالفارسية). وفي الروض الأنف[3] يستقصي السهيلي أنباء الحملة على بني قريظة، ويستنبط معنى اسم دحية على النحو التالي: وَذَكَرَ خُرُوجَ النّبِيّ ﷺ إلَى بَنِي قُرَيْظَةَ حِينَ مَرّ بِالصّوْرَيْنِ، وَالصّوْرُ الْقِطْعَةُ مِنَ النّخْلِ فَسَأَلَهُمْ فَقَالُوا: مَرّ بِنَا دِحْيَةُ بْنُ خَلِيفَةَ الْكَلْبِيّ. هُوَ دَحْيَةُ بِفَتْحِ الدّالِ وَيُقَالُ دِحْيَةُ بِكَسْرِ

(1) الصاحب بن عباد، **المحيط في اللغة**: ج1/ 245.

(2) ابن سيده، **المحكم والمحيط الأعظم**: ج3/ 68.

(3) السهيلي، **الروض الأنف**: ص 437.

الدّالِ أَيْضًا، وَالدّحْيَةُ بِلِسَانِ الْيَمَنِ: الرّئِيسُ وَجَمْعُهُ دِحَاءٌ. وَفِي مَقْطُوعِ الْأَحَادِيثِ أَنّ النّبِيّ ﷺ رَأى الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ يَدْخُلُهُ كُلّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ دِحْيَةٍ تَحْتَ يَدِ كُلّ دِحْيَةٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ. ذَكَرَهُ الْقُتَبِيّ، وَرَوَاهُ ابْنُ سُنْجُرٍ فِي تَفْسِيرِهِ مُسْنَدًا إلَى عَبْدِ اللّهِ بْنِ الْهُذَيْلِ، رَوَاهُ عَنْهُ أَبُو التّيّاحِ، وَذَكَرَ أَنّ حَمّادَ بْنَ سَلَمَةَ قَالَ لِأَبِي التّيّاحِ حِينَ حَدّثَهُ بِهَذَا الْحَدِيثِ مَا الدّحْيَةُ؟ قَالَ الرّئِيسُ).
لكن، ما علاقة الواقعة، أي واقعة سواء أكانت تشبيه النبيّ له، أم تحريضه على قتال يهود بني قريظة، بمبنى الاسم الأصلي؟ إن الجذر الثلاثي (دحا) لا يؤدي بأي صورة من الصور إلى دلالة (الرئيس) لأن المعنى ينصرف إلى لعبة من ألعاب الأطفال. فكيف أمكن للغويّين العرب أن يتوصلوا إلى تأويل كلمة دحية كاسم دال على (رئيس الجند) ومن أي جذر اشتقوا معنى الرئيس؟ يبدو هذا التخريج اللغوي نوعًا من تلفيق، لأن الجذر دحا لا يؤدي إلى معنى رئيس الجند؟ وبكل يقين، فقد بُني أساس هذا التخريج على صورة شائعة عن جبرائيل رئيس الملائكة، وفي الوقت ذاته، جرت مطابقته مع واقعة ميثولوجية (أسطورية) عن الجنود ـ الملائكة الذين خاضوا معركة بدر بقيادة جبريل؟ وما يدلل على هذا التلفيق أن معاجم اللغة تقول عن دحية ما يلي: وبنو دُحَيّ: بطن. والدَّحْوُ[1] البَسْطُ، دَحَا الأَرضَ يَدْحُوها دَحْوًا بَسَطَها. وقال الفراء في قوله عز وجل: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾[2] قال: بَسَطَها.

---

(1) ابن منظور، **لسان العرب**: ج14/ 251 (وفي حديث أَبي رافع كنت أُلاعِبُ الحَسَن والحسين رضوان اللّه عليهما بالمَدَاحِي، هي أَحجار أَمثال القِرَصَة كانوا يحفِرون حُفْرة ويَدْحُون فيها بتلك الأَحْجار فإِن وقع الحجر فيها غَلَب صاحِبُها وإِن لم يَقَع غُلِبَ. والدَّحْوُ هو رَمْيُ اللَّاعِب بالحَجَر والجَوْزِ وغيرِهِ والمِدْحاة خَشَبة يَدْحَى بها الصبيُّ فتمر على وجه الأَرض لا تأْتي على شيء إلا اجْتَحَفَتْه. وشمر: المِدْحاة لعبة يلعب بها أَهل مكة. قال وسمعت الأَسَدِيَّ يصفها ويقول هي المَداحِي والمَسَادِي وهي أَحجار أَمثال القِرَصة، وقد حَفَروا حُفْرة بقدر ذلك الحَجَر فيَتَنَحَّون قليلًا ثم يَدْحُون بتلك الأَحْجار إِلى تلك الحُفْرة؛ فإِن وقع فيها الحجر فقد قَمَر ـ أَي فاز باللعبة ـ وإِلَّا فقد قُمِرَ ـ أَي خسر ـ قال: وهو يَدْحُو ويَسْدُو، إِذا دَحاها على الأَرض إِلى الحُفْرة والحُفْرة هي أُدْحِيَّة وهي أُفْعُولة من دَحَوْت).

(2) سورة النازعات، الآية 30.

قال شمر: وأنشدتني أعرابية:

الحمدُ للّه الذي أطاقَا

بَنَى السماءَ فَوْقَنا طِباقَا

ثم دَحا الأَرضَ فما أَضاقا

قال شمر: وفسرته، فقالت: دَحَا الأَرضَ أَوْسَعَها، ودَحَيْتُ الشيءَ أَدْحاهُ دَحْيًا بَسَطْته، لغة في دَحَوْتُه حكاها اللحياني. وفي حديث عليّ وصلاتهِ ﷺ اللّهم دَاحِيَ المَدْحُوَّاتِ[1]، يعني باسِطَ الأَرَضِينَ ومُوَسِّعَها. وقال ابن بري: أَجاز ابن السكيت في دِحَيْة الكَلْبِيّ فتح الدال وكسرها. وأَما الأَصمعي ففتح الدال لا غير. وفي الحديث كان جبريل عليه السلام يأْتيه في صورة دِحيْة والدِّحْية رئيسُ الجُنْدِ ومُقَدَّمُهم، وكأَنه من دَحاه يَدْحُوه إذا بَسَطه ومَهَّده لأَن الرئيس له البَسْط والتَّمْهيد، وقلبُ الواو فيه ياءً نظير قَلْبِها في فِتية وصِبْية. وأَنكر الأَصمعي فيه الكَسر. وفي الحديث: يدخل البيتَ المعمورَ كلَّ يوم سبعون أَلفَ دِحْيَةٍ مع كل دِحْيةٍ سبعون أَلفَ مَلَكٍ. قال والدِّحْية رئيس الجُنْدِ وبه سُمِّيَ دِحْيةُ الكَلْبِيّ. و ـ عند ـ ابن الأَعرابي الدِّحْية رئيس القوم ودحى[2] (والمدحاة كمسحاة خشبة يدحى بها الصبي فتمر على وجه الارض لا تأتي على شيء إلّا اجتحفته) وقال شمر: المدحاة لعبة يلعب بها أهل مكة.

هذا التلفيق اللغوي الذي قام به علماء اللغة العرب، يُدلّل بقوة على أنهم لم يكونوا يعرفون أي دلالة حقيقية للاسم، وأنهم استعانوا في استنباط الدلالة بصورة شائعة في المسيحية العربية عن جبرائيل رئيس الملائكة. ومع ذلك، سوف يصبح دحية بفضل هذا التلفيق لا مجرد رسول من اللّه، وإنما

---

(1) وحتى اليوم يسمّي الشيعة في العراق الإمام علي بن أبي طالب(داحي باب خيبر) أي الذي كسر أبواب حصون خيبر.

(2) الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، تاج **العروس من جواهر القاموس**: ج1/ 8381.

كبير رسله وخاتمهم. وَأَمّا نَسَبُه فَهُوَ ابْنُ خَلِيفَةَ بْنِ فَرْوَةَ بْنِ فَضَالَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ امْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ الْخَزْرَجِ، وَالْخَزْرَجُ الْعَظِيمُ الْبَطْنِ، ابْنُ زَيْدِ مَنَاةَ بْنِ عَامِرِ بْنِ بَكْرِ بْنِ عَامِرِ الْأَكْبَرِ بْنِ عَوْفِ بْنِ عُذْرَةَ بْنِ زَيْدِ اللّاتِ بْنِ رُقَيْدَةَ بْنِ ثَوْرِ بْنِ كَلْبٍ، يُذْكَرُ مِنْ جَمَالِهِ أَنّهُ كَانَ إذَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ لَمْ تَبْقَ مُعْصِرٌ - وَهِيَ الْمُرَاهِقَةُ لِلْحَيْضِ - إلّا خَرَجَتْ تَنْظُرُ إلَيْهِ.

شجرة أنسابه ومعاركه

ولأن (حياة) الملاك السماويّ في طوره البشري، أثارت الحيرة والشكوك فتناقضت الروايات والأحاديث بشأنها، فقد أثارت (وفاته) المزعومة الحيرة ذاتها، فتناقضت الروايات من جديد، وهذه المرة بشأن قبره وأين دفن. وبذلك، تبلغ التراجيديا الدينية ذروتها، حين يصبح موت الملاك في نسخته البشرية موضوعًا محيّرًا. عند ياقوت نجد أن دحية توفي ودفن في المزة بدمشق[1]. والمزةُ: بالكسر ثم التشديد، قال ياقوت (أظنه عجميًّا فإني لم أعرف له في العربية مع كسر الميم معنًى وهي: قرية كبيرة غَناءَ في وسط بساتين دمشق بينها وبين دمشق نصف فرسخ وبها فيما يقال قبر دحية الكلبي صاحب رسول اللّه ﷺ ويقال لها مزة كلب). أما مؤلف يوميات شامية[2] فيقول: (يوم السبت. فيه دعانا الأخ أبو الصفا مصطفى أفندي إلى المزة، فزرنا ـ قبر ـ دحية الكلبي). أما مؤلف تحفة الترك[3] فيقول: (المزة[4]، بكسر الميم وتشديد الزاي، قرية وسط بساتين غوطة دمشق، بها فيما يقال قبر دحية الكلبي صاحب رسول اللّه، يقال لها مزة الكلب). ها هنا ثلاث روايات تتفق على أن مكان قبره منطقة المزة بدمشق. بيد أن ابن شداد[5]

---

(1) ياقوت، **معجم البلدان**: ج4/ 104.

(2) ابن كنان، **يوميات شامية**: ج1/ 105.

(3) نجم الدين إبراهيم بن علي الحنفي الطَّرَسوسي، **تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك**. المحقق: عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي: ج1/ 76.

(4) **معجم البلدان** 5/ 122.

(5) ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**: ج1/ 113.

يضع قبره جنوب سورية (فلسطين) وفي قرية الشجرة. ويقول عنها: (قرية بها قبرُ صديق بن صالح، وقبر دحية الكلبي في مغارة على ما قيل). وعند القلقشندي[1] - هي من أعمال - جينين - بجيم مكسورة وياء مثناة تحت ساكنةٍ ونون مكسورة ومثناة تحت ثانية ساكنة ونون في الآخر - وهي بلدة قديمة متسعة، مركبة على كتف واد لطيف به نهر ماء يجري؛ وهي في الشمال عن قاقون على نحو مرحلة في رأس مرج بني عامر وبها مقام دحية الكلبي صاحب رسول اللَّه ﷺ. وها هنا روايتان تضعان قبره في فلسطين (جنوب سورية) وليس في دمشق؟

وفضلًا عن هذا كله،هناك عدد كبير من المرويات التي تتصادم بشأن موته، وما إذا كان في عهد معاوية أم ابنه يزيد. وما يثير الشكوك في كل هذه الروايات، أن بطلًا بهذا الجحم في تاريخ الإسلام، لا تبدو له أي قيمة على مستوى التاريخ الحقيقي، وبحيث يتوافق الرواة على زمن موته ومكان دفنه،مثلما توافقوا بخصوص صحابة أقل أهمية. لكن مسألة موته، سوف تبدو أقل أهمية بالنسبة لقضية شائكة أخرى تخصّ أنسابه وإلى أي قبيلة ينتمي؟ لقد أخفق الملاك السماوي أثناء تحوّله البشري في الانتساب إلى قبيلة يتفق حولها النسّابة البشريون؟ وكان ذلك، ذروة أخرى في تراجيديا دينية مولّدة بطبيعتها لفصول مأساوية لا تكاد تنتهي.

وسوف تكشف قراءة أنثروبولوجية جديدة في قوائم أنساب العرب، كما وردت عند النسّابة من المسلمين عن نمط الأخطاء والإشكاليات التي وقع فيها المؤلفون، عندما سعوا لتثبيت نسب دحية الكلبي. ولمّا كانت هذه المصادر إسلامية متأخرة، فمن غير المقبول مثلًا، أن نتقبل تجاهلها غير المبرر والمفهوم لنسله (أولاده وأحفاده) كما هو التقليد المتّبع في كتب الأنساب؟ ومع هذا، فلدينا بضع ملاحظات هامة سوف تبيّن نوع الإشكاليات التي تثيرها كتب الأنساب في الإسلام المتأخر.

(1) صبح الأعشى، ج3/ 90.

الملاحظة الأولى:

إن سائر هذه القوائم تتضمن اسم (الخزرج) باعتباره البطن العظيم الذي ينتسب إليه دحية مباشرة. وهو اسم لا وجود له في الواقع ضمن أنساب قبيلة كلب.

ويبدو أن النقل الخاطىء المفرّغ من أي روح نقديّة، أدّى إلى ارتكاب المؤلفين أخطاء فادحة في رسم الاسم، فهو عند بعضهم ـ انظر الجدول ـ الخزرج، وعند آخرين الخروج، بينما هو بطن قبلي يدعى(الخزج) ـ من دون حرف الراء ـ. لقد نقل هؤلاء المؤلفون الاسم بطريقة عمياء، وتوهموا أنه (الخزرج) على اسم القبيلة المعروفة. وهذا النسب في صورته التي وصلنا فيها، يعتبر من الناحية العلمية والموضوعية تلفيقًا.

الملاحظة الثانية:

إن النسب الذي يسجله هؤلاء لا يفضي بأي صورة من الصور لعلاقة دموية ـ من الدم أي الصلة المباشرة ـ مع قبيلة كلب، وذلك بسبب انقطاع مفاجىء في التسلسل الذي يفضي إلى هذه العلاقة عبر بطن عامر ـ العامريين الكلبيين ـ؟ ولذلك لا يمكن معالجة هذا الخلل إلَّا في حالة واحدة، هي أن نقوم بإضافة بطن لا وجود له هو(عامر بن بكر بن عامر).

إن الشجرة التي يرسمها النسّابة لكلب وبطونها هي على الصورة التالية:

شجرة أنساب دحية الكلبي

وبرة

كلب ________________ (........) غير معروف

ثور

رفيدة

زيد اللات

عذرة

عوف

بكر

عوف

عامر

(يتوقف نسب عامر ـ انقطاع)

الخزرج (الخزج عند السمعاني والخروج عند اليمني القرطبي)

امرؤ القيس

زيد

فضالة

فروة

خليفة

دحية

وطبقًا لهذا الرسم التوضيحي المأخوذ من قوائم أنساب كلب، يتضح أن البطن القبلي الأم هو وبرة وليس كلب؟ وأنه ينقطع عند عامر؟ وفيه يتكشّف أن النسابة من المسلمين المتأخرين لم يقدموا تسلسلًا منطقيًا للنسب ولا تفرعاته. كما أننا لا نجد فيه أي إشارة إلى أولاده وأحفاده؟ فما هي قيمة الشجرة التي رسمها هؤلاء النسابة وماذا أضافوا، إذا كانوا يكررون نسبًا قديمًا لقبيلة كلب ويلصقون به اسم دحية من دون ذكر تسلسل أعقابه؟ وفي علم الأنساب القديم، كما نعلم، فلا قيمة لأي قائمة أو شجرة أنساب إذا خلت من أمرين جوهريين:

الأول، وجود تسلسل صحيح للبطون.

والثاني، ذكر الأعقاب (الأبناء والأحفاد).

وهما أمران لا نجدهما في نسب دحية، فنحن لا نعرف من هم أولاده،

وأولاد أولاده، وزوجاتهم وأبنائهم؟ ولأجل أن تصبح شجرة أنساب دحية مقبولة يجب علينا في هذه الحالة أن نعيد رسمها وعلى النحو التالي:

وبرة

كلب ____________..........

ثور

رفيدة

زيد اللات

عذرة

عوف

بكر

عوف

عامر (هناك بطن يدعى عامر هو أخ غير شقيق لعامر)

بكر ____ (لا وجود له في كتب الأنساب)

عامر ______ (لا وجود له في كتب الأنساب)

الخزرج (الخزج عند السمعاني والخروج عند اليمني القرطبي)

امرؤ القيس

زيد

فضالة

فروة

خليفة

دحية

__________ (ينقطع النسب)

لا وجود لذريّة

لكن منْ هم أبناء دحية ومن هي زوجته؟ إننا نلاحظ تناقضات غير قابلة للحل، بين ما تذكره كتب الأنساب عن شجرته القبلية وخلوّها من ذكر أعقابه، وبين وجود روايات تتحدث عن زواجه من ابنة عم النبيّ ﷺ درّة بنت أبي لهب؟ ولأننا نعلم من تقاليد كتابة النسب، حرص النسّابة على ذكر أسماء الأمهات وزوجات الأب والأخوة غير الأشقاء والأبناء، فسوف يثير اشتباهنا غياب ذلك في شجرة نسب دحية؟

هاكم أولًا الخلاف بين الإخباريين والنسّابة حول معاركه. (عيّنة دراسية).

معاركه

المؤلف	المعركة التي شارك فيها دحية
1: ابن بري	أحد
2: ابن عبد البر الأندلسي	أحد
5: ابن قتيبة الدينوري	لم يشهد بدرًا
6: ابن حجر العسقلاني	الخندق

يلاحظ في هذه القائمة، أن رواة التاريخ الإسلامي، اختلفوا حول المعركة التي شارك فيها دحية الكلبي، وما إذا كانت الخندق أم حنين أم أحد؟ ولكنهم لا يذكرون أي شيء عن معركة بني قريظة، كما لا يقدمون لنا أي تفسير منطقي لسبب غيابه عنها، ولماذا لم يشارك فيها، مادام دعا المسلمين للاستعداد لها؟ لكل ذلك، سوف نقوم بتحليل علاقة النبي ﷺ بجبرائيل من منظورين، وطبقًا لمعظم ما ورد في المصادر الإخبارية ـ من حيث درجة الأهمية ـ. وسوف يُعنى المنظور الأول بالجانب الإخباري (التاريخي) من مروياته وأحاديثه وما نقل عنه من أثر بوصفه الرجل ـ الملاك؛ بينما يعنى المنظور الثاني، بالمحتوى الأسطوري لهذه المرويات بوصفه الملاك الذي تجسّد في صورة بشرية وواجه مأساة تحوّله.

1: المنظور الإخباري (التاريخي)

ما يثير دهشة واستغراب الباحث، أن كل ـ وأشدّد على كلمة كل ـ كتب الأنساب التي كتبت في الإسلام المبكر، تجاهلت نسب دحية ولم تذكره. وما كتب عنه في مصادر وموارد إسلامية متأخرة جدًا، مأخوذ من المصادر التالية وهي المصادر التي انفردت بوضع نسبه، ولنلاحظ أن هذه النصوص تكرر نصًا واحدًا دون أي إضافة تقريبًا، وهو ما يدعم اعتقادنا أن كل هذه المصادر قامت باستنساخ المادة من أصل واحد لا نعرف عنه الكثير؟ هاكم ما كتبه النسّابة المتأخرون، ومن دون أن يلاحظوا أن كتب الأنساب السابقة، لم تتوافق على النسب القديم ـ الافتراضي ـ؟

1: ابن قتيبة الدينوري[1]: هو دحية بن خليفة بن عامر بن الخزرج (أسلم قديمًا ولم يشهد بدرًا وكان يُشبّه بجبريل عليه السلام لجماله وحسنه، وكان إذا قدم المدينة لم تبق معصر[2] إلا خرجت تنظر إليه وبقي إلى زمان معاوية.

2: ابن بري[3]: هو دحية بن خليفة بن فروة الكلبيُّ، من كبار الصحابة. لم يشهد بدرًا، وشهد أحدًا وما بعدها من المشاهد وبقي إلى خلافة معاوية، وبعثه رسول اللّه ﷺ إلى قيصر في هُدنة الحديبية، فآمن به قيصر وأبت بطارقتُهُ أن تؤمن، فأخبر بذلك دحية رسول اللّه، فقال: ثبَّت اللّهُ مُلكَهُ).

(1) ابن قتيبة الدينوري: **المعارف**، ج1/ 78.

(2) الفتاة في أول حيض.

(3) ابن بري، **الجوهرة في نسب النبي ﷺ وأصحابه العشرة**: ج1/ 185 (وابن بري هو: علي ابن محمد بن علي بن محمد بن الحسين أبو الحسن الشهير بابن بري الرباطي التازي نسبة إلى رباط تازة. ولد سنة(660 هـ) ونشأ فيها وتوفي(730هـ). عاصر ابن بري قيام الدولة المرينية وعاش على مقربة من نهضتها، والاحتكاك بالنشاط العلمي الذي رافق هجرة علماء الأندلس إلى المغرب).

3: ابن عبد البر الأندلسي[1]: هو، دحية بن خليفة بن فروة الكلبي من كلب بن وبرة في قضاعة. ويقال في نسبه دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد بن امرىء القيس بن الخزرج. والخزرج، العظيم، وهو زيد مناة بن عامر بن بكر بن عامر الأكبر بن عوف بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب، كان دحية من كبار الصحابة، لم يشهد بدرًا وشهد أحدًا وما بعدها من المشاهد وبقي إلى خلافة معاوية.

4: ابن حجر العسقلاني[2]: دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد ابن امرئ القيس بن الخزرج، صحابي مشهور، أول مشاهده الخندق وقيل أحد ولم يشهد بدرًا، وكان يضرب به المثل في حسن الصورة، وكان جبرائيل عليه السلام ينزل على صورته. جاء ذلك من حديث أم سلمة ومن حديث عائشة.

5: الخزاعي[3]: ورد نسبه في (الاستيعاب)[4] هو دحية بن فروة الكلب، من كلب بن وبرة في قضاعة. كان من كبار الصحابة، ولم يشهد بدرًا، وشهد أحدًا وما بعدها من المشاهد، وبقي إلى خلافة معاوية. وهو الذي بعثه رسول اللّٰه ﷺ إلى قيصر في الهدنة. وذكره ابن حزم في (الجمهرة)[5] وقال: صاحب رسول اللّٰه ﷺ الذي أتاه جبريل عليه السلام على صورته.

6: ابن حزم[6]: دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد بن امرئ القيس بن الخزرج بن عامر بن بكر بن عامر بن عوف بن بكر بن

---

(1) ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ج1/ 130.
(2) ابن حجر العسقلاني، الإصابة في معرفة الصحابة: ج1/ 231.
(3) الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية له ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات، ج1/ 214.
(4) الاستيعاب: 461.
(5) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب: ج/ 1: 458.
(6) ابن حزم، كذلك: ج1/ 189.

عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة، صاحب رسول الله ﷺ الذي أتاه جبريل على صورته.

7: أبو الحسن اليمني القرطبي[1]: دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد بن امرئ القيس بن الخروج، وهو زيد مناة بن عامر بن بكر بن عامر بن عذرة كان جبريل عليه السلام ـ يتمثل في صورته.

8: السمعاني[2]: الخزجي: بفتح الخاء المعجمة وسكون الزاي وفي آخرها الجيم، هذه النسبة إلى خزج، وهو بطن من عامر بن عوف من قضاعة، وهو الخزج بن عامر بن بكر بن عامر الأكبر بن عوف، قال ابن حبيب عن هشام بن الكلبي: واسم الخزج زيد، سمي بذلك لعظم لحمه. ومن ولده دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد بن امرئ القيس بن الخزج الكلبي الخزجي صحب دحية النبي ﷺ، وكان رسوله إلى قيصر، وكان جبرائيل عليه السلام ينزل على النبي ﷺ في صورته، وفيه نزلت: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾[3].

هذا هو تقريبًا كل ما لدينا عن نسب دحية، وبالطبع لا يوجد في المصادر المذكورة ما يؤيد النسب بدقة سواء من خلال أحاديث متواترة،أم عبر شهادات قاطعة من نسّابة العرب وبالاستناد إلى مؤلفاتهم، وبعضها استفاض في ذكر أنساب كلب. إن ما يميز التقاليد المتّبعة في كتب الأنساب العربية، عنايتها، وحرصها الشديد على ذكر النسب من الأب صعودًا، ثم يجري تفصيل شجرة أنسابه المتفرعة منه. ولذلك، فما يلفت انتباهنا في نسب دحية، أنه لا يتضمن مثل هذه التفصيلات الضرورية، كما هو الحال مع بقية الصحابة؛ إذ اكتفى النسّابون المسلمون بذكر نسبه بصورة عمومية، بما يعني أنهم لا يملكون بالفعل أي معلومات ذات قيمة علمية، فالقول إنه من فروة بن فضالة بن زيد إلخ.. ينطبق على أفراد القبيلة الآخرين ولا معنى

(1) أبو الحسن اليمني القرطبي، **التعريف بالأنساب والتنويه بذوي الأحساب**: ج1/ 79.

(2) السمعاني، **الأنساب**، ج1/ 260.

(3) سورة الجمعة، الآية 11.

له كنسب؟ خذوا هذا المثل عن طريقة عرض الأنساب: يكتب مؤلف نسب قريش[1] عن مخرمة بن المطلب وهو شخصية غير هامة في تاريخ قريش ما يلي: (وولد مخرمة بن المطلب: قيس بن مخرمة، وأمه: أسماء بنت عبد اللّه بن سبع بن مالك بن جنادة بن الحارث بن سعد بن عنزة بن أسد ابن ربيعة بن نزار. وأخوه لأمه: مسافع بن عبد مناف بن عمير بن أهيب بن حذافة بن جمح؛ والقاسم بن مخرمة؛ والصلت، أمهما: هند بنت معمر بن أمية، من بني بياضة. أطعم رسول اللّه ﷺ قيس بن مخرمة بخيبر خمسين وسقًا. كان لقيس بن مخرمة من الولد: عبد اللّه، ومحمد، وعبد الملك، ونساء؛ وأمهم: درة بنت عقبة بن ربيعة بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل الأنصاري).

ولنلاحظ، كيف انشغل النسّابة في بناء شجرة أنساب شخصيات لا أهمية لها في الأحداث التي جرت على أرض العرب في الجاهلية، بينما صمت نسّابة المسلمين عن ذكر أي شيء عن نسل دحية واكتفوا بترديد ما وجدوه في مصدر واحد؟ كما يمكن ملاحظة الأخطاء والتناقضات التي وقع فيها هؤلاء، فهم لا يعرفون ما إذا كان ينتسب للخزرج أم للخزج أم للخروج؟

2: المنظور الأسطوري: حين يصبح الملاك بشرًا

كل ما قيل آنفًا، بما فيه الأسئلة المشروعة التي طرحت، لا جواب عليه في المنطق التاريخي، لأن الرواية ليست تاريخية، ويتعيّن علينا وفقًا لذلك، مناقشتها بأدوات وشروط الأسطورة. لقد لعب الملاك السماوي دور الرجل (البشري) بينما لعب الرجل (البشري) دور الملاك السماوي.

كلاهما، قام باستعارة دور الآخر، أو هما تبادلا الدور نفسه في هيئتين، وقام كل منهما بتقمّص شخصية الآخر. وفي الحالتين، كان يمكن

(1) مصعب الزبيري، نسب قريش: ج1/ 25.

للمسلمين أن ينظروا إليه بالفعل، وكما تقول المرويات، بوصفه - في آنٍ واحد - جبرائيل الذي ينزل على النبي، ودحية الكلبي التاجر الشاميّ؟ أي إن الرجل ليس أكثر من صورة من صور الملاك، وتجسيد من تجسيداته. وفي هذه الحالة، يجب أن نقرأ الآية القرآنية على أنها إشارة إلى هذا اللبس الفظيع. لكن الملاك يظهر في صور يستحيل على الرجل محاكاتها، فهو تارة طائر بستمائة جناح، وتارة أخرى آدمي خارق الجمال. لكن ماذا يحدث، لو أننا سلمنا أن الملاك جاء بنفسه من السماء لدعم النبي ﷺ في رسالته الدينية؟ وأنه تجسّد كليًّا ونهائيًّا في صورة رجل من البشر، وقرر بناء على طلب وأوامر الإله،أن يتصرف كبشري، وأن يعيش بين المسلمين؟ في هذه الحالة، يجب علينا تقبّل حقيقة أنه، وبعد تجسّده البشري، فقد قوته كملاك. لقد أصبح بشريًّا، ولم يعد قادرًا على استرداد ماضيه كملاك، كما انقطعت كل روابطه بالسماء، ولم تعد لديه أدوات ووسائل العودة إليها، لأنه بتحوله إلى بشريّ فقد جناحيه الهائلين؟ لكن متى تحول الملاك إلى بشر؟ وهل أدّى ذلك، كليًّا إلى وضع حدّ للخلط والالتباس، وبحيث نسي المسلمون - وقبائل العرب - حكايته يوم كان ملاكًا؟

إن قصة هذا التحوّل الذي تصمت عن مضامينه الحقيقية سائر المرويات الإسلامية،هي قصة تراجيديا دينية كبرى لم يتسنَّ بعد معالجتها من منظور تفكيكي. وباستثناء الإمام السيوطي[1] في كتابه الرائع الذي يحمل عنوان (الحبائك في أخبار الملائك) لا تكاد توجد معالجة موضوعية ودقيقة ومليئة بالأسئلة. لقد عالج السيوطي مسألة الملاك جبرائيل من منظور التراجيديا الدينية. قال: (ثم إن الملائكة يسمون الروحانيين لأنهم أرواح ليس معها ماء ولا نار ولا تراب، ومن قال هذا قال: الروح جوهر، وقد يجوز أن يؤلف اللّه أرواحًا فيجسمها ويخلق منها خلقًا ناطقًا عاقلًا، فيكون الروح مخترعًا والتجسيم وضم النطق والعقل إليه حادثًا من بعد،

(1) السيوطي، **الحبائك في أخبار الملائك**: ج1/ ص7.

ويجوز أن يكون أجسام الملائكة على ما هي عليه اليوم مخترعة، كما اخترع عيسى وناقة صالح).

ويستطرد السيوطي في هذا التفسير فيرى: (إن ملائكة الرحمة هم الرَّوحانيون بفتح الراء من الروح، وملائكة العذاب هم الكروبيون سادة الملائكة منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وهم المقربون من كرب إذا قرب، وفي تذكرة الشيخ تاج الدين ابن مكتوم: سئل أبو الخطاب بن دحية عن الكروبيين هل يعرف في اللغة أم لا؟ فقال: الكروبيون بتخفيف الراء سادة الملائكة وهم المقربون). وبالطبع ليس صحيحًا ما يقوله المفسّرون هنا عن أصل كلمة (كروبيين ـ كروبيم في العبرية) لأنها تنصرف إلى المكربيين في اليمن، وهم ملوك اليمن الذين جمعوا بين وظيفتين، الملك والكهانة وتسمّوا باسم مكرب، وهذا تقليد يمني قديم، فداود ملك ونبيّ، وكذلك سليمان.وهذا أمر لم ينتبه إليه السيوطي وهو ينقل عن آخرين. ثم ينقل لنا السيوطي تساؤلات الفقهاء المسلمين حول مضمون ومغزى وحدود التحول من سماوي إلى بشري، فقد قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: (فإن قيل إذا أتى جبريل النبي ﷺ في صورة دحية أين تكون روحه أفي الجسد الذي يشبه بجسد دحية فهل يموت الجسد الذي له ستمائة جناح كما تموت الأجساد إذا فارقتها الأرواح؟ أم يبقى حيًا خاليًا من الروح المتنقلة بالجسد المشبه بجسد دحية؟ قلت: لا يبعد أن يكون انتقالها من الجسد الأول غير موجب لموته لأن موت الأجساد بمفارقة الأرواح ليس بواجب عقلًا، وإنما هو بعادة مطردة أجراها اللّه في أرواح بني آدم فيبقى ذلك الجسد حيًا لا ينقص من معارفه وطاعاته شيء، ويكون انتقال روحه إلى الجسد الثاني كانتقال أرواح الشهداء إلى أجواف الطير). أما الشيخ سراج الدين البلقيني في كتابه (الفيض الجاري على صحيح البخاري)[1] فيرى: (يجوز أن يكون الآتي جبريل بشكله الأصلي إلَّا أنه انضم فصار على قدر هيئة الرجل وإذا

(1) السيوطي، ج1 ص84 / 86.

ترك ذلك عاد إلى هيئته، ومثال ذلك: القطن إذا جمع بعد أن كان منتفشًا فإنه بالنفش يحصل له صورة كبيرة وذاته لم تتغير، وهذا على سبيل التقريب). أمّا العلامة علاء الدين القونوي شارح الحاوي في كتاب (الإعلام بإلمام الأرواح بعد الموت على الأجسام) فيرى بحسب ما نقل لنا السيوطي: (قد كان جبريل عليه السلام يتمثل في صورة دحية وتمثل لمريم بشرًا سويًا، وفي الممكن أن يخص بعض عباده في حال الحياة بخاصة لنفسه الملكية القدسية وقوة لها يقدر بها على التصرف في بدن آخر غير بدنها المعهود مع استمرار تصرفها في الأول، وقد قيل في الأبدال أنهم سموا أبدالًا لأنهم قد يرحلون إلى مكان ويقيمون في مكانهم الأول شبحًا آخر، شبيهًا بشبحهم الأصلي بدلًا عنه، وقد أثبت الصوفية عالمًا متوسطًا بين عالم الأجساد والأرواح، سمّوه عالم المثال، وقالوا هو ألطف من عالم الأجساد وأكثف من عالم الأرواح، وبنوا على ذلك تجسد الأرواح وظهورها في صور مختلفة من عالم المثال) وقد يستأنس لذلك بقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[1] فتكون الروح الواحدة كروح جبريل مثلًا في وقت واحد مدبرة لشبحه الأصلي ولهذا الشبح المثالي، وينحل بهذا ما قد اشتهر عن بعض الأئمة أنه سأل بعض الأكابر عن جسم جبريل فقال: أين كان يذهب جسمه الأول الذي يسد الأفق بأجنحته، لما تراءى للنبي ﷺ في صورته الأصلية، عند إتيانه إليه في صورة دحية؟ وقد تكلف بعضهم الجواب عنه بأنه يجوز أن يقال كان يندمج بعضه في بعض إلى أن يصغر حجمه، فيصير بقدر صورة دحية، ثم يعود وينبسط إلى أن يصير كهيئته الأولى، وما ذكره الصوفية أحسن ويجوز أن يكون جسمه الأول بحاله لم يتغير، وقد أقام اللّه له شبحًا آخر وروحه متصرفة فيهما جميعًا في وقت واحد).

ثمة حادثة بعينها، برهنت أن الملاك فقد قوته كليًا ولم يعد خارقًا، إذ يقال إنه بعد عودته من بصرى الشام، ولقائه قائد الحامية البيزنطية وفي طريق عودته لإبلاغ النبي ﷺ بمجريات ما حدث هناك، تعرض لعملية سلب ونهب

---

(1) سورة مريم، الآية 17.

من لصوص قبليين، ولولا نجدة أحد المسلمين له، لتعرض للقتل؟ لقد سلبوا منه حتى ثيابه؟ في هذه اللحظة وعلى الطريق من الشام إلى يثرب، تحول الملاك إلى رجل بشري نهائيًا، وكان عليه أن يعيش في مجتمع بشري وأن يواجه ما يواجهه البشر، وأن تظهر عيوبه ونقاط ضعفه. وحين اكتشف بنفسه أنه لم يعد قادرًا إلّا على التصرف كواحد من أبناء البشر، فقد آثر الانزواء والابتعاد عن الأنظار، ثم اختفى من التاريخ نهائيًا. إن تحليل مروية فقدانه لقوته وتعرضه للاعتداء، يمكن النظر إليها من منظور كونها تراجيديا دينية. هنا رواية واحدة من عدد لا يحصى من الروايات عن الحادثة نفسها:

رواية الواقدي[1]:

حدثني موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه قال: أقبل دحية الكلبي من عند قيصر قد أجاز دحية بمال وكساه كسًى. فأقبل حتى كان بحسمى[2]، فلقيه ناس من جذام فقطعوا عليه الطريق وأصابوا كل شيء معه فلم يصل إلى المدينة إلّا بسمل[3] فلم يدخل بيته حتى انتهى إلى باب رسول اللّه ﷺ فدقه، فقال رسول اللّه ﷺ من هذا؟ فقال: دحية الكلبي. قال: ادخل. فدخل فاستخبره رسول اللّه عمّا كان من هرقل حتى أتى على آخر ذلك. ثم قال: يا رسول اللّه أقبلت من عنده حتى كنت بحسمى فأغار عليّ قوم من جذام، فما تركوا معي شيئًا حتى أقبلت بسملي، هذا الثوب.

في لحظة اضطهاد ملاك الرّب ـ ورسول رسول اللّه إلى قيصر ـ وبعد استكمال تحوله إلى بشريّ، تتجلى واحدة من المفارقات الكبرى في هذه التراجيديا الدينية، فالملاك الذي جاء لخدمة البشر ومن أجلهم، فتقمّص شخصيته الآدمية، أصبح عرضة لعدوان بشريّ؟ لقد تقبّل برضا تام أن يتحوّل

(1) الواقدي، المغازي، ج1/ 556.

(2) موضع حسمى شمال الجزيرة العربية.

(3) سمل: ثوب رث.

نهائيًا من وضعيته السماوية إلى وضعية أرضية، لأن المهمة التي كلّف بها، تتطلب منه أن يتخلى عن قوته الخارقة (أجنحته الستمائة) وأن يزيل الفارق النوعي بينه وبين البشر. بيد أن ذلك ـ أدّى في ما أدّى إليه ـ إلى بزوغ سلسلة مفارقات مأساوية، لعل من أكثرها سطوعًا، أنه بات في حالة ضعف شديد أمام (طاقة الشرور) البشرية على ارتكاب العدوان. وفي هذا المنحى من فقدان القوة، ترتسم ملامح تراجيديا دينية لا مثيل لها ولا تعرفها آداب وأديان الشعوب الأخرى؛ إذ فقد الملاك قدرته على الطيران، ولم يعد بوسعه أن يسّد الأفق بأجنحته الستمائة، ولا أن يعمي أبصار البشر الأشرار بقوة جماله المضاء بالياقوت والجواهر.. إنه الآن بشريّ فيه كل مكامن ضعف وقوة البشر. ولكنه وهو يعود وحيدًا في طريق حسمى، حاملًا هدايا القيصر البيزنطي للنبيّ ﷺ، يكتشف معنى تحوّله التراجيدي هذا، أي معنى تخليه عن امتيازه ككائن علويّ، سماوي؛ إذ سلبه الاشرار كل شيء سوى سمل ثوب (خرقة ثوب) تستر عريه الآدمي. والتأمل في الجملة التي وضعها رواة الأسطورة على لسانه وهو يطرق باب بيت النبيّ ﷺ، تفصح عن لحظة الضعف هذه، فقد بادره بالقول بحزن ويأس، إنه نجا بنفسه وحسب، وليس معه سوى ما يستر عريه. ولأنه صار بشريًا بصورة نهائية، ولم يعد أحد يخلط بينه وبين الملاك، فقد أمر النبيّ ﷺ المسلمين أن يُغيروا على قبائل جذم ثأرًا للملاك. كان العدوان على دحية في تلك اللحظات، يتجلى بوصفه أول عدوان صريح يقع على رسول رسول الله (وسفيره) إلى الإمبراطورية البيزنطية، وهو أمر لم يحدث مع سفراء آخرين إلى البطالمة في مصر وكسرى في فارس والنجاشي في الحبشة. وبالرغم من المرارة التي شعر بها المسلمون لوقوع هذا العدوان من جانب أشرار القبائل العربية على الحدود مع الشام، فقد سادت مشاعر الابتهاج بالرحلة الناجحة التي قام بها دحية، إذ حصل على تأييد كبار رجالات الكنيسة الأرثوذكسية من الغساسنة في بصرى الشام، فهؤلاء رأوا في ظهور دين توحيدي كبير في الجزيرة العربية، انتصارًا لمعتقداتهم المسيحية ضد الوثنيين، ولم تكن الفروق الفلسفية (والدينية) لترى آنذاك بالوضوح ذاته كما تبدت في وقتٍ لاحق، ذلك أن الانتصار في الصراع مع فارس الزرادشتية

(الوثنية) للسيطرة على الشرق، وبالنسبة لبيزنطة المنهكة بالمتاعب الداخلية، كان يتوقف وإلى حدّ كبير على انحياز قبائل الجزيرة لأفكار ومعتقدات التوحيد قبل أي اعتبار آخر. وليس دون معنى، أن النبيّ ﷺ اختار دحية لهذه المهمة، إذا ما علمنا أن مكانة جبرائيل في الديانة المسيحية، كانت مكانة فريدة ومتميّزة، ولذا جاء اختياره متوافقًا مع هذا العامل الديني. لقد ذهب جبرائيل بنفسه بالمعنى الرمزي، أي في صورته البشرية، لجماعات مسيحية عربية تؤمن بمكانته وتقدّسها، بعكس يهود الجزيرة العربية الذين كانوا يبغضونه. ويمكن لمهارة دبلوماسية من جانب المسلمين، أن تساهم في كسب البيزنطيين، وبناء جسور من الثقة والتعاون معهم ومع بقية الموحّدين، لا لمواجهة وثنّيي قريش، وإنما لصدّ نفوذ فارس المتعاظم في أهم مركزين سياسيين: الحجاز والشام. لكن، لماذا قام أشرار قبائل جذم بمهاجمة الملاك جبرائيل وهم يعلمون أنه تمثّل في هيئة دحية؟

لم يقع العدوان، فقط بسبب وجود دوافع للسرقة واللصوصية. ثمة دوافع أخرى خفية تتخطى حدود الاستيلاء على هدايا القيصر، فقبائل جذم لم تكن كلها وثنية، وكانت هناك ـ على العكس من ذلك ـ بطون منها يهودية الديانة وتكنّ كراهية لا حدود لها لجبرائيل. ولذلك، وقع العدوان من المنظور الرمزي على خلفية هذا الموقف. والسؤال الذي يتوجب طرحه في سياق تحليل النصوص التي اختلفت حول مشاركة دحية الكلبي في المعارك الكبرى للإسلام[1]، هو التالي: إذا كان قد طلب من المسلمين أن يستعدوا لقتال بني قريظة، وأن لا يلقوا السلاح، فلماذا لم يقاتل معهم؟ وأين اختفى؟ ولماذا لا تذكر المصادر التاريخية والدينية أي شيء عنه؟ ولماذا لا نجد حديثًا واحدًا له، يقول فيه إنه استبق النبي ﷺ في دعوة المسلمين للاستعداد للحرب؟ أيهما أهم تاريخيًا، حديث عن معركة بني قريظة أم حديث عن الخفين (النعلين)

(1) ابن هشام 3: 244، الواقدي: 371، الطبري 3: 52، **أنساب الأشراف** 1: 167 ابن سيد الناس 2: 68، ابن كثير 4: 116، زاد المعاد 2: 187، **تاريخ الخميس** 1: 492، 111. ابن سعد 2 / 1: 53.

اللذين أهداهما للنبي ﷺ، وزعمه أنه لم يسأل عنهما أذكيّا[1] أم لا؟ هل من المعقول أن الفقهاء ورواة الأخبار انشغلوا بالحديث عن (نعلين) أهداهما تاجر شاميّ للنبي ﷺ، وتجادلوا في ما إذا كانا قد دُبغا من جلد حيّ أم من جلد ميت، بينما يصمتون عن مناقشة سبب غيابه عن المعركة التي حرّض عليها ودعا هو إلى خوضها؟ يتوجب علينا القول هنا، إن كل الفقهاء المعاصرين ورواة الأخبار والأحاديث القدماء سواء بسواء، يعجزون عن إعطاء حديث واحد ورد على لسان دحية، يخصّ معركة بني قريظة، يبرر أو يعلل فيه، أسباب استباقه النبيّ ﷺ دعوة المسلمين للقتال، فمثل هذا الحديث لا وجود له. وإذا كان دحية شارك في أي من هذه المعارك (الخندق، أحد، حنين) ولم يشهد بدرًا، فمن أين لرواة الأخبار أن يزعموا أن الملائكة نزلت بجيش عظيم في بدر؟ أليس من المنطقي أن يكون ذلك حدث في معركة أحد، أو الخندق؟ باعتبار أن الرجل الذي تجسّدت فيه شخصية الملاك، شارك في هاتين المعركتين أو واحدة منهما على الأقل؟ ومن أي مصدر استقوا رواية مشاركة الملائكة في معركة لم يشهدها دحية؟

يقول النويري[2] ما يلي: (نزلت الملائكة في غزوة بدر على الخيول المسوّمة، وقد سدلوا ذوائب عمائمهم على مناكبهم. وهم مخلوقون من نور. صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين).

فلماذا لم تقاتل الملائكة في الخندق أو حنين أو أحد؟ ما دام شبيه الملاك شارك في واحدة منها؟ إن نقد هذه الرواية الشائعة والسائدة في كل المؤلفات الدينية والتاريخية، يقوم في الأساس، لا على اعتبارها رواية أسطورية من نسج خيال رواة الأخبار، وإنما على اعتقاد يقول إنها في الأصل، رواية تفتقد لأسانيد الرواية التاريخية الصحيحة والحقيقية؛ فإذا قيل إن دحية الكلبي دعا للاستعداد لغزو بني قريظة من قبل أن يعرف النبيّ ﷺ ومن دون أوامره، وأن النبيّ ﷺ حين علم أنه مرّ ببني النجار، وهم أكدوا

---

(1) أي هل هما من جلد حيّ أم مدبوغ.

(2) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب: ج1/ 4.

له مشاهدتهم له وسماعهم لأوامره، فلماذا لا يقال لنا إنه شارك في معركة بدر، حين شاركت الملائكة في القتال؟ وأين كان في معركة بدر؟ هل كان في تجارة بالشام أم ترك المسلمين يتهيأون للحرب ثم غادرهم؟ ولماذا لم ينتظر وصول النبيّ ﷺ ما دام سبقه بقليل؟ وهل يحق لرجل شبّهه النبي بجبريل وحسب، كما يقال لنا في روايات أخرى، أن يتصرف كصاحب قرار إلهيّ بالحرب؟ ولماذا لم يتصرف ابن مسعود الثقفي الذي شبّهه النبي بعيسى، كرجل استثنائي أو يصبح من كبار الصحابة، فيحدث المسلمين كأنه شبه عيسى؟

الفصل الثاني

أحاديثه وقيمتها الدينية والتاريخية

قد يكون السؤال التالي، هو الأكثر إحراجًا لرواة أسطورة دحية الكلبي من القدماء والمعاصرين ولا جواب عليه في كل المصادر التاريخية الإسلامية: إذا كان دحية صحابيًّا عظيمًا مقرّبًا ومحبوبًا من النبيّ ﷺ، فهل يعقل أنه لم ينقل لنا أي حديث من أحاديثه له أهمية وقيمة دينية أو تاريخية؟ وهو كما رأينا، صُوّر كمحبوب، حتى أن النبي ﷺ كان يناجيه ويمسح الغبار عن وجهه؟ المثير في هذا الجانب من الإشكالية، أن المصادر لا تنقل لنا سوى بضع أحاديث[1] لا قيمة كبيرة لها، رويت عنه أو رواها بنفسه، ووردت عند الطبري وآخرين[2] وهي على النحو التالي:

1: عن دحية الكلبي قال: قدمت من الشام، فأهديت إلى النبي ﷺ فاكهة يابسة من فستق ولوز وكعك، فوضعته بين يديه فقال: اللّهم، ائتني بأحبّ أهلي إليك، أو قال: إليّ يأكل معي من هذا. فطلع

(1) مجمع الزوائد: 9 / 378، الجرح والتعديل: 3 / 439،، الاستيعاب: 2 / 461، ابن عساكر: 6 / 24 أسد الغابة: 2 / 158، تهذيب الكمال: 396، تاريخ الاسلام: 2 / 222، تهذيب التهذيب: 3 / 207 الإصابة: 3 / 191، معجم الطبراني الكبير: 4 / 265 خلاصة تذهيب الكمال: 112.

(2) الطبري، تاريخ الرسل: ج2/ 95 ابن كثير، تفسير:ج4/ 559، السيوطي: الدر المنثور: ج6/ 124 مسند أحمد ج28/ 251 ابن أبي شيبة، المصنف: ج7/ 735، ابن عساكر: تاريخ دمشق ج17/ 208.

العباس، فقال: ادن يا عم، فإني سألت اللّه أن يأتيني بأحبّ أهلي إليّ يأكل معي من هذا فأتيت. قال: فجلس فأكل[1].

2: وعن دحية الكلبي قال: أهديت لرسول اللّه ﷺ جبة صوف وخفين، فلبسهما حتى تخرّقا، ولم يسل عنهما ذكيًا أم لا؟

وعند مؤلف التحفة[2]: (أَنَّهُ ﷺ لَا يَدْرِي أَنَّ الْخُفَّيْنِ اللَّذَيْنِ أَهْدَاهُمَا دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ هَلْ كَانَا مِنْ جِلْدِ الْمُذَكَّاةِ أَو الْمَيْتَة وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الدِّبَاغَ يُطَهِّرُ الْإِهَابَ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَيْتَةِ)

3: قال دحية الكلبي[3]: بعث النبيّ ﷺ معي بكتاب إلى قيصر، فقمت بالباب فقلت: أنا رسول رسول اللّه ﷺ، ففزعوا لذلك، فدخل عليه الآذن فقال: هذا رجل بالباب يزعم أنه رسول رسول اللّه ؛ فأذن لي، فدخلت عليه فأعطيته الكتاب فقرئ عليه[4]: بسم اللّه الرحمن الرحيم، من محمد رسول اللّه إلى قيصر صاحب الروم، فإذا ابن أخ له أحمر أزرق سبط الشعر، قد نخر ثم قال: لِمَ لَمْ يكتب: إلى ملك الروم ولم يبدأ بك؟ لا تقرأ كتابه اليوم. فقال لهم: اخرجوا؛ فدعا الأسقف، وكانوا يصدرون عن رأيه ويقبلون قوله. فلما قرئ عليه الكتاب قال: هو واللّه رسول اللّه الذي بشرنا به موسى وعيسى، هو واللّه رسول اللّه

---

(1) الأصفهاني، أبو نعيم، **معرفة الصحابة**:ج1/ 293 حدثنا عبد اللّه بن محمد بن عثمان الواسطي، حدثنا محمد بن أحمد الوضاح، قال: وجدت في كتاب جدي علي بن كليب الجعفي: حدثنا الهيثم بن عدي عن الكلبي عن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه عن دحية الكلبي قال: قدمت من الشام فأهديت إلى النبي ﷺ فاكهة يابسة من فستق ولوز وكعك، فوضعته بين يديه، فقال: «اللّهم ائتني بأحب أهلي إليك» أو قال: «إلي يأكل معي من هذا» فطلع العباس، فقال: «ادن يا عم فإني سألت اللّه تعالى أن يأتيني بأحب أهلي إلي» أو: «إليه»، «يأكل معي من هذا فأتيت»، قال: فجلس فأكل.

(2) **تحفة الأحوذي** ج4/ 470.

(3) كانت سفارة دحية إلى قائد حامية بصرى البيزنطي سنة 5 للهجرة.

(4) روى حديث السفارة كثرة من المفسرين والفقهاء والإخباريين المسلمين وكل من الطبراني، **المعجم الكبير**: ج1/ 303 ج5/ 289، **مسند أحمد** ج9/ 232 الواقدي: **مغازي الواقدي**: ج1/ 556.

الذي بشرنا به موسى وعيسى، هو والله رسول الله الذي بشرنا به موسى وعيسى؛ قال: فأي شيء ترى؟ قال: أرى أن تتبعه. قال قيصر: وأنا أعلم ما تقول، ولكن لا أستطيع أن أتبعه، يذهب مُلْكي ويقتلني الروم.

وقال خليفة بن خياط: في سنة خمس بعث النبي ﷺ دحية بن خليفة إلى قيصر في الهدنة[1].

4: قال الإمام أحمد: حدثني محمد بن عبيد، حدثنا عمر من آل حذيفة، عن الشعبي، عن دِحْية الكلبي قال: قلت: يا رسول الله، ألا أحمل لك حمارًا على فرس، فتنتج لك بغلًا فتركبها؟ قال: إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون.

5: وفي (المصنف) لابن أبي شيبة رواية موازية: حدثنا وكيع قال حدثنا عمر بن حسيل قال، سمعت الشعبي يقول: قال دحية الكلبي: يا رسول الله، ألا ننزي حمارًا على فرس، فتنتج مهرة نركبها، قال: إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون.

وعند ابن عساكر[2]: عن الشعبي عن دحية الكلبي قال: قلت: يا رسول الله ألا أحمل لك حمارًا على فرس فتنتج لك بغلة، فقال إنما يفعل ذلك الذين لا يعقلون. رواه عيسى بن يونس السبيعي وغيره.

6: قال الأصفهاني[3]: عن عنبسة بن سعيد عن جابر عن عامر عن دحية الكلبي، قال: «أهديت لرسول الله ﷺ جبة صوف وخفين، فلبسهما حتى تخرّقا، ولم يسأل عنهما: ذكيتا أم لا؟» وفي رواية ابن عساكر[4]: قال أهديت لرسول الله ﷺ جبة صوف وخفين فلبسهما حتى تخرقا ولم يسأل عنهما ذكيّا أم لا؟

---

(1) المصدر السابق نفسه.
(2) ابن عساكر، **تاريخ دمشق**: ج17/ 202.
(3) **معرفة الصحابة** لأبي نعيم الأصبهاني ج7/ 294.
(4) ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ج17/ 208.

هذا كل ما نقله دحية ـ أو نقل عنه ـ من أحاديث تخصّ النبيّ ﷺ؟ وبالطبع، سنترك للقارئ تقدير قيمة هذه الأحاديث وهي برأينا لا معنى لها ولا قيمة، لأنها لا تتناول أي جانب من تاريخ الإسلام، كما لا تضيف أي عنصر ديني ـ تشريعي أو تاريخي أو ثقافي. وبكل يقين، ستبدو هذه الأحاديث وكأنها تصدر عن شخص هامشي، لا عن رجل أسطوري دارت حوله نقاشات وسجالات مطوّلة، وكان يسبق النبي ﷺ في تقرير شؤون الحرب. وهي بذلك، لا تتناسب مع الدور الذي تخيّله المسلمون على مرّ أجيال وأجيال، وبحيث اعتبر من كبار الصحابة.

ومع ذلك سنقوم هنا بالتدقيق في صحة الأحاديث، ونمط الأخطاء التي وقع فيها الفقهاء وعلماء التفسير ورواة الأخبار والحديث.

حول حديث القطيفة

رأينا من الحديث المنسوب لدحية بخصوص القطيفة القبطيّة التي جلبها من الشام، قوله إنه أهدها للنبي ﷺ. وهنا الحديث كما وصلنا من المصادر التاريخية الدينية والفقهية والإخبارية:

1: في مسند الأمام أحمد[1] حدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ يَعْنِي ابْنَ مُحَمَّدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ يَعْنِي ابْنَ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ عَنِ ابْنِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّ أَبَاهُ أُسَامَةَ قَالَ: كَسَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُبْطِيَّةً كَثِيفَةً كَانَتْ مِمَّا أَهْدَاهَا دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ فَكَسَوْتُهَا امْرَأَتِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا لَكَ لَمْ تَلْبَسْ الْقُبْطِيَّةَ؟ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَسَوْتُهَا امْرَأَتِي؟ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مُرْهَا فَلْتَجْعَلْ تَحْتَهَا غِلَالَةً إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا (أي أن يبين شيء من جسدها لشدة رقتها).

2: وفي رواية البيهقي[2] عن محمد بن إسحاق الصغاني، حدثنا زكريا ابن عدي، أنبأنا عبيد اللّه بن عمرو عن عبد اللّه بن محمد بن عقيل

(1) مسند أحمد ج44/ 259.
(2) البيهقي، السنن الكبرى: ج2/ 234.

عن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه، قال كساني رسول اللّه ﷺ قبطية كثيفة أهداها له دحية الكلبي فكسوتها امرأتي فقال رسول اللّه ﷺ ما لك لا تلبس القبطية؟ قلت كسوتها امرأتي. فقال مرها فلتجعل تحتها غلالة فإني أخاف أن تصف عظامها.

3: رواية ابن سعد[1] قال: أخبرنا عبد الملك بن عمرو وأبو عامر العقدي وموسى بن مسعود وأبو حذيفة النهدي قالوا: حدثنا زهير بن محمد عن عبد اللّه بن محمد بن عقيل عن ابن أسامة بن زيد عن أسامة بن زيد قال: كساني رسول اللّه ﷺ قبطية كثيفة كانت مما أهدى دحية الكلبي فكسوتها امرأتي.

في هذه الأحاديث الأربعة نعرف أن النبي ﷺ أهدى قطعة قماش مصرية ـ قبطية ـ لأسامة بن زيد، مما أهداه دحية الكلبي. كما نعلم أن أسامة لم يصنع منها ثوبًا يلبسه، وقام بإهدائها لزوجته، وأن النبيّ ﷺ سأله لماذا لم يصنع منها ثوبًا له؟ فقال إنه أهداها لزوجته، ولذا، أوصاه أن يأمر امرأته بأن تلبس تحتها ثوبًا آخر، لأن قطعة القماش القبطية شفافة وقد تكشف عن مفاتنها؟ لكننا سنعلم من روايات أخرى، أن الحادثة وقعت لدحية الكلبي وليس لأسامة؟

فكيف حدث هذا اللبس؟ هاكم ما لدينا:

1: في رواية الطبراني[2]: حَدَّثَنَا الْمُقَدَّمُ بن دَاوُدَ، حَدَّثَنَا أَبُو الأَسْوَدِ النَّضْرُ بن عَبْدِ الْجَبَّارِ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ عَنْ مُوسَى بن جُبَيْرٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بن عَيَّاشٍ حَدَّثَهُ عَنْ خَالِدِ بن يَزِيدَ بن مُعَاوِيَةَ عَنْ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قِبَاطِي فَأَعْطَانِي قُبْطِيَّةً، فَقَالَ:

---

(1) ابن سعد، الطبقات: ج4/ 64.

(2) الطبراني، المعجم الكبير: ج1/ مادة رقم 380(حَدَّثَنَا حَفْصُ بن عُمَرَ الرَّقِّيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بن جَعْفَرٍ الرَّقِّيُّ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بن عَمْرٍو، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مُحَمَّدِ بن عَقِيلٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بن أُسَامَةَ بن زَيْدٍ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَسَاهُ قِبْطِيَّةً مِمَّا أَهْدَاهُ لَهُ دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ، فَكَسَوْتُهَا امْرَأَتِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا لَكَ لا تَلْبَسُ الْقِبْطِيَّةَ؟ قُلْتُ: كَسَوْتُهَا امْرَأَتِي. قَالَ: مُرْهَا أَنْ تَجْعَلَ تَحْتَهَا غِلالَةً، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَصِفَ عِظَامَهَا).

اصْدَعْهَا صَدْعَتَيْنِ فَاقْطَعْ أَحَدَهُمَا قَمِيصًا وأَعْطِ الآخَرَ امْرَأَتَكَ لِتَخْتَمِرَ بِهَا، فَلَمَّا أَدْبَرَتُ، قَالَ: مُرِ امْرَأَتَكَ أَنْ تَجْعَلَ تَحْتَ صَدْعَتِهَا ثَوْبًا لا تَصِفُهَا.

2: وفي رواية ابن عساكر[1] عن عبد اللّه بن عباس عن دحية الكلبي قال: أخذ رسول اللّه ﷺ قباطيًا فأعطاني قبطية فقال اصدعها صدعتين، فاقطع أحدهما قميصًا واعط الآخر امرأتك تختمر بها، فلما أدبرتُ قال مرْ امرأتك تجعل تحت صدعتها ثوبًا لا يصفها.

فمن الذي أهدى قطعة القماش؟ شبه الملاك دحية أم النبيّ ﷺ؟ وإذا كان صحيحًا أن دحية هو منْ أهدى النبي ﷺ قطعة القماش، فمن غير المعقول تخيّل أنه سأله لماذا لم يلبسها؟ هل من المقبول تاريخيًّا أن يلتبس حديث صحابي كبير، بهذه الصورة، برغم أن الحديث بسيط ولا قيمة له؟ باستثناء هذه الأحاديث، وهي فعليًّا حديث واحد يتكرر بصور متغايرة في مختلف المصادر، فإننا لا نكاد نجد ما يدعم حقيقة أنه كان صحابيًّا كبيرًا، عاش واقعيًّا على مقربة من النبي ﷺ، ذلك أن صحبته اقترنت عند المسلمين وباستمرار، بتدقيق صحّة ما نقل عنه من أحاديث شريفة تأييدًا أو نقضًا. في هذا الوقت وحين كان دحية مقرّبًا من النبيّ ﷺ، كان ابن عباس الذي تنسب كل الأحاديث تقريبًا بإسناد منه، لا يزال غلامًا صغيرًا. ومع ذلك، فقد احتفظ لنا بكنز ثمين هو خلاصة كل ما روي تقريبًا عن النبيّ ﷺ، بينما لا نجد عند دحية رواية واحدة ذات قيمة تاريخية، مع أنه حظي بمكانة نادرة واستثنائية كشبيه بجبرائيل؟

هل تزوج جبريل ابنة أبي لهب؟

زعم رواة الأخبار أن دحية تزوج درّة بنت أبي لهب. لكنهم نقلوا هذا الخبر التاريخي بشكل مقتضب ودون أي إشارة إلى ظروف الزواج وأين تم،

---

(1) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ج17/ 205.

وهل أخذها معه إلى دمشق أم ظلت في مكة؟ ولكن، لماذا لا يعرف المسلمون ذريته من زوجته درّة؟ ولماذا صمتت كل المصادر عن ذكر أي تفصيل هام عن زواجه من ابنة عمّ النبي ﷺ؟ يقول ابن حجر[1] ما يلي: درة بنت أبي لهب بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف الهاشمية، ابنة عم النبي ﷺ أسلمت وهاجرت وكانت عند الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، فولدت له عقبة والوليد وغيرهما، كذا قال ابن عبد البر. وقال ابن سعد: تزوجها الحارث بن عامر بن نوفل[2] بن عبد مناف بن قصي، فولدت له الوليد وأبا الحسن، وأسلم ثم قتل يوم بدر كافرًا، فخلف عليها دحية بن خليفة الكلبي. وروى ابن أبي عاصم والطبراني وابن منده من طريق عبد الرحمن بن بشر وهو ضعيف. وذكر البلاذري أن زيد بن حارثة تزوجها، ولعل ذلك قبل أن يتزوجها الحارث بن نوفل وقيل: تزوجها دحية الكلبي، فأخرج ابن منده من طريق محمد بن سلمة عن ابن إسحاق عن محمد بن عمرو عن عطاء عن علي بن الحسين عن درة بنت أبي لهب، وكانت تحت دحية بن خليفة وكانت تطعم الناس، فدخل عليه ليلةً نفرٌ من المنافقين، فقال بعضهم: إنما مثل محمد كمثل عذق نبت في فناء، فسمعته درة بنت أبي لهب، فانطلقت إلى أم سلمة فذكرت لها ذلك، وذلك قبل أن ينزل في

(1) ابن حجر، **الإصابة**: ج2/ 286.

(2) الحارث بن نوفل وهو الذي كان يقال له ببة، لأن أمه هند بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية كانت ترقصه وهو طفل وتقول:

لأنكحن ببه

جارية خدبه

مكرمة محبه

(ببة لقب له. وخدبة أي عظيمة سمينة، والخدب هو العظيم الجافي).

وكان قد اصطلح عليه أهل البصرة حين توفي يزيد بن معاوية، وخرج مع ابن الأشعث فلما هزم هرب إلى عمان فمات بها، قال الواقدي كان الحارث بن نوفل على عهد رسول اللّه ﷺ رجلًا فأسلم عند إسلام أبيه نوفل، وولد له على عهد رسول اللّه ولده عبد اللّه، فأتي به رسول اللّه فحنكه ودعا له وكانت تحته درة بنت أبي لهب بن عبد المطلب.

الحجاب). يمكن لنا أن نفهم من هذا الخبر الطويل، أن لا أحد يجزم بوقوع الزواج، فهي تارة زوجة الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب (ونوفل هذا حفيد عبد المطلب جد النبيّ) وتارة يقال إن زيد ابن حارثة هو الذي تزوجها؟ وكنا رأينا كيف التبس حديث القطيفة بين دحية وزيد، وأي منهما أخذ قطعة القماش. وأخيرًا، يقال إنها كانت زوجة الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، فكيف يكون هذا، أن تكون زوجة للحارث بن نوفل، ابن حفيد عبد المطلب جدّ النبي؟ وأن تكون في الوقت نفسه زوجة للحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف؟ وعبد مناف هو ابن قصي الجد الأعلى لمحمد ولعبد المطلب؟ هذه معضلة غير قابلة للحل؟ وفي هذا الحالة يجب أن يكون هناك خطأ ارتكبه الرواة، ويكون المقصود من نوفل هذا، نوفل الأول عم عبد المطلب وليس حفيده؟ أما الآلوسي[1] المتأخر فيزعم ما يلي: إن درة أسلمت وهاجرت وكانت تحت الحارث بن نوفل ثم تحت دحية الكلبي، بينما يقول السخاوي[2] في تعريف دحية ما يلي (الصحابي الشهير، ويحتمل أن يكون زوج درة ابنة أبي لهب).

من الواضح في هذا النص، أنه يظهر بعض التشكيك في قصة الزواج، فهو يستخدم عبارة (ويحتمل أن يكون زوج درة). والأمر المؤكد استنادًا إلى جملة مصادر[3]، أن المقصود من قصة الزواج هو الحارث بن نوفل (الثاني)[4] الذي أسلم عند إسلام أبيه نوفل، وولد له على عهد النبيّ ﷺ ابنه عبد اللّه، فأتي به فحنكّه ودعا له، وأنّ هذا الشخص هو من يقال إنه

---

(1) شهاب الدين محمود بن عبداللّه الحسيني الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: ج16/ 178.

(2) السخاوي، **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**: ج1/ 224.

(3) **ذخائر العقبى**، ج1/ 244.

(4) انظر مثلًا، ابن عبد البر، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**: ج1/ 89 فهو يقول إن درة بنت أبي لهب كانت زوجة (الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب فولدت له عقبة والوليد وأبا مسلم).

تزوج درة بنت أبي لهب بن عبد المطلب. ولكننا نفهم من رواية ابن عبد البر[1] أنها تزوجت عبد اللّه بن عميرة؟

هذا التناقض في رواية زواج دحية من ابنة عم النبيّ ﷺ، يتطلب الكثير من الإيضاح. هنا رسم بياني وتحليل للنصوص:

تحليل النصوص

1: نص من ذخائر العقبى

الاستنتاج	النص: ج1/ 244
تزوجها الحارث بن نوفل (ولد في عهد النبي ﷺ)	كان الحارث بن نوفل على عهد رسول اللّه ﷺ رجلًا فأسلم عند إسلام أبيه نوفل، وولد له على عهد رسول اللّه ولده عبد اللّه، فأتي به رسول اللّه فحنكه ودعا له وكانت تحته درة بنت أبي لهب بن عبد المطلب.

2: ابن سعد: الطبقات الكبرى

الاستنتاج

الحارث بن نوفل بن الحارث قتل يوم بدر

(1) الاستيعاب، ج2/ 95.

النص: ج2/ 485: د

درة بنت أبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشمية ابنة عم النبي ﷺ. أسلمت وهاجرت وكانت عند الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب فولدت له عقبة والوليد وغيرهما كذا قال ابن عبد البر. وقال ابن سعد تزوجها الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف بن قصي فولدت له الوليد وأبا الحسن وأسلم ثم قتل يوم بدر كافرًا فخلف عليها دحية بن خليفة الكلبي..

(تزوجها دحية)

3: ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب

4: الصفدي: الوافي بالوفيات

الاستنتاج: الحارث بن نوفل

النص: ج1/ 89 ـ ج4/ 70.

قال الواقدي: كان الحارث على عهد رسول اللّه ﷺ رجلًا وأسلم عند إسلام أبيه نوفل، وكانت تحته درّة بنت أبي لهب بن عبد المطلب. قال غيرهما: ولّى أبو بكر الحارث مكة، ثم انتقل إلى البصرة من المدينة واختط بالبصرة دارًا في ولاية عبد اللّه بن عامر، ومات بها في آخر خلافة عثمان رضي الله عنه

(لا ذكر لدحية)

5: ابن حبيب، المحبر

الاستنتاج	النص: 1 / 65
الحارث بن عامر بن نوفل	أصهار أبي لهب بن عبد المطلب (الحارث) ابن عامر بن نوفل بن عبد مناف كانت عنده درة بنت أبي لهب. و(دحية) بن خليفة الكلبي خلف على درة بعد الحارث.

(تزوجها دحية بعد الحارث)

يتضح من تحليل النصوص أن الرواية السائدة عن زواج دحية من درة بنت أبي لهب، مليئة بالتناقضات،وأنّ لا أصل ولا أساس لها، وأنها من مختلقات العصر الأموي، فتارة يقال إن زوجها الحارث بن نوفل، وتارة أخرى، يقال إنه الحارث بن عامر. كما يقال مرة إنه مات كافرًا في بدر، بينما يقال في روايات أخرى إنه عاش مسلمًا وولاه أبو بكر مكة ثم البصرة وإنه مات في عهد عثمان. وعلى الأرجح شاعت هذه الرواية الزائفة، بعدما تبيّن للأمويين، أن تحقير شخص أبي لهب وأسرته ظل متواصلًا، برغم إسلام ابنته درّة، وأن الترويج لأسطورة الزواج من دحية، كان الغرض منه التدخل لوقف التشنيع المتواصل وإضفاء نوع من الهيبة للأسرة المهانة، فالابنة المسلمة درّة هي ابنة أم جميل عمة معاوية؟ ولذا كان لابد أن يروّج لخبر زواج أسطوري من هذا النوع. ومثل هذه الأخبار التي تنقل صور الاحتقار للأسرة دون مبرر، لا تتوافق مع الحقيقة التاريخية، لأن درّة أسلمت وكانت من المهاجرات، ويصعب تصور أنها ظلت متزوجة من كافر؟ ومع هذا كله كانت هناك أسئلة دون جواب: هل ظل زوجها الحارث حيًا ثم أسلم؟ وكيف تزوجها دحية إذًا ومتى؟ هل تزوجها بعد موت زوجها الكافر في بدر؟ وأخيرًا من هو الحارث هذا؟ سوف تكشف مقاربة دقيقة بين النصوص الإخبارية، أن المؤلفين القدماء وقعوا في أخطاء فادحة، وهم ينقلون خبر زواج دحية الكلبي من ابنة عم النبيّ ﷺ، درة بنت أبي لهب،

وأن هذه الاخطاء، أدّت إلى ظهور رواية يصعب قبولها كخبر تاريخي. سنرسم هنا، إطارًا عامًّا للمصادر العربية ـ الإسلامية التي روجت لوقوع الزواج.

المصادر التي تحدثت عن زواج جبريل من درّة بنت أبي لهب

المصدر	النص
	الحارث بن نوفل أسلم مع أبيه. ولي مكة لعمر وعثمان. وقد استعمله النبي ﷺ على بعض العمل، وقيل: إنه نزل البصرة، وبنى بها دارًا. مات في خلافة عثمان عن نحو من سبعين سنة.

الجرح والتعديل: 5/ 67

الاستيعاب: 6/ 236

أسد الغابة: 3/ 271

تاريخ الإسلام: 2/ 26

(الاستنتاج: تؤكد المصادر ـ الآنفة ـ أن الحارث عاش حتى ولاية عثمان ولم يقتل يوم بدر كافرًا، وأنه ولي مكة في عهدي عمر وعثمان، وكان النبي ﷺ استعمله على بعض أعماله).

طبقات ابن سعد: 3/ 1/ 295

عن عبد اللّه بن الحارث بن نوفل، عن

أبيه قال: لما أسر نوفل يوم بدر قال له النبي ﷺ: «افدِ نفسك برماحك التي بجدة»، فقال: واللَّه ما علم أحد أن لي بجدة بعد اللَّه غيري، أشهد أنك رسول اللَّه، ففدى نفسه بها، وكانت ألف رمح.

الروض الأنف [ص 364] وَكَانَ خُبَيْبٌ قَدْ قَتَلَ الْحَارِثَ بْنَ نَوْفَلٍ

(الاستنتاج: ما تؤكده روايتا ابن سعد والسهيلي هو التالي: إن الحارث بن نوفل أسر في بدر، وإنه قتل على يد خُبيب. وهاتان روايتان متناقضتان. فهل افتدى نفسه برماح يملكها أم قتل؟).

العصامي: سمط النجوم العوالي

في أنباء الأوائل والتوالي ج1/ 178

كان الحارث بن نوفل على عهده عليه الصلاة والسلام، ولد له عبد اللَّه بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، فأتي به رسول اللَّه ﷺ فحنكه ودعا له. وكانت تحت الحارث هذا درة بنت أبي لهب بن عبد المطلب، واستعمله عليه الصلاة والسلام على بعض أعماله بمكة، واستعمله أبو بكر أيضًا، وقيل: إنه مات بالبصرة بعد أن اختط فيها دارًا في ولاية عبد اللَّه بن عامر بن كريز، فمات بها آخر خلافة عثمان رضي الله عنه.

تقريب التهذيب: ج1/ 178

الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي المكي صحابي نزل البصرة مات في آخر خلافة عثمان.

تاريخ دمشق: ج62/ 403

وحشي بن حرب وكان أسود من سودان مكة عبدًا لابنة الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف بن قصي. ويقال بل كان عبدًا لجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ولم يبلغنا أنه شهد بدرًا مع المشركين، ولكنه خرج معهم إلى أحد، فقالت له ابنة الحارث بن نوفل بن عامر: إن أبي قتل يوم بدر؛ فإن أنت قتلت أحد الثلاثة فأنت حر، إنْ قتلت محمدًا أو حمزة بن عبد المطلب أو علي بن أبي طالب.

(الاستنتاج: في هذه الروايات الثلاث نفهم الأمور التالية حسب تسلسل الوقائع:

1: الحارث هذا هو الحارث بن نوفل بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب، وله ولد يدعى عبد اللّٰه من زوجته درة بنت أبي لهب، ومات في عهد عثمان.

2: كما نفهم أنه الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وبذلك يتم إسقاط نوفل الأول ـ عم عبد المطلب ـ ويصبح حفيدًا له؟

3: ونفهم من رواية ابن عساكر، استنادًا لرواية ابنته، أن الحارث هذا

هو الحارث بن نوفل بن عامر، وليس ابن عبد المطلب، وقد قتل يوم بدر؟

في سائر هذه الروايات، وبرغم تناقضاتها غير القابلة للحل،لا يوجد ما يؤيد زواج دحية من درة بنت أبي لهب.

شجرة أنساب الحارث بن عامر بن نوفل

قصي

عبد مناف

نوفل

عمرو ـ ولد له ـ عامر **(أمه فكيهة بنت جندل)** ـ ـ ـ ـ (ابنه) عدي

ابنه طريف(ولد له) (عدي ولد له) مطعم

الحارث[1] (مطعم ولد له) جبير

توضح هذه الشجرة أن الحارث قتيل بدر هو الحارث الثاني (ابن عامر ابن نوفل بن عبد مناف بن قصي). وقد مات كافرًا. كما تؤكد بشكل قاطع أنه حفيد عبد مناف؟ أي إن بين درّة وبينه نحو ثلاثة أجيال متعاقبة كما توضح شجرة الأنساب التالية؟

شجرة نسب عبد المطلب بن هاشم

قصي

عبد مناف

نوفل **هاشم** **المطلب**

عبد المطلب

(1) قتل يوم بدر كافرًا (قتله خبيب بن إساف).

الحارث ـ عبد اللَّه ـ أبو طالب ـ الزبير ـ الحمزة ـ المقوّم ـ المغيرة ـ أبو لهب

أبناء (أبي لهب)

معتب ـ عتيبة ـ درة

أولاد الحارث بن نوفل

(مات في وقت مبكر)

نوفل ـ ـ ـ أبو سفيان (الشاعر) ـ ربيعة ـ عبد شمس ـ عبد المطلب

(ولد له)

الحارث[1] ـ ربيعة

(ولد له)

سعد ـ عبد اللَّه[2] ____ ليس لهما عقب ____ عبد الرحمن

يعقوب

توضح هذه الشجرة أن المقصود من الحارث بن نوفل زوج درّة بنت أبي لهب، إنما هو الحارث الثاني. وحسب هذا الرسم التوضيحي تكون درة ابنة عم والده نوفل؟ وإن المقصود به في المرويات الإخبارية، الشخص الذي قاتل مع النبي ﷺ يوم حنين؟ وهذا هو الشخص نفسه الذي ولاه النبيّ ﷺ بعض أعماله، مثلما استخدمه أبو بكر وعثمان، وأخيرًا ذهب إلى البصرة وعاش هناك؟

لكل ذلك، فلا صحّة للخبر الشائع في المرويات الإسلامية عن زواج دحية الكلبي من ابنة عمّ النبيّ ﷺ. وهذا ما يفسّر لنا، لمذا صمت نسّابة المسلمين عن ذكر أولاده وأحفاده؟

---

(1) (أكبر أولاد نوفل. وكان نوفل بن الحارث ممن ثبت يوم حنين. وتوفي نوفل بن الحارث في خلافة عمر بن الخطاب، ودفن بالبقيع. وكان أسن من عميه حمزة والعباس، ومن إخوته).

(2) (ويدعى ببة).

الرجل والطائر والملاك

قال رسول اللّه ﷺ ما رئي الشيطان يومًا هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة - وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز اللّه عن الذنوب العظام - إلّا ما رأى يوم بدر. قيل وما رأى يوم بدر؟ قال أما إنه رأى جبريل يزع الملائكة. قالوا: قال رسول اللّه ﷺ يومئذ هذا جبريل يسوق الريح كأنه دحية الكلبي، إني نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور.

الواقدي [ج1/ 78]

لم يكن تشبيه النبيّ ﷺ لدحية الكلبي بجبرائيل، استثناء في تقاليد أرساها الإسلام المبكر، قصد تقريب الصور الكبرى (المقدّسة) من أذهان مسلمين أوائل، كانوا في غالبيتهم من الفقراء والأميين. بيد أن هذه التقاليد الجديدة، وجدت في الثقافة القديمة والراسبة، مادة غنية لتعميق أفكار التوحيد والإيمان بالرسل والملائكة. وبذلك، لم تعد تطورًا منفصلًا عن النسق الروحي والثقافي السائد. لقد تمَّ توظيف مرويات التوراة والإنجيل عن هبوط ملائكة في صورة رجلين، جاءا للقاء إبراهيم النبي ﷺ لنقل البشارة بولادة إسحاق، ومريم بولادة عيسى، والتدليل على فكرة أن الملائكة يأتون من السماء لخلاص البشر من العذاب، وفقط في سياق دعم الثقافة الروحية القديمة والمستمرة. وإذا ما أخذ هذا التطور في أفكار وصور التوحيد بنظر الاعتبار، فسوف نلاحظ أن العرب مع الإسلام وانتشار تقاليد (التفلسف) وتحليل وتفسير القرآن والأحاديث النبويّة، قاموا بتعديل هامّ للغاية على منظومة الرموز الكبرى في أساطير الخصب القديمة، إذ لم تعد هناك قصص وحكايات عن أسفار الأبطال والملوك في الفضاء فوق ظهر نسر عظيم

الهيئة، أو في أعماق البحار والدخول في صراع مع كائناته المتوحشة، بحثًا عن نبتة النسل أو عشبة الخلود، كما هو الحال مع أساطير جلجامش وملوك كيش في بلاد ما بين النهرين؛ بل باتت أحلام البشر أكثر ارتباطًا بمجيء الملائكة بالبشارة. ومنذئذٍ انتصرت المرويات التي تفصّل في بشارة الملائكة الذين يأتون في صور بشرية، محل أساطير الخصب القديمة التي تروي قصص البحث البشري عن عشبة النسل في السماء أو في أعماق الأنهار والبحار. ويمكن لنا في هذا الإطار، رؤية المغزى الحقيقي لولادة يوسف - في النصّ العبري من التوراة - بعد أن تناولت أمه العاقر راحيل، نبتة اللفاح من الحقل، وكيف أنها نذرته للإله يسف - يوسف - وأسمته باسمه. ومن داخل منظومة الرموز الجديدة هذه، تبلورت بشكل نهائي أفكار وصور عن مجيء الملائكة في هيئات بشرية، وأصبح قبولها جزءًا من تقبّل شامل لصورٍ سابقة وردت في التوراة والإنجيل. وهذا هو تقريبًا المضمون الحقيقي لمرويات ابن إسحاق عن تشبيهات النبيّ ﷺ لبعض صحابته بصور أنبياء أو ملائكة؟ وفي هذا الصدد ينقل ابن إسحاق عن الشعبي[1] قوله ما يلي: شبه رسول اللّه ﷺ ثلاثة نفر من أمته، شبّه نفسه بإبراهيم، ودحية الكلبي بجبريل، وعروة بن مسعود الثقفي[2] بعيسى ابن مريم.

كما ينقل الحسن البصري عن رواة متسلسلين، رواية الإسراء وأن النبي ﷺ التقى الملائكة والأنبياء هناك، فقال: إن رسول اللّه ﷺ قال: أتيت على موسى وهو قائم يصلي في قبره، - وكان - رجل آدم[3] جعد أشبه من رأيت برجال شنوءة، ومررت على عيسى فسلم عليّ رجل شاب طويل، مرجل قد تعلوه حمرة أشبه بعروة بن مسعود.

كان تشبيه النبي ﷺ لعروة بأنه عيسى المسيح، أثر لا يُمحى في ذاكرات

---

(1) ابن إسحاق - السيرة ج1: 151.

(2) ابن ماكولا، الإكمال: ج2/ 131 عروة بن مسعود الثقفي له صحبة ورواية عن النبي ﷺ شهد صلح الحديبية.

(3) أي أحمر.

المسلمين، فقد كان عروة من عظماء الطائف وقد أسلم قبيل المعركة واتبع النبيّ ﷺ. وبرأي قتادة[1] في تفسيره لآية ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾[2] أنها نزلت بحق اثنين، أحدهما عروة بن مسعود الثقفي. والقريتان مكة والطائف (وكان عروة يشبه بالمسيح عليه السلام في صورته)[3]. ولم تكن المناسبة التي تحدث فيها النبي ﷺ عن الرجال الذين تشبه صورهم صور الأنبياء، استثنائية في تاريخ العرب وقريش، إذ ثمة ثقافة راسبة تشبّعوا بها، وساعدتهم في تقريب الصور، فقد كانت هناك رؤيا يوحنا، وتأملات إشعيا التوراتية الرائعة، فضلًا عن وجود ثقافة مندائية (صابئية) منتشرة عن العالم السماوي. وقد قصّ النبي ﷺ كيف أسري به إلى السماء، وهناك التقى إبراهيم وموسى وعيسى، وهو يدرك أنه يتحدث عن قصة مألوفة، سبق للقبائل أن تبادلتها في أحاديثها ومجالسها. يقول السهيلي[4] (قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَزَعَمَ الزّهْرِيّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيّبِ أَنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ وَصَفَ لِأَصْحَابِهِ، إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى حِينَ رَآهُمْ فِي تِلْكَ اللّيْلَةِ ـ ليلة الإسراء ـ فَقَالَ أَمّا إبْرَاهِيمُ فَلَمْ أَرَ رَجُلًا أَشْبَهَ (قَطّ) بِصَاحِبِكُمْ وَلَا صَاحِبُكُمْ أَشْبَهُ بِهِ مِنْهُ، وَأَمّا مُوسَى فَرَجُلٌ آدَمُ طَوِيلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ أَقْنَى كَأَنّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ[5]، وَأَمّا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، فَرَجُلٌ أَحْمَرُ[6] بَيْنَ الْقَصِيرِ وَالطّوِيلِ سَبْطُ الشّعَرِ[7] كَثِيرُ خِيلَانِ الْوَجْهِ، كَأَنّهُ خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ تَخَالُ رَأْسَهُ يَقْطُرُ مَاءً وَلَيْسَ بِهِ مَاءٌ أَشْبَهُ رِجَالِكُمْ بِهِ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثّقَفِيّ). بهذا المعنى والسياق، يصبح تشبيه دحية الكلبي بجبرائيل، متناغمًا ومنسجمًا مع ثقافة جديدة أشاعها الإسلام، لتقريب صور

(1) ابن عبد البر، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**: ج1/ 230 أما الآخر فهو الوليد بن المغيرة لأنه (قال: لو كان ما يقوله محمد حقًا أنزل علي القرآن أو على عروة).
(2) سورة الزخرف: الآية 31.
(3) ابن عبد البر، كذلك.
(4) **الروض الأنف**: 401.
(5) المصدر السابق نفسه.
(6) وصف عيسى بأنه أحمر مماثل لما ورد في التوراة من وصف عيصو.
(7) في التوراة يظهر عيصو ـ عيسو كرجل مشعر(كثير الشعر). انظر سفر التكوين.

الملائكة والأنبياء والقديسين كبشر. ومع ذلك، لابد من التساؤل: كيف وتحت أي شرط يمكن للمرء، تقبل فكرة أن البشر يمكن أن يكونوا على صورة ملائكة وأن يتزوجوا؛ بل وأن يصاهروا الرسل والأنبياء؟ هناك بضع ملاحظات بصدد هذا التماثل في صور الرجال مع الأنبياء:

الملاحظة الأولى: أن النبيّ ﷺ سعى بالفعل إلى تقريب صور الأنبياء إلى أذهان جماعة مسلمة صغيرة، كانت لا تزال في بدايات هجرتها من مكة إلى المدينة (يثرب) بما يساعدها على فهم أعمق للإسلام، كحلقة أخيرة في تاريخ الأديان. لقد كان الإسلام من هذه الزاوية هو الخلاصة الروحية الكبرى للبشرية، ويُفترض بجماعة صغيرة في وضع من هذا النوع، وأنيطت بها فوق ذلك، مهام ومسؤوليات كبرى، أن تستوعب بأقصى قدر من الإيجاز، مضمون هذه الخلاصة على أكمل وجه، وأن تتولى بنفسها نشر الدعوة الإسلامية في قبائلها بوصف الدين الجديد، ممتدًّا ومتسلسلًا من إبراهيم وموسى وعيسى حتى محمد. لكنه من جانبٍ موازٍ، كان تشبيهًا مصمّمًا لأداء أغراض أخرى، لعل من بينها تكريم زعماء قبليين عظام، مثل عروة الثقفي سيّد ثقيف، بإضفاء صفات جديدة عليه ذات طابع روحي مميّز. بيد أن تشبيه دحية بجبريل لا يبدو مفهومًا، فهو ليس بزعيم قبلي كبير، ولم يكن من سكان الجزيرة العربية. وبكل يقين، لا يبدو هذا التشبيه من حيث وظائفه المباشرة، متوافقًا مع مكانة دحية الكلبي في مجتمع الإسلام الجديد. فلماذا احتل هذه المكانة الرفيعة لا كشبيه لجبرائيل، بل كتجلٍ له؟

الملاحظة الثانية: أن النبيّ ﷺ شبّه عروة بالمسيح لحمرة وجهه. وهذا التوصيف الدقيق مستمد من الصورة التوراتية لعيصو ـ ومنه جاء الاسم العربي (عيس ـ عيسو) فهو رجل آدم (أحمر). وثمة تناظر مدهش في هذه الصورة الأخاذة، فكلمة عيص العبرية عيصو ـ عيص **עיץ** تعني شجرة، غصن، عصا (شجرة كرم). وهذا هو مغزى لونه الأحمر (النبيذ). إن صورة المسيح في النصرانية الأولى تبدو أقرب إلى صور تقديس الشجرة ـ الإله التي يشرب الأتباع من نبيذها (وفي الأناجيل يقول المسيح لأتباعه هذا دمي فاشربوه).ومن المؤكد أن لاختيار زعيم كبير من زعماء الطائف لتشبيهه

بالمسيح، علاقة عضوية بحقيقة أن الطائف تشتهر بالأعناب، وكانت قبائلها ترفض دخول الإسلام إلّا على شرط إباحة شرب النبيذ، وهذا أمر معروف. ولذا شبّه النبيّ ﷺ زعيم قبائل الطائف عروة بن مسعود الثقفي وليس أي شخص آخر بالمسيح. وشبّه دحية بجبرائيل لجماله الخارق، بينما شبه موسى كرجل من قبائل اليمن أسود، أجعد الشعر. بيد أن النبيّ ﷺ لم يعامل عروة، قط على أنه هو نفسه المسيح؟ فلماذا أضفى على دحية الكلبي كل هذه القداسة وتصرف معه كأنه جبرائيل، وبحيث إنه كان يناجيه ويمسح العرق عن وجهه، ويمسك لجام حصانه؟

الملاحظة الثالثة: إن تشبيه موسى كأحد رجال شنوءة، يعيد تذكير الجماعة المسلمة، بأن موسى نبيّ يمني من قبيلة عربية هي أزد شنوءة، وأنه كان أقرب إلى الجعد[1] من الرجال.

هذان التشبيهان يتمتعان بميّزة خاصة واستثنائية، فهما يساهمان في تكوين بيئة عربية خالصة للنبوّة، يصبح فيها النبيّ ﷺ شبيهًا بإبراهيم النبي ﷺ الجد الأعلى للعرب، كما تصبح الرسالات السماوية رسالة واحدة متسلسلة، وقابلة للتجلي في صور رجال من زعماء العرب وقادتهم الروحيين. وسأشير عرضيًا ـ هنا ـ إلى مغزى حديث النبي عن موسى (اليمني من أزد شنوءة): إن هذه الإشارة الثمينة تحيلنا إلى ما سبق وأثرناه من نقاش، حول اليهودية كدين عربي قديم ولد في اليمن، وليس في أي مكان آخر[2]. وفي سياق هذا التشبيه، يبدو أمرًا مقبولًا تشبيه عروة بعيسى المسيح، لكنه لا يبدو مفهومًا في حالة دحية، لأن الإطار الذي رسم للشخصيات يتحدّد في الصور البشرية للأنبياء: إبراهيم شبيه بمحمد، موسى شبيه برجال شنوءة، عروة الثقفي شبيه بعيسى المسيح. أما جبرائيل فشبّه بدحية. فعلام تدلّ هذه القفزة، ويصبح الرجل البشري شبيهًا بملاك سماوي؟

---

(1) الزمخشري، **أساس البلاغة**، ج3: 31: شعر جعد: يابس لا يؤثر فيه البلّ بالماء ولا بالدهن.

(2) حول هذه النقطة انظر بعض مؤلفاتنا ـ مصادر مذكورة.

الملاحظة الرابعة: أن التماثل بين صور الأنبياء والبشر، قد لا يظل مجرد تماثل شكلي غير قابل للتوظيف. صحيح أن عروة بن مسعود الثقفي لم يصبح صحابيًا كبيرًا، أو شخصًا استثنائيًا بفضل تشبيهه بالمسيح، كما هو الحال مع دحية الكلبي الذي أصبح فعليًا، نوعًا من تجسيد للملاك، واعتبر صحابيًا كبيرًا، ولكن الصحيح أيضًا أن هذا التشبيه وبفضل توظيفه المضطّرد، أدّى إلى نشوء تصور جامد ـ ستاتيكي ـ بأن دحية هو جبرائيل، الأمر الذي يؤكد أن ما قصده النبي ﷺ من قوله إنه يأتي في صورة رجل، لم يكن مجرد مقاربة شكلية، عابرة أو لتقريب الصورة من أذهان المسلمين؛ وإنما كان أبعد من ذلك، فقد كان يردد، كلما سمع اسم دحية (إنه جبريل) بينما لم يردّد كلما سمع اسم عروة أنه المسيح أو شبهه؟ ويمكن الاستنتاج من هذا الرأي الأولي، أن شخصية دحية تبلورت نهائيًا في صورة رجل ـ ملاك، وهذا هو الأمر الاستثنائي والمميز في الصورة التي أنشأتها المرويات العربية الإسلامية، وميزتها عن سائر الصور الأخرى. إن هذا الالتباس (الذي أشارت إليه الآية القرآنية) هو ما يدفع باتجاه التشكيك في الصورة التاريخية التي رسمتها المرويات الإسلامية لدحية الكلبي، بوصفها، إمّا صورة ملفقة ومن اختراع الرواة، ولا أساس لوجودها، وأن كل ما روي عنها من أخبار واهية يندرج في نسق ثقافي تقليدي يعرف تقاليد (اختراع) شخصيات من هذا النوع، وإما أنها شخصية ملاك حقيقي، هبط من السماء في هيئة بشرية، وآمن المسلمون وما زالوا، بأنه جاء بالوحي للنبي ﷺ، وأنه اتخذ هيئة بشرية. وفي حال تقبّل مثل هذا الرأي، والإيمان به والجدال دفاعًا عنه، فسوف يتوجب علينا المطالبة بدليل من نوع ما، بأن التاريخ البشري يعرف واقعة واحدة من نوعه، وأن الملائكة يمكن أن يتخذوا هيئات بشرية تعيش معنا كرجال لهم أنساب وسلالات، ويتزوجون وينجبون.

سنعود هنا، ولغرض تعميق التحليل لرواية ابن عباس.

كنا رأينا أنه روى ـ أو نقل عنه في ما بعد معظم الرواة والمفسرين وكتّاب السيرة ـ مشاهدته للنبي ﷺ يناجي جبرائيل، وأنه أدرك بصورة لا تقبل الجدل، أن الرجل المُناجى كان دحية الكلبي. فهل يمكن لنا أن نتقبل الرواية؟

في ما سلف من الصفحات، نقلنا الرواية نفسها ولكن بلسان رواة نقلًا عنه، وهاهنا الرواية كما وردت على لسانه هو - حسب المزاعم الرائجة -. ولنلاحظ أنه يروي قصة حدثت حين كان لايزال في الثامنة من عمره أو أقل من ذلك (نحو ست سنوات).

يقول نص روايته[1] ما يلي:

> مررت برسول اللّٰه وعليه ثياب بياض نقية، وهو يناجي دحية بن خليفة الكلبي، وهو جبريل، وأنا لا أعلم، قال: فلم أسلم. قال جبريل: يا محمد، من هذا؟ قال: هذا ابن عمي، هذا ابن عباس قال: ما أشد وضح ثيابه، أما إن ذريته ستسود بعده، لو سلم لرددنا عليه. قال: فلما رجعت قال لي رسول اللّٰه ﷺ ما منعك أن تسلم؟ قلت يا رسول اللّٰه، رأيتك تناجي دحية الكلبي، فكرهت أن تقطعا مناجاتكما. قال: وقد رأيته؟ قال: قلت: نعم، قال: أما إنه سيذهب بصرك، ويرده اللّٰه عليك في موتك[2].

إذا ما تقبلنا هذه المروية على أنها واقعة تاريخية، وتخص في الصميم تاريخ الإسلام المبكر، فسوف يتوجب علينا تصديق أن ابن عباس تعرّف على شخصية جبرائيل - وهو غلام في أحسن الأحوال أو طفل صغير -، وأنه سمعه يسأل النبي ﷺ عنه، وأكثر من ذلك، سمعه وهو ينبئه بمصيره حين يفقد

(1) مختصر تاريخ دمشق، ج4/ 239.

(2) كذلك: ج6: 184 وفي رواية موازية:(مررت بالنبي ﷺ وقد انصرف من صلاة الظهر. وعليه ثياب بيض، وهو يناجي دحية الكلبي فيما ظننت، وكان جبريل عليه السلام ولا أدري، فقال جبريل للنبي ﷺ: يا رسول اللّٰه، هذا ابن عباس، أما إنه لو سلم علينا رددنا عليه، أما إنه شديد وضح الثياب، وليلبسن ذريته من بعده السواد، فلما عرج جبريل وانصرف النبي ﷺ قال: ما منعك أن تسلم إذ مررت آنفًا؟ قال: قلت: يا رسول اللّٰه، مررت بك وأنت تناجي دحية الكلبي، فكرهت أن أقطع نجواكما بردكما عليّ السلام. قال: لقد أتيت النظر، ذاك جبريل وليس أحد رآه غير نبي إلّا ذهب بصره؛ وبصرك ذاهب، وهو مردود عليك يوم وفاتك).

بصره، وكذلك بمصير أحفاده. لكن، لماذا لم نسمع هذا الحديث منقولًا على لسان دحية الكلبي وهو الصحابي الكبير كما يزعم الرواة؟ مَنْ منهما أولى من الآخر بنقل الحديث الشريف، الغلام عابر السبيل أم الصحابي الذي كان يحظى من النبي ﷺ بمناجاة إلهية، فيمسح عن وجهه غبار السفر، بوصفه تجسيدًا لملاك الرّب؟ ولذلك، يحق التساؤل عن مغزى ومضمون هذه المروية الشائعة في المؤلفات الإسلامية، وأن نشكّك في صحتها، فإمّا أن الرواية لا أساس لها، وأن شخصية دحية لا وجود لها في الأصل، وإمّا أنه ملاك حقيقي جاء من السماء في صورة رجل، ثم اختفى مع انقطاع الوحي؟

وإذا ما رفض المسلم، أي مسلم، هذا الحديث، أو شكّك فيه وفي وجود شخصية تاريخية تدعى دحية الكلبي ـ وقد يكون لديه الكثير من المبررات المقبولة لتبني رأي مشكّك ـ ففي هذه الحالة يجب تقبل فكرة أن دحية الكلبي ليس شخصية تاريخية مؤكدة، ومن يزعم خلاف ذلك، عليه أن يقدم البراهين المقنعة. ولن يعدّ هذا التشكيك ـ بطبيعة الحال ـ مسًّا بالعقيدة الإسلامية أو النبوّة أو الصحابة، وهو يتعلق فقط، بمسألة فحص المرويات والتدقيق فيها. لكن، إذا ما فعل المسلم، أي مسلم، العكس وأعلن عن تصديقه للمرويات الخاصة بدحية، واعتباره شخصية تاريخية، فمن واجبه أن يبرر لنا سبب اختفائه المفاجىء، وانقطاع أي خبر أو أثر له طوال العقود الممتدة من وفاة النبي ﷺ حتى عهد معاوية؟ وأن يبرر لنا السبب الذي منعه من نقل أو رواية أي حديث له قيمة دينية أو تاريخية؟ وهل يمكن تصور وجود صحابي كبير بمثل هذه المكانة في عهد معاوية، ودون أن نسمع منه أي رأي أو حديث يتعلق بالأحداث الكبرى التي وقعت في هذا العصر؟ فماذا عن صراع علي ومعاوية على الخلافة؟ وماذا عن حادثة نقل نسب زياد ابن أبيه إلى شجرة أنساب معاوية، وهي حادثة اهتز لها وجدان المسلمين، لمخالفتها شرعة الإسلام؟ وما رأي دحية بحروب الرّدة مثلًا، ولماذا لم نسمع له رأيًا بنبوّة مسيلمة وسجاح وطليحة الأسدي والأسود العنسي، وهؤلاء أنبياء أو مدعي نبوّة؟ وماذا عن صراع عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد بعد قتل عامل النبي ﷺ مالك بن نويرة؟ وما موقف دحية من موقعة الجمل؟ وما رأيه

بحديث الإفك، والتشهير السخيف والمنحطّ بأمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها؟ وإذا كان دحية بالنسبة للمسلم، أي مسلم، شخصية أرضية، بشرية تجسّدت فيها شخصية سماوية، أي ملاك جاء من السماء أو تشبّه بها، ففي هذه الحالة، وطبقًا للحديث الشريف، لن يكون بوسع البشر أن يروه، فكيف حدث وأن رآه ابن عباس وهو غلام؟ وإذا صحّ هذا الحديث المنسوب للنبي ﷺ، فكيف يمكن لنا أن نفسر جملة (ذاك جبريل وليس أحد رآه غير نبي إلّا ذهب بصره؛ وبصرك ذاهب) لأن الصحابة شاهدوه وسمعوه في المسجد مرارًا وتكرارًا؟ فلماذا لم تذهب أبصارهم؟ ولماذا اقتصر العقاب على ابن عباس وحده، بينما رآه الصحابة وبسطاء المسلمين في المسجد وهو يمتحن النبيّ ﷺ ويختبر معارفه بالدين؟ على الأرجح، جرى تلفيق هذا الحديث في العصر العباسي المبكر، لإضفاء نوع من (القدسية) على ابن عباس بعد اتهامه بالفساد المالي[1]، وتلك قصة مشهورة لم ينكرها ابن عباس نفسه، حين أصرّ على حقه في سرقة أموال المسلمين؟ وممّا يدعم هذا الاستنتاج، أن الواقدي[2] يروي الرواية ذاتها تقريبًا منسوبة لحارثة بن النعمان. قال: (إن رسول اللّه ﷺ

---

(1) الطبري: ج4/ 108 و 109 وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**: ج2/ 104 (خرج عبد اللّه ابن عباس من البصرة ولحق بمكة في قول أكثر أهل السير، وقد أنكر ذلك بعضهم وقال: لم يزل عاملًا عليها لعلي حتى قتل علي، وشهد صلح الحسن مع معاوية ثم خرج إلى مكة. والأول أصح. وإنما كان الذي شهد صلح الحسن عبيد اللّه بن عباس. وكان سبب خروجه أنه مر بأبي الأسود فقال: لو كنت من البهائم لكنت جملًا، ولو كنت راعيًا لما بلغت المرعى. فكتب أبو الأسود إلى علي: أما بعد فإن اللّه، عز وجل، جعلك واليًا مؤتمنًا وراعيًا مستوليًا، وقد بلوناك فوجدناك عظيم الأمانة، ناصحًا للرعية، توفر لهم فيئهم، وتكف نفسك عن دنياهم، ولا تأكل أموالهم، ولا ترتشي في أحكامهم، وإن ابن عمك قد أكل ما تحت يديه بغير علمك، ولم يسعني كتمانك، رحمك اللّه، فانظر فيما هناك، واكتب إلي برأيك فيما أحببت، والسلام.فكتب إليه علي: أما بعد فمثلك نصح الإمام والأمة ووالى على الحق، وقد كتبت إلى صاحبك فيما كتبت إلي، ولم أعلمه بكتابك، فلا تدع إعلامي بما يكون بحضرتك مما النظر فيه صلاح للأمة، فإنك بذلك جدير، وهو حق واجب عليك، والسلام).

(2) الواقدي ج1/ 901.

لما انكشف الناس ـ عنه يوم حنين ـ قال لحارثة بن النعمان[1]: يا حارثة، كم ترى الذين ثبتوا؟ قال فلما التفت ورائي تحرّجًا فنظرت عن يميني وشمالي، فحزرتهم مائة فقلت: يا رسول اللّه هم مائة، حتى كان يوم مررت على النبي ﷺ وهو يناجي جبريل عليه السلام عند باب المسجد فقال جبريل عليه السلام: من هذا يا محمد؟ فقال رسول اللّه ﷺ حارثة بن النعمان. فقال جبريل عليه السلام: هذا أحد المائة الصابرة يوم حنين، لو سلم لرددت عليه السلام. فأخبره النبي ﷺ فقال ما كنت أظنه إلّا دحية الكلبي واقف معك).

فهل الشخص الذي مرّ وشاهد النبي ﷺ يناجي جبرائيل في صورة دحية، كان الطفل الصغير ابن عباس أم الصحابي حارثة بن النعمان أم كان أبا ذرّ كما رأينا من رواية سابقة؟

خديجة وعائشة

لم ينحصر الخلاف بين الفقهاء والمفسرين المتأخرين، حول (منْ من صحابة النبي ﷺ شاهد جبرائيل) وهل كان أبو ذرّ الغفاري أم ابن عباس أم حارثة بن زيد؟ وإنما امتدّ ليشمل زوجاته. ونشب خلاف متشعّب ومتعدّد الأشكال حول مَنْ منهنّ شاهدته وروت الحديث؟ هل رأته عائشة أم أمّ سلمة؟

استنادًا إلى رواية أبي الفداء عن البخاري[2]، فقد رأت أم سلمة دحية الكلبي، لكن النبي ﷺ أخبرها أنه جبرائيل. وهنا نص الحديث. قال:

(قال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا معتمر قال: سمعت أبي عن أبي عثمان قال: أنبئت أن جبريل، عليه السلام، أتى النبي ﷺ وعنده

(1) حارثة بن النعمان بن رافع بن زيد بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار أبو عبد اللّه الأنصاري، له صحبة ورواية عن النبي ﷺ، روى عنه عبد اللّه بن عامر بن ربيعة وثعلبة بن أبي مالك، شهد بدرًا وما بعدها وعاش إلى زمن معاوية.

(2) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [700 ـ 774 هـ]: تفسير القرآن العظيم، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ ـ 1999 م: ج1/ 19.

أم سلمة[1]، فجعل يتحدث، فقال النبي ﷺ: من هذا؟ ـ أو كما قال أنها ـ قالت: هذا دحية الكلبي. فلما قام قلت: واللّه ما حسبته إلّا إيّاه، حتى سمعت خطبة النبي ﷺ يُخبر خَبر جبريل. قال ـ معتمر ـ: فقلت لأبي عثمان: ممن سمعت هذا؟ فقال: من أسامة بن زيد. والغرض من إيراد هذا الحديث هاهنا أن السفير بين اللّه وبين محمد ﷺ جبريل عليه السلام، وهو ملك كريم ذو وجاهة وجلالة ومكانة كما قال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[3] فمدح الرب تبارك وتعالى عبديه ورسوليه جبريل ومحمدًا. وفي الحديث فضيلة عظيمة لأم سلمة رضي الله عنها ـ كما بيّنه مسلم رحمه اللّه ـ لرؤيتها لهذا الملك العظيم، وفضيلة أيضًا لدحية بن خليفة الكلبي، وذلك أن جبريل عليه السلام، كان كثيرا ما يأتي رسول اللّه ﷺ على صورة دحية وكان جميل الصورة رضي الله عنه، وكان من قبيلة أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي[4]، كلهم ينسبون إلى كلب بن وبرة وهم قبيلة من قضاعة، وقضاعة قيل: إنهم من عدنان، وقيل: من قحطان، وقيل: بطن مستقل بنفسه، واللّه أعلم).

في هذه الرواية، تجلّى جبرائيل للنبي ﷺ عندما كان في منزله وعنده زوجته المحبوبة أمّ سلمة. لكننا رأينا في روايات أخرى، أن عائشة هي التي كانت معه في المنزل عندما سمعت صوت جلبة، وشاهدته يخرج مسرعًا، فيمسك بلجام فرسه ويناجيه. وهذا ما نقرأه عند الطبراني. تقول الرواية[5]

(1) تزوج رسول اللّه أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد، توفيت سنة اثنتين وستين، ودفنت بالبقيع، وهي آخر أزواج النبي ﷺ موتًا.

(2) سورة الشعراء: الآيتان، 193، 194.

(3) سورة التكوير: الآيات 19 ـ22.

(4) في هذه الرواية يصبح نسب دحية مرتبطًا بنسب قبيلة أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي؟

(5) الطبراني، **المعجم الكبير** ج2/ 256.

بإسناد حسن مرفوعًا إلى عُبَيْدِ اللَّهِ بن عُمَرَ، عَنِ الْقَاسِمِ بن مُحَمَّدٍ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ:

(رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَمَعَهُ رَجُلٌ عَلَى بِرْذَوْنٍ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ قَدْ شَدَ لَهَا مِنْ خَلْفِهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ وَاضِعٌ يَدَهُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْبِرْذَوْنِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: وَرَأَيْتِهِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: مَنْ هُوَ؟ قُلْتُ: دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ، قَالَ: ذَاكَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ).

فهل شاهدت المرأتان، كل على انفراد، الرجل ـ الملاك نفسه، أم أن خطأ حدث في نقل الرواية، فنسبت مرة لعائشة ومرة أخرى لأم سلمة؟ لكن السؤال الأهم في هذا السياق هو التالي: لقد بدأ الوحي في منزل خديجة بعد عودة النبيّ ﷺ من غار حراء مع نزول سورة (المدثر)[1]. فهل نزل جبرائيل في هذا الوقت من البعثة النبوية في صورة دحية الكلبي؟ وهل تسنى لخديجة رؤية الرجل ـ الملاك؟ هذا دون شك، سؤال معقول ويتوجب النظر إليه كسؤال منطقي، يستدعي جوابًا شافيًا؟ يقول الطبري[2] نقلًا عن يحيى بن أبي كثير، قال: سألت أبا سلمة: أيّ القرآن أُنزل أوّل، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ فقلت: يقولون ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾. فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد اللَّه: أيّ القرآن أنزل أوّل؟ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فقلت: يقولون: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ فقال: لا أخبرك إلّا ما حدثنا النبيّ ﷺ قال: جاورت في حِراء؛ فلما قضيت جواري هبطت، فاستبطنت الوادي، فنوديت، فنظرت عن يميني وعن شمالي وخلفي وقدّامي، فلم أر شيئًا، فنظرت فوق رأسي، فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض، فخشيت منه، هكذا قال عثمان ابن عمرو، إنما هو: فجئثت[3] منه، ولقيت خديجة، فقلت دثروني، فدثروني، وصبّوا عليّ ماءً، فأنزل اللَّه عليّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

(1) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۞ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۞ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۞ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾.

(2) الطبري، تفسير الطبري ج6/ 400.

(3) أي خفت، خشيت منه.

يُلاحظ في هذه الرواية، أن رواة الأخبار، وهم حسب التسلسل كل من يحيى بن أبي كثير، وأبو سلمة، وجابر بن عبد اللّه، قاموا برواية الحلم بوصفه واقعة تاريخية، وزعم أحدهم أنه سمع الحديث من النبي ﷺ نفسه، فكيف سمعه؟ يقول جابر بن عبد اللّه (ألا أخبرك بما حدثنا النبي ﷺ قال: جاورت في حراء..إلخ...). لكننا رأينا من روايات أخرى موثقة، أن النبي ﷺ قصّ على أصحابه رؤيا رآها في غار حراء وتراءى فيها جبرائيل، ولم يقل إنها حدثت له في اليقظة؟

على هذا النحو، تقوم الميثولوجيا الإسلامية، بتحويل الحلم إلى واقع مؤسطر، خارق وعجائبي يتماهى كليًّا مع الحلم. لكن عائشة تروي هذا الحديث على نحو مختلف ينسف الرواية السابقة وعلى النحو التالي[1]:

كان أوّل ما ابتدئ به رسول اللّه ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة؛ كانت تجيء مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، فكان بغار حراء يتحنَّث فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله، ثم يرجع إلى أهله فيتزوّد لمثلها، حتى فجأه الحق، فأتاه، فقال: يا محمد أنت رسول اللّه، قال رسول اللّه: «فَجَثَوْتُ لِرُكْبَتيَّ وأنا قائِمٌ، ثُمَّ رَجَعْتُ تَرْجُفُ بَوَادِرِي، ثُمَّ دَخَلْتُ عَلى خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، حتى ذَهَبَ عنِّي الرَّوْعُ، ثُمَّ أتانِي فَقالَ: يا مُحَمَّدُ، أنا جِبْرِيُل وأنْتَ رَسُولُ اللّهِ، قال: فَلَقَدْ هَمَمْت أنْ أطْرَحَ نَفسِي مِنْ حالِقٍ [مِنْ جَبَلٍ]، فَتَمَثَّل إليَّ حِينَ هَمَمْتُ بذلكَ، فَقالَ: يا مُحَمَّدُ، أنا جِبْرِيلُ، وأنْتَ رَسُولُ اللّهِ، ثُمَّ قالَ: اقْرأ، قُلْتُ: ما أقْرأ؟ قال: فأخَذَنِي فَغطَّنِي ثَلاثَ مَرَّاتٍ، حتى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ قالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فَقَرأتُ، فأتَيْتُ خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: لَقَدْ أشْفَقْتُ عَلى نَفْسِي، فأخْبَرْتُها خَبرِي، فَقالَتْ: أبْشِرْ، فَوَاللّهِ لا يُخْزِيكَ اللّه أبدًا، وَوَاللّهِ إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتُؤَدِّي الأمانَةَ، وَتحمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي

(1) الطبري 24/ 530.

الضَّيْفَ، وتُعِينُ عَلى نَوَائِبِ الْحَقِّ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِي إلى وَرَقَةَ بنِ نَوْفَل ابنِ أَسَدٍ، قالَتْ: اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أخِيكَ، فَسألَنِي، فأخْبَرْتُهُ خَبَرِي، فَقَالَ: هَذا النَّامُوسُ الَّذِي أُنزِلَ عَلَى مُوسَى ﷺ لَيْتَنِي فِيها جَذَعٌ، لَيْتَنِي أكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قُلْتُ: أوَمُخْرِجيَّ هُمْ؟ قال: نَعَمْ، إنَّهُ لَمْ يَجِئْ رَجُلٌ قَطّ بِمَا جِئْتَ بِهِ، إلَّا عُودِيَ، وَلَئِنْ أدْرَكَنِي يَوْمُكَ أنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ كانَ أوَّل ما نزلَ عَليَّ مِنَ القُرْآنِ بَعْدَ ﴿ٱقْرَأْ﴾: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾.

فمنْ من نساء النبي ﷺ شاهدت جبريل في صورة دحية الكلبي؟

في حديث عائشة تأكيد قاطع، أن اللقاء الأول مع جيرائيل كان في غار حراء بين اليقظة والحلم، وأن المراة التي قصّ عليها رؤيته هي خديجة ـ ﵂ ـ. وفي هذا اللقاء، يبدو من المؤكد أن الملاك تراءى في صورته السماوية، ولم يتجسّد إلّا في حقبة تالية حين انتقل النبيّ ﷺ إلى يثرب. والسؤال الذي يتوجب طرحه هنا هو التالي. هل حدث التجسّد الملاك في هيئة بشرية ـ في صورة دحية ـ في فترة انقطاع الوحي؟ أم أنّ هذا التجسّد هو التعبير الرمزي عن انقطاع الوحي، لأن الملاك السماوي تحوّل نهائيًّا إلى كائن بشري، ولم يعد رسولاً؟ في الفصل التالي سوف نعيد تحليل التناقض في روايات نساء النبي ﷺ عن دحية، بالارتباط مع فتور الوحي أو انقطاعه.

الفصل الثالث

فتور الوحي وانقطاعه، وماذا عن دحية الكلبي؟

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

[البقرة: 97]

تخلو رواية فتور الوحي ثم انقطاعه ـ في المؤلفات الدينية الكبرى ـ وكليًّا من أي إشارة إلى دحية الكلبي، مع أن مسألة نزول جبرائيل غالبًا ما كانت تقترن به. ولذلك لا يبدو إهمال هذا الجانب من الرواية عند الإخباريين المسلمين، مبررًا أو مفهومًا؛ إذ كيف يمكن فهم إهمال أي ذكر لدحية خلال هذه الحقبة، وهو الذي كان يناجيه ويمسح عن وجهه غبار السفر؟. ولمّا كنا نعلم أن الوحي بدأ في غار حراء بمكة، وأنه فتر ثم انقطع قبل الهجرة إلى يثرب، فإن السؤال الذي سوف يثار أمامنا هو التالي: هل كان النبي ﷺ يشاهد جبريل في مكة بصورته السماوية دون تجسيد؟ وإذا كان الأمر كذلك ـ ونحن لا نشكّ فيه ـ فلماذا ظهر دحية في صورته؟ ولماذا تجسّد في هذه الصورة بيثرب وليس في مكة؟ وكيف نفهم انقطاع الوحي بمكة وظهور جبريل في يثرب؟ ثمة خطأ من نوع ما في سرد قصة فتور الوحي، يتعيّن الكشف عنه والتعرّف على أسبابه،إذ كيف انقطع الوحي في مكة ولماذا عاد جبرائيل للظهور في يثرب؟. إن فك الارتباط التعسفي داخل المؤلفات التاريخية والدينية، بين صورة دحية وصورة جبرائيل خلال فترة

انقطاع الوحي، وتصحيح السياق التاريخي للترابط الزائف بين الصورتين، وهو ترابط لفّقه رواة الحديث والمؤرخين التقليديين باضطّراد ودون مبررات مقنعة، ولا يبدو مفهومًا أو مقبولًا بسهولة، حتى أن المرء وهو يقرأ هذه المؤلفات، ينتابه إحساس غريب بأن غياب أي ذكر لدحية، قد يكون عملًا مقصودًا قام به هؤلاء لمحو الانطباعات القوية التي تركتها قصص ومرويات تجسّد (تمثل) جبرائيل في صورة بشرية، أو لتقليل قوة حضور دحية الكلبي نفسه في مسألة انقطاع الوحي، وبالتالي مواجهة النتائج التي نجمت عن التساهل مع الأحاديث والمرويات غير الدقيقة، وربما المفرطة في غرائبيتها، وبالطبع مواجهة اللامبالاة إزاء ما تركه هذا التمثل من التباسات في أذهان المسلمين، وهي أمور جاء القرآن صراحة على ذكرها. سوف أستعرض أهم ما كتبه القدماء وبعض المعاصرين كذلك، عن فتور الوحي في مكة، وهي نصوص تخلو من أي تلميح أو إشارة إلى دحية الكلبي. لقد حدث (احتباس الوحي عن النبي ﷺ) حسب تسمية المفسرين، مرتين:

أولاهما:

قبل نزول سورة المدثر أو المزمل (وبعد نزول سورتين من القرآن أو ثلاث على الخلاف في الأسبق من سورتي المزمل والمدثر؟)[1] واستمرت نحو أربعين يومًا. وخلال هذه الفترة خشي النبي ﷺ أن يكون الوحي قد انقطع عنه. لكنه رأى بعدها مباشرة، ولأول مرة، جبرائيل في صورته الملائكية ـ السماوية (على كرسي بين السماء والأرض)[2]، وقد قيل: إن مشركي قريش في الفترة الأولى من مدة انقطاع الوحي لم يشعروا بها، لأنها كانت في مبتدأ نزول الوحي، قبل أن يشيع الحديث بينهم تاليًا حول مفارقة السماء له.

وثانيتهما:

وهي فترة الانقطاع الثانية التي استمرت نحو اثني عشر يومًا، وحدثت

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: ج16/ 300.
(2) ابن عاشور، كذلك.

بعد نزول نحو ثماني سور من القرآن[1]. لكن المفسرين وكتّاب السيرة ورواة الأخبار والفقهاء، اختلفوا في مدة انقطاع الوحي الأولى. والثانية، وهي فترة استمرت برأي ابن جريج: اثنا عشر يومًا، وقال ابن عباس خمسة وعشرون يومًا، وقال السدي ومقاتل: أربعون يومًا. كما وقع خلاف في (سبب احتباس جبريل عليه السلام، فذكر أكثر المفسرين أن اليهود سألت رسول اللّه ﷺ عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف، فقال: سأخبركم غدًا ولم يقل إن شاء اللّه، فاحتبس عنه الوحي)[2]. وفي تفسيره لآية ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[3] ارتأى الطبري[4] أن فتور الوحي وقع في مكة، وأصاب النبي ﷺ بالحزن الشديد، حتى أنه راح يجوب الجبال المحيطة بالمدينة على امتداد أيام (فحزن ـ فيما بلغنا ـ حزنًا، فجعل يعدو إلى شواهق رؤوس الجبال ليتردّى منها، فكلما أوفى بذروة جبل تبدّى له جبريل عليه السلام فيقول: إنك نبيّ اللّه، فيسكن جأشه، وتسكن نفسه، فكان النبيّ ﷺ يحدث عن ذلك، قال: بَيْنَما أنا أَمْشِي يَوْمًا إذ رأيْتُ المَلَكَ الَّذِي كان يأتِيني بِحرَاءَ على كُرْسِيّ بَينَ السَّماءِ والأرْضِ، فأنزل اللّه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[5].

وارتأى ابن أبي حاتم[6] نقلًا عَنِ السُّدِّيِّ، أن جبرائيل احتبس عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بمكة حتى حزن واشتد عليه، فشكا ذَٰلِكَ إِلَى خديجة، فقالت له: لعل ربك قد ودعك، أو قلاك، فنزل جبريل بهذه الآية ـ المدثر ـ، قَالَ: يا جبريل، احتبست عني حتى ساء ظني، فقال له ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[7].

(1) ابن عاشور، كذلك.
(2) الرازي،أبو عبد اللّه محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين: مفاتيح الغيب: ج17/ 74.
(3) سورة الضحى: الآية 2.
(4) الطبري كذلك ج23/ ص 8.
(5) سورة المدثر.
(6) تفسير ابن أبي حاتم: ج9/ 380.
(7) سورة مريم: الآية 64.

وهذا ما يقوله الرازي[1] في تفسيره للآية، فقد (أبطأ جبريل على النبي ﷺ فقال المشركون: قد قلاه اللّه وودعه، فأنزل اللّه تعالى عليه هذه الآية. وقال السدي: أبطأ عليه أربعين ليلة فشكا ذلك إلى خديجة فقالت: لعل ربك نسيك أو قلاك؟ وقيل إن أم جميل امرأة أبي لهب قالت له: يا محمد ما أرى شيطانك إلّا قد تركك؟ وروي عن الحسن أنه قال: أبطأ على الرسول ﷺ الوحي فقال لخديجة: إن ربي ودعني وقلاني. يشكو إليها، فقالت: كلا والذي بعثك بالحق ما ابتدأك اللّه بهذه الكرامة إلّا وهو يريد أن يتمها لك) فنزلت آية ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾. وبرأي الرازي فقد طعن الأصوليون في هذه الرواية، وقالوا: إنه لا يليق بالرسول ﷺ أن (يظن أن اللّه تعالى ودعه وقلاه، بل يعلم أن عزل النبي عن النبوة غير جائز في حكمة اللّه تعالى، ويعلم أن نزول الوحي يكون بحسب المصلحة، وربما كان الصلاح تأخيره، وربما كان خلاف ذلك، فثبت أن هذا الكلام غير لائق بالرسول ﷺ ثم إنْ صح ذلك يحمل على أنه كان مقصوده عليه الصلاة والسلام أن يجربها ليعرف قدر علمها، أو ليعرف الناس قدر علمها)[2].

ثم اختلف الفقهاء والمفسرون حول (قدر مدة انقطاع الوحي)[3]. ويبدو أن استخدام تعبير (فترة) للإشارة إلى زمن انقطاع الوحي، صار بذاته موضوعًا خلافيًا، وهذا أمر يمكن اكتشافه من مراجعة مؤلفات هؤلاء. إن ابن كثير[4] مثلًا، يكرر رواية الطبري مع بعض الإضافات، فيقول: (ثم فتر الوحي فترة، وذهب النبي ﷺ مرارًا ليتردى من رؤوس الجبال، فكلما هَمّ بذلك ناداه جبريل من الهواء: يا محمد، أنت رسول اللّه حقًا، وأنا جبريل. فيسكن لذلك جأشه، وتقر عينه، وكلما طال عليه الأمر عاد لمثلها، حتى

---

(1) الرازي، أبو عبد اللّه محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بفخر الدين، مفاتيح الغيب: ج17/ 74.

(2) الرازي، المصدر نفسه.

(3) كذلك.

(4) ابن كثير، تفسير: ج7/ 445.

تَبَدّى له جبريل ورسول اللّه ﷺ في الأبطح في صورته التي خلقه اللّه عليها، له ستمائة جناح قد سد عُظْم خلقه الأفق، فاقترب منه وأوحى إليه عن اللّه عز وجل ما أمره به، فعرف عند ذلك عظمة المَلَك الذي جاءه بالرسالة، وجلالة قَدْره، وعلوّ مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه)[1]. ويسوق ابن كثير نموذجًا آخر من الأحاديث الضعيفة، الشائعة والمتداولة في مجتمع المسلمين عن هيئة جبرائيل (فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار[2] في مسنده حيث قال: حدثنا سلمة بن شَبِيب، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبي عمران الجَوْني عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه ﷺ: بينا أنا قاعد إذ جاء جبريل، عليه السلام، فوَكَز بين كتفي، فقمت إلى شجرة فيها كَوَكْرَي الطير، فقعد في أحدهما وقعدت في الآخر، فَسَمَت ـ أي استطالت نحو السماء ـ وارتفعت حتى سَدّت الخافقين وأنا أقلب طرفي، ولو شئت أن أمس السماء لمسست، فالتفت إليَّ جبريل كأنه حلْس لاطٍ [3]، فعرفتُ فضل علْمه باللّه عليّ. وفُتِح لي بابٌ من أبواب السماء ورأيت النور الأعظم، وإذا دون الحجاب رفرفة الدر والياقوت. وأوحى إليَّ ما شاء اللّه أن يوحي. ثم قال البزار: لا يرويه إلّا الحارث بن عبيد، وكان رجلا مشهورًا من أهل البصرة. قلت: الحارث بن عُبَيد هذا هو أبو قدامة الإيادي، أخرج له مسلم في صحيحه إلّا أن ابن معين ضعّفه، وقال: ليس هو بشيء. وقال الإمام أحمد: مضطرب الحديث. وقال أبو حاتم الرازي: حديثه لا يحتج به). ويقدم ابن عجيبة[4] تحليلًا لغويًّا للآية، فيرى أن كلمة المدثر في آية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ أُدغمت فيها التاء في الدال، أي: المتلفّف في ثيابه من الدِّثار، وهو كلُّ ما كان من الثياب فوق

---

(1) ابن كثير، تفسير: ج 7/ 445..

(2) الحافظ الشهير أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزّار صاحب «المسند» المتوفّى سنة 292 هجرية.

(3) في الأصل عند ابن كثير، ولم يصححها المحقق. وبرأينا أن أصل(حلس لاط) أي ملتصقًا.

(4) ابن عجيبة، تفسير ابن عجيبة: ج6/ 448.

الشعار، والشعار: الثوب الذي يلي الجسد. قيل: هي أول سورة نزلت، والصحيح: أن أول ما نزل﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾[1] إلى قوله ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾. ثم فتر الوحي نحو سنتين[2]. وفي تفسير أطفيش[3] نجد نموذجًا ساطعًا لاختلاف تحديد معنى فتور الوحي ووقت وقوعه ومدته، فقد (قيل فتر الوحى اثني عشر يومًا، وقيل خمسة عشر، وقيل بضعة عشر، ولا يصح ما قيل إنه اشتد جزعه بفترته، فقالت له خديجة ودعك ربك وقلاك ربك). أما السهيلي[4] فينقل عن ابن إسحاق قوله: (ثُمّ فَتَرَ الْوَحْيُ عَنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ فَتْرَةً مِنْ ذَلِكَ حَتّى شَقّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَأَحْزَنَهُ فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ بِسُورَةِ الضّحَى).

يتبيّن من هذا الاستعراض السريع لآراء المفسرين، وبوضوح تام ما يلي: إن دحية الكلبي لم يكن له وجود ملموس أو رمزيّ في مسألة فتور الوحي، وأن النبي ﷺ لم يكن يعرفه في هذا الوقت كشخص حقيقي، وأن جبرائيل لم يتمثل في صورته، وإنما كان يأتيه في صورته السماوية من غير تجسيد. ولكن، بمقدار ما أثار فتور الوحي في أوساط الجماعة المسلمة الصغيرة، كما في أوساط مشركي قريش، نقاشًا مشحونًا بنوع من التشكيك والتساؤلات، فقد أثار كذلك سجالًا موازيًا، كان يتعلق بهيئة جبرائيل السماوية، والوقت الذي جرى فيه أول لقاء بينه وبين النبيّ ﷺ، وأكثر من ذلك، إن الجدل اتسع ليشمل سبب اختيار اللّه لجبرائيل - وليس ميكائيل - لإبلاغ الرسالة، وهو موضوع غاية في الدقة، نظرًا لوجود ثقافة قديمة، كانت منتشرة ومؤثرة في أوساط يهود الجزيرة العربية واليمن والطائف بشكل خاص، وتتمحور حول وجود تمايز في وظائف الملائكة، إذ كان جبرائيل بالنسبة لليهود، مثلًا رسول حرب، بينما كان ميكائيل رسول محبة؟ وفي هذا

---

(1) سورة العلق: الآية 1.

(2) لا سبيل أمامنا لحل إشكالية التناقض والتضارب في فترة انقطاع الوحي.

(3) تفسير أطفيش ج13/ 450.

(4) الروض الأنف: 420.

النطاق، تبدى الملاك جبرائيل في أعين مشركي قريش من المتعاطفين مع اليهود بغضًا للنبيّ ﷺ، عدوًّا لا يرتجى من تجليه وتجسّده، سوى الحرب والقتال والشّدة، وأن إظهاره في صورته الجميلة، الشيقة والسحرية بجناحين هائلين يسدان الأفق، وقد زينتهما أحجار الياقوت، لن يكون نافعًا لتهدئة مشاعر العداء المستحكمة، بفعل صور أخرى رسختها اليهودية من قبل، ورأت فيه عدوًّا لدودًا. وبهذا المعنى، فقد ظهرت في وقت مبكر من تلقي الوحي ثم انقطاعه، صورتان متنازعان لجبرائيل، إسلامية ويهودية، كان التناقض بينهما مستحكمًا إلى ما لانهاية.



جبرائيل في القرآن

برأي الطبري، أن اسم جبرائيل واسم ميكائيل من الجذرين (جبر) و(ميكا)[1] وأن (ءيل) ينصرف إلى (اسم اللّه الذي يسمى به بلسان العرب دون السرياني والعبراني. وذلك أن الإلّ بلسان العرب: اللّه) كما قال: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾[2]. فقال جماعة من أهل العلم: (الإل هو اللّه. ومنه قول أبي بكر الصديق ﷺ ـ لوفد بني حنيفة، حين سألهم عما كان مسيلمة يقول، فأخبروه ـ فقال لهم: ويحكم أين ذهب بكم؟ واللّه، إن هذا الكلام ما خرج من إل ولا بر. يعني (من إل): من اللّه.

لقد ورد اسم جبريل في القرآن ثلاث مرات فقط، واسم ميكائيل ـ ميكال ـ مرة واحدة.

1: في سورة البقرة ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[3].

2: وفي سورة البقرة كذلك ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[4].

3: وفي سورة التحريم ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[5].

---

(1) الطبري ج2/ 291.
(2) سورة التوبة: الآية 10.
(3) سورة البقرة: الآية 97.
(4) سورة البقرة: الآية 98.
(5) سورة التحريم: الآية 4.

إن لورود اسم جبرائيل - جبريل - في نصوص القرآن الثلاثة هذه، صلة عضوية بالنقاش الذي تفجر في يثرب، حين قاد كهنة وأحبار الطائفة اليهودية الصغيرة، معارضة قوية للإسلام الوليد. كانت المعارضة اليهودية، بطابعها القبلي، نوعًا من مجابهة رمزية بين الطائف ومكة، وقريش وثقيف، لكنها من جانب آخر، كانت تغتني بنمط من رمزيّة روحية بأنٍ واحد، وتتبدى كصراع بين الملاكين جبريل وميكائيل. وفي هذا السياق أدّى السجال المفتوح بكل صخبه الفلسفي - الديني المتقشف والبسيط، ولكن العميق في أفكاره الرئيسة - إلى تبلور معارضة عنيفة حيال أي ذكر لاسم جبرائيل. ولأن اليهودية العربية عرفته منذ وقت طويل، وكانت تحتفظ له بصورة مختلفة ومغايرة للصورة الإسلامية، فقد تفجر صراع حقيقي عبّرت عنه سلسلة مساجلات خاضها الكهنة اليهود، لعل من أبرزها، تلك التي دارت حول تحديد وظيفته، وسبب ما اعتبروه (تلاعب القرآن) بهذه الوظيفة؟ إذ ارتأى اليهود أن جبرائيل هو ملاك الحرب، وأنهم يمتنعون عن تأييد النبي ﷺ أو قبول دينه بسبب نزوله عليه، لأنهم لن يؤمنوا بدين يجعل من ملاك الحرب رسولًا إلى البشر، بينما كانوا يؤمنون بملاك السلام والرحمة ميكائيل. وفي قلب هذا النقاش لم يكن لدحية الكلبي أي حضور رمزي أو حقيقي؟ ولا توجد لدينا أي إشارات تفيد بتحول عداء اليهود لجبريل في أي وقت إلى عداء شخصي لدحية الكلبي، أي لتجسيده البشري، ربما باستثناء حادث الاعتداء عليه من قبل لصوص قبيلة جذم في الطريق من الشام إلى مكة؟ لكننا في المقابل، نجد في تحريض جبريل على قتال يهود بني قريظة، ومسارعة دحية إلى الطلب من المسلمين أن يواصلوا الحرب - من دون معرفة النبي ﷺ أو موافقته المسبقة - ما يؤكد أن ملاك الحرب، قرر بنفسه مواجهة كارهيه من اليهود؟ وقد يكون أمرًا مهمًّا التساؤل في هذا الصدد عن سرّ تلازم العداء ليهود بني قريظة في هذا الوقت، وانهيار الهدنة بين الطرفين المتنافسين (يهود الطائف ومسلمي مكة) وبين ظهور طرف ثالث قادم في هيئة رجل بشري من الشام؟ إن اختيار الشام وليس أي مكان آخر، يأتي منه ملاك الحرب جبرائيل لقتال يهود يثرب والطائف، له صلة عضوية بصعود

المسيحية ونفوذها وتأثيرها المباشرين في تعميق فكرة الإسلام عن جبرائيل. وإذا ما وضعت رسالة النبيّ ﷺ إلى هرقل - في بصرى الشام ثم إيلياء - في هذا الإطار، فسوف يبدو واضحًا أن الرسولية المسيحية - في فكرة الإسلام عن نفسه - إنما كانت تنتصر مع تراجع اليهودية التي تركت لوقت قصير تأثيراتها في النص القرآني. ويبدو إن هذه اللحظة كانت هي لحظة الانتقال من (النبيّ) كفكرة يهودية إلى (الرسول) كفكرة مسيحية، ولذا تسمّى - تلقّب - بالرسول وقطع مع الصورة اليهودية. إن تفكيك الرواية الخاصة بقتال يهود بني قريظة، قد يكشف عن جانب تاريخي هام من التلفيق الذي قام به المؤرخون المسلمون، حين زجوا باسم جبريل واسم دحية الكلبي، وزعموا أنهما الشخص نفسه الذي استبق النبي ﷺ، وطلب من المسلمين أن لا يلقوا السلاح وأن يتوجهوا لحرب بني قريظة. وكما نلاحظ من النصوص الآنفة، فلم يكن لدحية الكلبي أي حضور رمزي أو حقيقي في مسألة النزاع هذه، وأن الصراع حول جبرائيل كان يدور حول صورتين متناقضتين، صورة يهودية قديمة وأخرى مسيحية الأصل ثم إسلامية جديدة.

جبرائيل وميكائيل في التوراة والإنجيل

ورد اسما جبرائيل **גבריאל** وميكائيل **מיכאל** في أسفار ثانوية وغير معترف بها من أسفار التوراة، كتبت على الأرجح من كهنة متأخرين وعلى النحو التالي:

1: سفر دانيال (النص العبري **דניאל** 8: 16 / النص العربي 16:8)

ואשמע קול־אדם בין אולי; ויקרא ויאמר, גבריאל הבן להלז את־המראה

(وسمعت صوت إنسان بين الملأ فنادى قائلًا: يا جبرائيل بيّن لهذا الرجل الرؤيا).

2: سفر دانيال كذلك (النص العبري **דניאל** 12: 1 ـ النص العربي: 1 / 12)

ובעת ההיא יעמד מיכאל השר הגדול, העמד על־בני עמך, והיתה עת צרה, אשר

לא־נהיתה מהיות גוי, עד העת ההיא; ובעת ההיא ימלט עמך, כל־הנמצא כתוב בספר

(وكان بعد ذلك أن قام ميكائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك، حين ضاقت عليه ولم يكن أمة بعد. وإذ ذاك ينجو شعبك مما وجد مكتوبًا في السفر).

3: سفر (يهوديت) **יהודה 1** : 9

ומיכאל שר המלאכים בהתוכחו עם־השטן וירב אתו על־אדות גוית משה לא־מלאו

לבו לחרץ משפט גדופים כי אם־אמר יגער יהוה בך

وميكائيل رئيس الملائكة فلما خاصم إبليس محاجًّا عن جسد موسى لم يجسر أن يورد حكم افتراء بل قال ليلعنك الرب.

ما يمكن ملاحظته من هذه النصوص هو التالي:

ليس في هذه النصوص أدنى إشارة، أو تلميح مهما كان بسيطًا إلى وجود مثل هذا التناقض المزعوم، لكنها من منظور آخر، تكشف عن حقيقة أن اليهودية المتأخرة أضفت على ميكائيل صفة رئيس الملائكة التي اختصّ بها جبرائيل، وأن هذه الوظيفة لم تنصّ عليها الأسفار المعترف بها ولذلك، يجب النظر إلى صراع النبيّ ﷺ مع يهود الطائف على أنه كان صراعًا ضد كهنة اليهودية الذين اتهمهم القرآن بتحريف التوراة، ولم يكن بأي صورة من الصور موجهًا ضد اليهودية كدين سماوي، لأن الإسلام اعتبر نفسه حلقة أخيرة، جامعة ومكملة لسلسلة الأديان الكبرى، الإبراهيمية والنصرانية واليهودية، كما لا يوجد أي نص قرآني يندد باليهودية كدين أو يشكك في التوراة ككتاب سماوي، بينما جرى التأكيد على المكانة السامية لبني إسرائيل. هذا التمييز الهام للغاية والذي ثبّته النص القرآني، تضمّن التأكيد على أن التوراة (فيها هدى ونور). وأن الكهنة اليهود هم المسؤولون عن التفسيرات المضلّلة والمحرّفة لنصوصها، وذلك ما قصدته آية ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾[1] التي تعتبرها إشارة واضحة إلى الكهنة لا الدين اليهودي. ومن الهام للغاية أيضًا، ملاحظة أن الصراع ضد كهنة اليهود، كان في الأصل صراعًا داخل اليهودية نفسها، تجلى في أنصع أشكاله في محورين تاريخيين، أولهما، الصراع ضد المندائية التي جرى اضطهادها وتحطيمها، لأنها أفردت مكانة عظيمة لجبرائيل، وثانيهما، الصراع ضد النصرانية التي كرّست هذه المكانة وأبطلت الختان، واستبدلت فكرة (العُزيْر ابن اللّه) بفكرة (المسيح ابن اللّه). إن إعادة بناء الرواية التاريخية عن حملة النبيّ ﷺ ضد يهود بني قريظة، سوف تكشف عن حجم الظلم والتشويه الذي ألحق بالإسلام، عبر اتهامه بالعداء لليهودية كدين، كما تكشف عن سوء الفهم الفظيع الذي وقعت فيه الثقافة العربية الإسلامية. بيد أن إعادة بناء هذه الرواية، تتطلب إجرائيًا إعادة بناء المرويات الخاصة بدحية الكلبي الذي أمر ببدء الحملة ضد يهود الطائف.

(1) سورة المائدة: الآية 41.

صراع جبرائيل وميكائيل:
إله القوة ضد إله العقل

يرى الطبري[1] في تفسيره لآية ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[2] أنها (نزلت جوابًا **لليهود من بني إسرائيل**[3]، إذ زعموا أن **جبريل عدو لهم**، وأن ميكائيل وليّ لهم. ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله ـ نشب الصراع ـ. فقال بعضهم: إنما كان سبب ذلك، من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول اللّه ﷺ في أمر نبوته). وينقل الطبري رواية ابن عباس عن مجريات هذا النقاش الصاخب. قال: حضرت عصابة[4] من **اليهود إلى رسول** اللّه فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خِلالٍ ـ أي فضائل أو مسائل ـ نسألك عنهن، لا يعلمهن إلّا نبيّ. فقال رسول اللّه ﷺ: سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة اللّه، وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئًا فعرفتموه، لتتابعُني على الإسلام؟ فقالوا: ذلك لك. فقال رسول اللّه: سلوني عما شئتم. فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا، **أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه** من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف **ماء المرأة وماء**

---

(1) الطبري، تفسير: ج2/ 377.

(2) سورة البقرة: الآية 97.

(3) يثير تصريح الطبري بهذه الحقيقة الكثير من الأسئلة التي سبق وأثرناها عن تمييز العرب القدماء، بين اليهود وبني إسرائيل، لأن الذين عارضوا النبي ﷺ من يهود يثرب، كانوا من بقايا بني إسرائيل، وأن اليهود في الجزيرة العربية بعامة لم يعارضوه، ولدينا أسماء كبار الأحبار ممن أسلموا، مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وسواهما.

(4) أي جماعة ـ من العصبة ـ بمعنى الجماعة التي كان لها رأي موحد.

الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبي الأميّ في النوم ومن وليه من الملائكة؟ فقال رسول اللَّه ﷺ عليكم عهد اللَّه لئن أنا أنبأتكم لتتابعني؟ فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق. فقال: نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضًا شديدًا فطال سقمه منه، فنذر نذرًا لئن عافاه اللَّه من سقمه ليحرمنّ أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل؟[1] فقالوا: اللَّهم نعم. فقال رسول اللَّه: أشهد اللَّه عليكم وأنشدكم باللَّه الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن اللَّه، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكرًا بإذن اللَّه، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن اللَّه؟ قالوا: اللَّهم نعم. قال: اللَّهم اشهد. قال: وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبيّ الأميّ تنام عيناه ولا ينام قلبه؟ قالوا: اللَّهم نعم. قال: اللَّهم اشهد. قالوا: أنت الآن تحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نتابعك أو نفارقك؟ قال: فإن وليّي جبريل، ولم يبعث اللَّه نبيًا قط إلا وهو وليه. قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة، تابعناك وصدقناك. قال: فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا. فأنزل اللَّه عز وجل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فعندها باءوا بغضب على غضب.

في هذه المناظرة المحرجة كرر كهنة الطائف[2]: على أسماع النبيّ ﷺ، أن لهم - في اليهودية - عدوًّا من الملائكة وسلمًا[3] من الملائكة، وأنهم يرون الإسلام وقد اقترن باسم ملاك عدو. وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة. ويتضح

---

(1) أخطأ الطبري خطأ فادحًا في تعليقه على هذا الجزء من المروية، حين افترض أن يعقوب حرّم على نفسه لبن الابل، والصحيح كما في سفر التكوين أنه حرّم على نفسه لحوم الإبل كما جاء في كلام النبي ﷺ.

(2) الطبري، تفسير ج2/ 377.

(3) السلم: المسالم.

بشكل جليّ من حديث لعمر بن الخطاب ﷺ حول هذه الواقعة، أنه لم يكن حاضرًا، ولكنه عرف من أحبار وكهنة يهود الطائف، تفاصيل دقيقة عما حدث، وهي تفاصيل تدعم رواية ابن عباس. كان عمر كثير التردد على الطائف، واحتفظ بعلاقات طيبة مع يهود بني قريظة بشكل خاص، كما جمعته صداقة حميمية مع أبرز قادتهم، وكانوا يكنّون له احترامًا كبيرًا. لقد بادر عمر بعد يوم واحد فقط من هذا النقاش إلى سؤال الكهنة عن سبب فشل اللقاء التصالحي مع النبيّ ﷺ. وحين استمع منهم لتفاصيل الخلاف حول جبرائيل (قال: ومن عدوكم؟ ومن سلمكم؟ قالوا: عدونا جبريل، وسلمنا ميكائيل)[1]. فقال لهم متسائلًا: (وفيم عاديتم جبريل؟ وفيم سالمتم ميكائيل؟ قالوا: إن جبريل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا، وإن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفيف ونحو هذا)[2]. وفي القرآن ثمة ما يدعم هذه الصورة القاسية التي تصورّتها القبائل اليهودية العربية لجبرائيل، فهو ملاك القوة ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۞ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[3]. كانت تفاصيل لقاء النبي ﷺ مع يهود الطائف، تتضمن الكثير من الأفكار التي تبادلها معهم حول تصوّر الإسلام للملاك جبرائيل، وهو أمر بدا، بالنسبة لعمر بن الخطاب، لا يحتمل هذا القدر من الخصومة والبغضاء، ولذا بادر إلى سؤالهم صراحة (قلت: وما منزلتهما من ربهما؟ قالوا: أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره. قلت: فواللّه الذي لا إله إلّا هو، إنهما والذي بينهما لعدو لمن عاداهما، وسلم لمن سالمهما، ما ينبغي لجبريل أن يسالم عدو ميكائيل، ولا لميكائيل أن يسالم عدو جبريل؟ قال: ثم قمت فاتبعت النبيّ ﷺ، فلحقته فقال لي: يا بن الخطاب، ألا أقرئك آيات نزلن؟ فقرأ عليّ ـ ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ..﴾ الآية)[4].

---

(1) هذا يعني أن صورة ملاك العقل(إله العقل) كانت راسخة الجذور في اليهودية.

(2) الطبري، كذلك.

(3) سورة التكوير: الآيات 19 ـ22.

(4) ابن كثير 1: 241 ـ 243، عن الشعبي قال، قال عمر: كنت رجلًا أغشى اليهود في يوم مدراسهم. السيوطي في الدر المنثور 1: 90 والشعبي لم يدرك عمر.

لكن هذه الرواية في بعض المؤلفات الإسلامية تروى مباشرة عن عمر، وأنه هو من دخل في السجال مع يهود الطائف وليس النبيّ ﷺ. وفي هذا الصدد تقول رواية لابن كثير، نقلًا عن بشر بن معاذ عن يزيد بن زريع عن قتادة قال: (انطلق ـ عمر بن الخطاب ـ ذات يوم إلى اليهود، فلما أبصروه رحبوا به. فقال لهم عمر: أما واللّه ما جئت لحبكم ولا للرغبة فيكم، ولكن جئت لأسمع منكم. فسألهم وسألوه، فقالوا: من صاحب صاحبكم؟ فقال لهم: جبريل. فقالوا: ذاك عدوُّنا من أهل السماء، يطلع محمدًا على سرنا، وإذا جاء جاء بالحرب والسنة، ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل،وكان إذا جاء جاء بالخصب وبالسلم، فقال لهم عمر: أفتعرفون جبريل وتنكرون محمدًا؟ ففارقهم عمر عند ذلك، وتوجّه نحو رسول اللّه ﷺ ليحدثه حديثهم، فوجده قد أنزل عليه هذه الآية ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾. والآن:سواء أكانت المناظرة جرت بين النبي ﷺ ويهود الطائف،أم أن صداقة عمر مع بني قريظة هي التي سمحت بمثل هذا النقاش؛ فإن مضمونها من الناحية التاريخية يظل في النهاية واحدًا، فهو يؤكد وجود تناقض صارخ بين صورتي جبرائيل في الديانتين، اليهودية والإسلام، ويؤكد وجود تناقض آخر موازٍ، بين جبرائيل وبين ميكائيل، وأن من بين أسباب تفجر الصراع، ثم الحملة الحربية التي قادها النبي ﷺ بنفسه ضد يهود بني قريظة، يمكن إضافة هذا السبب الجوهري الذي أشارت إليه الآية، أي العداء لجبرائيل. لكن، من الهام للغاية التوقف هنا عند مسألة غاية في الحساسيّة بالنسبة لتطور اليهودية. إن اسم مخ ـ ءيل (ملك ـ ءيل) له علاقة لغوية دلالية ودينية قديمة، فقد عبد يهود اليمن قبل سيطرتهم على الطائف (حين أصبحت الطائف ضمن حدود اليمن القديم) إلهًا وطنيًّا (قوميًّا) كبيرًا هو الإله المقه (المخّه) ومنه جاء اسم ساحل المخا اليمني. والقبيلة التي بنت معابده الكثيرة هي قبيلة سُمعي التي ذكرتها نقوش المسند (سمع ـ ءيل). وهذا ما يعيدنا إلى مرويات إسماعيل وكيف رفع قواعد البيت الحرام أي الكعبة. ولعل انتقال هذه القبيلة أو هجرتها إلى الجزيرة العربية، اقترن ببناء معبد لإلهها المقه الذي أصبح اسمه (الإله المكة). أي بيت إله العقل. وهذا الإله هو الذي هبط من السماء في

صورة ملاك يدعى ميخ ـ ءيل (ميخائيل ـ ميكائيل) لأنه كان إله الخصب والدعة، وهو من أمر ببناء مكة القرية ثم معبدها الكعبة.ولذلك جاء جبرائيل (جبر ـ ءيل) إله القوة ليطهّر هذا المعبد من الوثنية التي انتشرت فيه ومن حوله بعد انهيار الديانة الإبراهيمية.



جبرائيل أم دحية؟
من أمر بالحملة ضد بني قريظة؟

حدثت غزوة بني قريظة[1] بُعيد غزوة الخندق في السنة الخامسة من الهجرة في آخر شهر ذي القعدة. وفي رواية ابن إسحاق نقرأ النص التالي[2]: ولما أصبح رسول اللَّه ﷺ من الليلة التي ارتحلت فيها الأحزاب، انصرف عن الخندق راجعًا إلى المدينة هو والمسلمون، ووضعوا السلاح، فلما كانت الظهر أتى جبريل رسول اللَّه ﷺ كما حدثني الزهري، معتجرًا بعمامة من إستبرقٍ على بغلة عليها قطيفة من ديباج[3]، قال: أوَقد وضعت السلاح يا رسول اللَّه؟ قال: نعم، قال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلَّا من طلب القوم، إن اللَّه يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم، فأمر رسول اللَّه ﷺ مؤذنًا فأذن في الناس: من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلينَّ العصر إلَّا ببني قريظة. ومر رسول اللَّه ﷺ بنفر من أصحابه بالصورين قبل أن يصل إلى بني قريظة فقال: هل مر بكم أحد؟ قالوا: يا رسول اللَّه قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلةٍ بيضاء عليها رحالة عليها قطيفة ديباجٍ، فقال رسول اللَّه ﷺ: ذلك جبريل بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم.

---

(1) الواقدي: 371، ابن هشام 3: 244، البخاري 5: 111، والطبري 3: 52، البلاذري: **أنساب الأشراف** 1: 167ن، ابن سيد الناس 2: 68، ابن كثير 4: 116، **زاد المعاد** 2: 149، 187، **تاريخ الخميس** 1: 492، ابن سعد 2 / 1: 53.

(2) ابن إسحاق، **السيرة**، 2: 234.

(3) الثِّيابُ المُتَّخذة من الإبْرِيسَم أي الحرير الرقيق.

كما أن الطبري،وابن كثير، والواقدي، والسهيلي[1]،والبيهقي[2] وسواهم، رووا قصة الغزوة على النحو ذاته تقريبًا:

1: **الطبري**[3]: عن ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق، قال: لما انصرف رسول اللَّه ﷺ عن الخندق راجعًا إلى المدينة والمسلمون، ووضعوا السلاح، فلمّا كانت الظهر أتى جبريل رسول ﷺ معتجرًا بعمامة من إستبرق على بغلة عليها رحالة،عليها قطيفة من ديباج؛ فقال: أقد وضعت السلاح يا رسول اللَّه؟ قال: نعم. قال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح بعد، ما رجعت الآن إلّا من طلب القوم، إن اللَّه يأمرك يا محمد بالسير إلى بني قريظة، وأنا عامد إلى بني قريظة، فأمر رسول اللَّه ﷺ مناديًا، فأذّن في الناس: إن من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلينّ العصر إلّا في بني قريظة.

2: **ابن كثير**[4]: ورجع رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة فجاءه جبريل عليه السلام، وإن على ثناياه لنقع الغبار، فقال: أوَقد وضعت السلاح؟ لا واللَّه ما وضعت الملائكة بعد السلاح، اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم. فلبس رسول اللَّه ﷺ لأمته، وأذّن في الناس بالرحيل أن يخرجوا، فمر على بني غَنْم وهم جيران المسجد حوله، فقال: ومَنْ مر بكم؟ قالوا: مرَّ بنا دحية الكلبي ـ وكان دحية الكلبي تشبه لحيته، وسنه ووجهه جبريل، عليه الصلاة والسلام.

3: **السهيلي**[5]: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِنَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ بِالصَّوْرَيْنِ[6]، قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَقَالَ هَلْ مَرَّ بِكُمْ أَحَدٌ؟ قَالُوا:

---

(1) الطبري: ج20/ 240، ابن كثير ج6/ 400، السهيلي ص 437.

(2) البيهقي: ج8/ 120.

(3) الطبري، كذلك: ج20/ 240.

(4) تفسير ابن كثير، ج6/ 400.

(5) **الروض الأنف** 425 وما بعدها.

(6) الصوران: بفتح أوله، وإسكان ثانيه، بعده راء مهملة، تثنية صور، وهو الجماعة من النخل. وهو موضع بين المدينة وبني قريظة، وهناك مر رسول اللَّه ﷺ بنفر من أصحابه، قبل أن يصل إلى بني قريظة، فقال: هل مر بكم أحد؟ قالوا مر بنا يا رسول اللَّه، دحية =

يَا رَسُولَ اللّهِ قَدْ مَرّ بِنَا دِحْيَةُ بْنُ خَلِيفَةَ الْكَلْبِيّ عَلَى بَغْلَةٍ بَيْضَاءَ، عَلَيْهَا رِحَالَةٌ عَلَيْهَا قَطِيفَةُ دِيبَاجٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ ذَلِكَ جِبْرِيلُ بُعِثَ إلَى بَنِي قُرَيْظَةَ.

4: **البيهقي**[1]: عن حميد بن هلال عن أنس قال: كأني أنظر إلى الغبار ساطعًا في موكب جبريل حين سار إلى بني قريظة في سكة بني غنم. رواه البخاري في الصحيح، وعن موسى بن إسماعيل عن جرير بن حازم، أن رسول اللّه ﷺ خرج في أثر، فمرَّ على مجلس بني غنم فسألهم: مر عليكم فارس آنفًا؟ قالوا: مر علينا دحية الكلبي على فرس أبيض، تحته نمط أو قطيفة من ديباج عليه اللأمة، فذكروا أن رسول اللّه ﷺ قال: ذاك جبريل وكان يشبه دحية الكلبي بجبريل عليه السلام.

يتبيّن من كل هذه الروايات وبوضوح تام، أن جبرائيل جاء إلى النبي ﷺ وأمره أن يقاتل بني قريظة، وفي الآن ذاته كان دحية الكلبي يمرُّ على مسلمين من بني غنم - وهم يقيمون قرب الطائف - ويأمرهم بالاستعداد للقتال. والسؤال المحيّر والذي يتوجب طرحه في سياق تفكيك هذه المرويات هو التالي: إذا كان دحية الكلبي تاجرًا من تجار الشام، فما الذي يدفعه للذهاب إلى جماعات مسلمة تعيش قرب الطائف، ويطلب منهم أن يتأهبوا لقتال يهود بني قريظة ومن دون أن يكون لديه أمر صريح من النبي ﷺ؟ إننا لا نعرف رواية واحدة، تشير إلى أنه كان طرفًا أو مشاركًا في أي معركة من المعارك التي خاضها المسلمون، باستثناء هذه المعركة، وبإجماع الرواة والفقهاء والمفسرين، فإنه لم يشهد الخندق أو سواها؟[2] وبالطبع، يمكن من

= ابن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء، عليها رحالة، عليها قطيفة ديباج. فقال رسول اللّه ﷺ: ذلك جبريل، بعث إلى بني قريظة يزلزل حصونهم. وقال عمر بن أبي ربيعة:

قد حلفت ليلة الصورين جاهدة   وما على الحر إلّا الصبر مجتهدا

(1) البيهقي ج8/ 120.

(2) ذكر ابن قتيبة في المعارف فقال: (أسلم قديمًا، ولم يشهد بدرًا). كما يتضح من سائر هذه الروايات أن دحية تصرف كما لو أنه جبرائيل. إن المحمول الرمزي لهذا السلوك، يشير بوضوح إلى أن دحية الكلبي في هذه المعركة، لم يتصرف كصحابي وحسب؛ وإنما بوصفه تجسيدًا لجبرائيل وقد جاء بنفسه لمواجهة أعدائه.

المنظور الرمزي، رؤية هذا التنافر والتجاذب ثم أشكال الصراع المتنوعة بين الملاك والبشر، فقد اكتشف الملاك في لحظة تجسّد كإنسان، أنه يعيش مفارقة ساخرة، فهو صحابي محبوب، ولكنه في الآن ذاته ملاك مكروه من جانب جماعة معادية، وكان عليه أن يتصرّف ـ لمواجهة هذه المفارقة ـ كإنسان وملاك؛ ولذا تجلًى للنبيّ ﷺ كملاك وأمره بالحرب، وتجلًى للمسلمين كرجل وأمرهم بالاستعداد لها؟ وكانت تلك، مفارقة أخرى في التراجيديا الدينية، حين وجد الملاك نفسه وقد خسر قوته الخارقة (امتيازه الوحيد) أنه عاجز عن مواجهة أعدائه اليهود، وكان لا بد له أن يتصرف كرجل بشريّ، ويذهب بنفسه للقبائل العربية المسلمة، ويطلب منهم أن يستعدّوا للحرب، بوصفه جبرائيل الذي حدثهم عنه النبيّ ﷺ. إن ظهور جبرائيل في هذه المعركة، يكشف عن نوع التلفيق الذي حدث في رواية الصراع مع يهود الجزيرة العربية، لأنه ظهر بعد فشل الحوار بين محمد ويهود بني قريظة حول ملاك الرّب. لقد كانوا يريدون حمله على العودة للإيمان بإله العقل القديم الذي عبدوه (مخ ـ ءيل) قبل شرعة موسى، وأن يتخلص من الإله المسيحي جبرائيل الذي تجسّد كملاك، أي ككائن طائر يرمز للقوة. كانت المسيحية الرسولية في هذا الوقت قد ترسّخت في الشام ونجران، وكانت تحافظ على تقاليد تقديس الملاك جوبيتر الروماني (جبرائيل روما).

حدثت المعركة ضد بني قريظة بعد خرق المعاهدة التي أبرمها الكهنة والأحبار الكبار مع النبيّ ﷺ، وجرى بموجبها التفاهم على أن الطرفين يلتزمان بالتهدئة. ويمكن في سياق فهم هذه المفارقة المأسوية في شخصية الملاك السماوي عند تجسّده البشري، رسم خارطة أولية لقبائل اليهود في الجزيرة العربية في هذا الوقت، بهدف تبيان طبيعة التناقضات التي قادت إلى الصدام مع الإسلام[1]، وكيف أن هذا الصدام قاد الملاك للدفاع بنفسه عن صورته السماوية.

---

(1) الروض الأنف: 370.

يروي الطبري مروية أسطورية[1] عن سبب افتراق قبيلتين يهوديتين، ثم دخولهما في صراع مرير وطويل في ما بينهما. يقول: كانت قريظة والنضير أخوين، وكان الكتاب بأيديهم. وكانت الأوس والخزرج أخوين فافترقا، وافترقت قريظة والنضير، فكانت النضير مع الخزرج، وكانت قريظة مع الأوس، فاقتتلوا. وكان بعضهم يقتل بعضًا، فقال الله جل ثناؤه ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾[2]. وكان هناك فضلًا عن هذه الجماعات البارزة، بنو المصطلق وجماعات يهودية صغيرة أو أقل شأنًا، شاركت في هذا التجاذب الديني الكبير، مثل يهُودِ بَنِي زُرَيْقٍ وبَنِي حَارِثَةَ. وَجُمْلَةُ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِالْمَدِينَةِ وَخَيْبَرَ إنّمَا هُمْ [بَنُو] قُرَيْظَةَ [وَبَنُو] النّضِيرِ وَبَنُو قَيْنُقَاعٍ، غَيْرَ أَنّ فِي الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ مَنْ تَهَوّدَ (وَكَانَ مِنْ نِسَائِهِمْ مَنْ تُنْذِرُ إذَا وَلَدَتْ إنْ عَاشَ وَلَدُهَا أَنْ تُهَوّدَهُ، لِأَنّ الْيَهُودَ عِنْدَهُمْ كَانُوا أَهْلَ عِلْمٍ وَكِتَابٍ. وَفِي هَؤُلَاءِ الْأَبْنَاءِ الّذِينَ تَهَوّدُوا نَزَلَتْ - ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾[3] - حِينَ أَرَادَ آبَاؤُهُمْ إكْرَاهَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ فِي أَحَدِ الْأَقْوَالِ)[4]. وكان من أبرز زعماء بني قريظة، الزّبَيْرُ بْنُ بَاطَا بْنِ وَهْبٍ، وَعَزّالُ بْنُ شَمْوِيلَ، وَكَعْبُ بْنُ أَسَدٍ وَهُوَ صَاحِبُ عَقْدِهِم - زعيمهم - الّذِي نقضَ المعاهدة مع النبي ﷺ في ما يعرف بعَامِ الْأَحْزَابِ، كما كان هناك شَمْوِيلُ[5] بْنُ زَيْدٍ، وَجَبَلُ بْنُ عَمْرِو ابْنِ سُكَيْنَةَ، وَالنّحّامُ بْنُ زَيْدٍ، وَقَرْدَمُ بْنُ كَعْبٍ، وَوَهْبُ بْنُ زَيْدٍ، وَنَافِعُ بْنُ أَبِي نَافِعٍ، وَأَبُو نَافِعٍ وَعَدِيّ بْنُ زَيْدٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ، وَكَرْدَمُ بْنُ زَيْدٍ وَأُسَامَةُ ابْنُ حَبِيبٍ، وَرَافِعُ بْنُ رُمَيْلَةَ وَجَبَلُ بْنُ أَبِي قُشَيْرٍ، وَوَهْبُ بْنُ يَهُوذَا. وحين جرى اللقاء الأول بين النبيّ ﷺ وبني قريظة ودارت المناظرة المحرجة حول جبرائيل، كانت هناك

(1) الطبري، المصدر نفسه ج2/ 307.
(2) سورة البقرة: الآية 85.
(3) سورة البقرة: الآية 256.
(4) **الروض الأنف**، المصدر نفسه.
(5) قارن مع اسم صموئيل في التوراة ومع اسم السمؤال العربي.

مسألة أخرى شغلت أوساط اليهود، واضطربت لها الطائف باسرها، فقد وقعت حادثة زنا مفضوحة، اتهم فيها أحد مشايخهم من المحصنين، وكان على الكهنة أن يأمروا برجم المرأة والرجل حتى الموت، لكنهم ولاعتبارات أسرية وقبلية تحرّجوا من تطبيق نص الشريعة، فقد كان العمل بنص الرجم معطلًا منذ وقت طويل. ويبدو أن طابع السجال مع النبيّ ﷺ والرغبة في التعرّف على الدين ـ وربما استخدام أحكامه للمساعدة في إيجاد مخرج من أزمة الزنا ـ كانت من العوامل البارزة التي دفعت بالنقاش في هذا الاتجاه، وكان أبرز رجالاتهم وعلمائهم ابْن صُورِيَا، وأبو يَاسِر بْنُ أَخْطَبَ وَوَهْبُ بْنُ يَهُوذَا، يتأهبون لسجال، بدا أنه مصمّم للتعرّف على دين محمد عن قرب، وبعيدًا عن ضغوط حلفائهم من قريش، وربما الاستعانة به لحل المعضلة من منظور ديني جديد. فَقَالُوا لِعَبْدِ اللّهِ بْنِ صُورِيَا وهم يستمعون إلى النبي ﷺ ويوقنون من معرفته العميقة بأحكام التوراة: هَذَا مِنْ أَعْلَم مَنْ بَقِيَ بِالتَّوْرَاةِ ـ، فَخَلَا بِهِ رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَكَانَ غُلَامًا شَابًّا مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا، فَأَلَظّ بِهِ رَسُولُ اللّهِ الْمَسْأَلَةَ ـ أي أفحمه ونقض التبريرات التي ساقها ـ. فقال له النبيّ ﷺ: (أَنْشُدُك اللّهَ وَأُذَكّرُك بِأَيّامِهِ عِنْدَ بَنِي إسْرَائِيلَ[1]، هَلْ تَعْلَمُ أَنّ اللّهَ حَكَمَ فِيمَنْ زَنَى[2] بَعْدَ إحْصَانِهِ بِالرّجْمِ فِي التّوْرَاةِ؟ قَالَ اللّهُمّ نَعَم، أَمَا وَاللّهِ يَا أَبَا الْقَاسِمِ إنّهُمْ لَيَعْرِفُونَ أَنّك لَنَبِيّ مُرْسَلٌ وَلَكِنّهُمْ يَحْسُدُونَك. قَالَ فَخَرَجَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ. فَأَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا عِنْدَ بَابِ مَسْجِدِهِ فِي بَنِي غَنْم بْنِ مَالِكِ بْنِ النّجّارِ)[3]. قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَحَدّثَنِي صَالِحُ بْنُ كَيْسَانَ عَنْ نَافِعٍ مَوْلَى عَبْدِ اللّهِ بْنِ عُمَرَ: (لَمّا حَكّمُوا رَسُولَ اللّهِ ﷺ دَعَاهُمْ بِالتّوْرَاةِ وَجَلَسَ حَبْرٌ مِنْهُمْ يَتْلُوهَا، وَقَدْ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرّجْم. قَالَ فَضَرَبَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ سَلَام يَدَ الْحَبْرِ ثُمّ قَالَ: هَذِهِ يَا نَبِيّ اللّهِ آيَةُ الرّجْم، يَأْبَى أَنْ يَتْلُوَهَا عَلَيْك، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَيْحَكُمْ يَا مَعْشَرَ يَهُودَ مَا دَعَاكُمْ إلَى تَرْكِ حُكْمِ اللّهِ وَهُوَ

(1) قارن تعبير النبي ﷺ هذا مع اسم السفر(سفر الأيام) في التوراة.

(2) في الزنى والزنا لغتان بحسب لهجات العرب.

(3) الروض الأنف: 425.

بِأَيْدِيكُمْ؟ فَقَالُوا: أَمَا وَاَللّهِ إنّهُ قَدْ كَانَ فِينَا يُعْمَلُ بِهِ حَتّى زَنَى رَجُلٌ مِنّا بَعْدَ إحْصَانِهِ مِنْ بُيُوتِ الْمُلُوكِ وَأَهْلِ الشّرَفِ، فَمَنَعَهُ الْمَلِكُ مِنَ الرّجْمِ، ثُمّ زَنَى رَجُلٌ بَعْدَهُ فَأَرَادَ أَنْ يَرْجُمَهُ فَقَالُوا: لَا وَاَللّهِ حَتّى تَرْجُمَ فُلَانًا، فَلَمّا قَالُوا لَهُ ذَلِكَ، اجْتَمَعُوا وَأَمَاتُوا ذِكْرَ الرّجْمِ وَالْعَمَلَ بِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: فَأَنَا أَوّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَ اللّهِ وَكِتَابَهُ وَعَمِلَ بِهِ، ثُمّ أَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا عِنْدَ بَابِ مَسْجِدِهِ. قَالَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ عُمَرَ: فَكُنْت فِيمَنْ رَجَمَهُمَا)[1]. تؤكد هذه الواقعة، أن النبيّ ﷺ في هذا الوقت سعى للتقرّب من يهود بني قريظة وتطبيق أحكام التوراة، وأن انهيار هذه العلاقة بعد السجال حول جبرائيل، أدّى إلى حذف آية الرجم التي ينكر الفقهاء وجودها، وتمّ استبدالها بآية الجلد. إن آيات الإنجيل التي تتحدث عن رجم مريم وقول المسيح(من كان منكم دون خطيئة فليرجمها بحجر) هي لحظة القطع التاريخي الذي قامت به المسيحية مع اليهودية.وفي هذا الإطار التاريخي فقط، نزلت آية ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾[2].

لقد بدا للنبي ﷺ أن كهنة اليهود بسلوكهم المرائي هذا، كانوا يتلاعبون بالشرعة الدينية، ويقومون بتحريف نصوصها.ولذلك، لا يوجد في كل التراث الإسلامي أي دليل آخر على معنى الآية وظروف وأسباب النزول، وأن مقاصدها تذهب حصرًا للتدليل على حدث بعينه وقع بحضور النبي ﷺ. لقد شاهد بنفسه، كيف أن الرجل الزاني كان يتقي الحجارة بجسده، ليحمي المرأة (فَلَمّا وَجَدَ الْيَهُودِيّ مَسّ الْحِجَارَةِ قَامَ إلَى صَاحِبَتِهِ فَجَنَأَ عَلَيْهَا، يَقِيهَا مَسّ الْحِجَارَةِ حَتّى قُتِلَا)[3].

في ما بعد سوف يثور جدال موازٍ بين المسلمين حول آية الرجم في القرآن، بعد أن وقع حادث زنا في صفوفهم وحكم النبي ﷺ بالرجم على

(1) الروض الأنف: 425.

(2) ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ المائدة، 43.

(3) الروض الأنف، كذلك.

شُرَاحَةَ ببِنْتِ مَالِكٍ الْهَمْدَانِيّةِ، حين حفر لها لتدفن، وصلى عليها، لأنها كانت وهي تُرجم تطلب التوبة فقبل توبتها. ويتضح من كل هذه المرويات، أن القرآن قصد من آية (يحرفون الكلم) حصرًا، الإشارة إلى سلوك يهود الطائف، وذلك في سياق صراع النبيّ ﷺ معهم حول شخصية جبرائيل، وأن الغزو وقع على خلفية سلسلة من التجاذبات مع الكهنة، وأن القرآن لم يقصد في آياته الكريمة، التنديد باليهودية كدين؛ بل التنديد بالكهنة الذين كانوا يعطلون تطبيق الشرعة الدينية وأحكام الكتاب المقدس.

الفصل الرابع

جبرائيل واليهود

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾

[الأحزاب، الآية: 9]

1: لماذا نعت النبي ﷺ اليهود بالخنازير؟

من أجل تفسير هذه الآية الكريمة تفسيرًا دقيقًا، يلجأ الطبري[1] إلى شرح السبب الذي دعا النبيّ ﷺ، لنعت اليهود (بالقردة والخنازير). ويقدم من خلال ذلك، الدلائل على أنها نزلت في معركة الخندق، حين اصطدم بتحالف قبائل وثنية ويهودية، رأت أن مواجهة ناجحة للدين الجديد في الجزيرة العربية، تتطلب مثل هذا التحالف، ومن دونه قد يستفحل خطره. وفي هذه المعركة اتضح للنبيّ ﷺ أن القبائل العربية اليهودية قد تنصلت تمامًا من كل المعاهدات والعهود التي أبرمتها معه، وتضمنّت هدنة طويلة. بيد أن العبارة الجارحة التي استخدمها النبي ﷺ ضد اليهود، وفهمت خطأ ـ في المؤلفات الدينية والتاريخية ـ على أنها قصدت اليهود بإطلاق، كانت ذات صلة فعلية بالمعركة التي وقت ضد بني قريظة، مباشرة بعد معركة الخندق، كما أن لها صلة بهذه الآية. ولذلك، ومن أجل فهم عميق لمضمون العبارة ومقاصدها، يتوجب العودة

(1) الطبري ج20/ 217.

إلى الآية الكريمة وظروف وأسباب نزولها، وبالتلازم مع العودة إلى أجواء المعركة، إذ إن النبي ﷺ لم يستخدم هذه العبارة إلَّا في اللحظات القليلة السابقة لوقوعها، حين حدثت ملاسنة خشنة، بين اليهود المتحصنين في حصونهم، وبين علي بن أبي طالب، وسمع علي خلالها ـ كما أخبر النبي ﷺ ـ شتائم مقذعة بحقه. لقد فُهمت هذه العبارة في الخطب والمؤلفات والمجادلات الدينية، خطأ وبصورة شديدة التعسف على أنها موجهة للدين اليهودي ولليهود كافة، وأنها تصلح في كل زمان ومكان، وزعم خلالها المتقوّلون ودون وجه حق، أن النبيّ ﷺ قصد بها اليهود بإطلاق. وهذا غير صحيح وباطل كليًّا. وفي الحق، فإن العبارة قيلت في مناسبة محدّدة، هي معركة بني قريظة، وهي لا تشير إلى اليهود بعامة، وإنما إلى يهود بعينهم شتموه فردّ على شتيمتهم. ويرى الطبري في تفسيره، نقلًا عن ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق عن يزيد بن رومان، أن الجنود الذين أشارت إليهم الآية، هم قريش وغطفان وبنو قريظة، وهم ـ الجنود الذين أرسل اللّه عليهم الملائكة مع الريح فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم ـ. وقوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾[1] ينصرف إلى أن اللّه ـ يعلم ـ بأعمال بني قريظة، فهم مَنْ نقض المعاهدة وأشعل نيران الحرب يومئذ (ولذلك صبّر المسلمين ـ على ما كانوا فيه من الجهد والشدّة، وثباتهم لعدوّهم، وكان ـ بصيرًا لا يخفى عليه من ذلك شيء). وما تقوله سائر تفاسير الآية[2]

---

(1) سورة الفتح، الآية 24.

(2) **تفسير الطبري** (في تأويل قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ * هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا * وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾ إذ جاءتكم جنود الأحزاب من فوقكم، ومن أسفل منكم. وقيل: إن الذين أتوهم من أسفل منهم، أبو سفيان في قريش ومن معه. وعن مجاهد(إِذْ جاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ) قال عيينة بن بدر أي جاءوكم في أهل نجد (ومن أسفل منكم) قال أبو سفيان، قال: (وواجهتهم قريظة)، كذلك: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان، **تفسير البحر المحيط**: ج9/ 145 وأبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [700 ـ774 هـ]: **تفسير القرآن العظيم**، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ ـ 1999 م: ج1/ 19.

ومعها سائر المرويات الخاصة بما يعرف بـ(غزوة يهود بني قريظة) أن النبيّ ﷺ اصطدم بيهود يثرب، بعد نقض المعاهدة التي أبرمها معهم، وإثر دخولهم في تحالف قبلي مع وثني (ومشركي) قريش لزعزعة أسس الإسلام الوليد، وأن معركة الخندق (أو معركة الأحزاب) كانت من بين أقسى المعارك، حيث حشد هذا التحالف ما يزيد عن عشرة آلاف مقاتل في وجه النبيّ ﷺ وأنصاره. ولفهم عميق لهذا الحدث التاريخي، خالٍ من الصور النمطية الإسلامية أو غير الإسلامية، يتعيّن رسم إطار صحيح لظروف الصدام مع القبائل اليهودية العربية، والدور الذي لعبه الخلاف حول شخصية جبرائيل في نشوب توتر ثقافي ـ روحي عميق. لقد كانت يثرب موطنًا تاريخيًّا لثلاث قبائل كبيرة من العرب اليهود، هي بنو قَيْنُقَاع ـ وكانوا حلفاء الخزرج ويقيمون في مركز المدينة ـ وبنو النَّضِير ـ وكانوا حلفاء الخزرج أيضًا ـ ويقيمون في ضواحيها، وأخيرًا بنو قُرَيْظة ـ وكانوا حلفاء الأوس ـ ويقيمون في ضواحي يثرب. وفي المراحل الأولى من تطور الدعوة للإسلام، وجد النبي ﷺ أن اليهود والنصارى والصابئين (المندائيين) والأحناف،هم أقرب حلفاء الإسلام بوصفهم جماعات موحّدة من أهل الكتاب، وكان يلاحظ ببصيرة تاريخية نافذة،أن مجتمع الإسلام الحقيقي يجب أن يقوم على أساس الدولة المدنية التي يصبح فيها أتباع كل الأديان السماوية، مواطنين أحرارًا في مجتمع حر، يضمن لكل أعضائه كامل الحق في الاحتفاظ بمعتقداتهم الدينية وممارستها، وذلك ما عبّرت عنه بدقة آية ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1]. إن نص المعاهدة التي وقعها النبي ﷺ مع اليهود، تفصح بقوة عن مفهوم الدولة المدنية التي أرسى أسسها في يثرب، فهي تنص دون مراء على أن المسلمين واليهود ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[2] من دون الناس أي أمة مواطنين أحرار في مجتمع حر. إن التعبير الدقيق الذي استخدمه النبي ﷺ يلخص هذه الفكرة بشكل مذهل، فهي عقد اجتماعي تاريخي بين المؤمنين والمسلمين. وتعبير (مؤمنين) ليس تعبيرًا مرادفًا لكلمة (مسلمين) وإنما مصطلح ثقافي يراد به تحديدًا كل (أهل

(1) سورة الكافرون: الآية 6.

(2) سورة يونس: الآية 19.

الكتاب) وهو مفهوم حجازي يشمل النصارى واليهود وسواهم، ممن يمكن لهم أن يتقبلوا، دون مقاومة عنيفة، فكرة أن الحجاز هي المركز الديني القديم في الجزيرة العربية، وهو سيواصل لعب هذا الدور مع الدين الجديد. لقد استخدم النبيّ ﷺ العبارة التالية في توصيف نوع وطبيعة العلاقة مع اليهود، فأملى على كاتب المعاهدة أن يكتب ما يلي: وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم)

تقول المعاهدة في نصها[1]:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم، فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على رباعتهم، يتعاقلون بينه وهم يفدون عانيه[2] بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو ساعدة على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الحارث على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو جشم[3] على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النجار[4] على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين

(1) ابن هشام ج 2 ص 106 ـ 107.
(2) من المعاناة، مثلًا الأسير.
(3) بنو جشم في التوراة.
(4) في التوراة والإنجيل: النجار والد يوسف وخطيب مريم العذراء أم المسيح وهم أخوال عبد المطلب جد النبي ﷺ، وينسبون لوادي النجار ـ وهذا هو اسم نجران القديم ـ.

المؤمنين. وبنو عمرو بن عوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النبيت[1] على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الأوس على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وإن المؤمنين[2] لا يتركون مفرح[3] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عتق، ولا يحالف مؤمن مولى دونه، وأن المؤمنين المتّقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة[4] ظلم، أو إثم، أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم. ولا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر ولا ينصر كافر على مؤمن وأن ذمة اللّه واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس وأنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وأنَّ سلم المؤمنين واحدة، ولا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل اللّه، إلّا على سواء وعدل بينهم. وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضًا، وأن المؤمنين يبيء[5] بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل اللّه، وأن المؤمنين المتقين[6] على أحسن هدي وأقومه، وأنه لا يجير مشرك مالًا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اعتبط مؤمنًا قتلًا عن بينة فإنه قود به إلى أن يرضى ولي المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلّا قيام عليه، وأنه لا يحل لمؤمن آمن بما في هذه الصحيفة، وآمن باللّه واليوم الآخر أن

---

(1) النبيت في سفر التكوين ـ التوراة.
(2) هذا البند من المعاهدة يلزم كل أصحاب المعتقدات التوحيدية بما فيهم اليهود العرب بالتخفيف من أعباء الديون المترتبة على بعض المواطنين اليهود الفقراء في يثرب
(3) ثقيل الدين والمحتاج.
(4) دسيعة، ظلم سابق.
(5) يبيء من البواء أي المساواة.
(6) هذا البند من المعاهدة يلزم الكهنة والأحبار بالتقيد بالشريعة اليهودية وتعاليم الإسلام معًا، فهم يجب أن يكونوا مصدر العدل والهداية.

ينصر محدثًا، ولا يؤويه وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة اللّه وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى اللّه عزَّ وجلَّ وإلى محمد. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم[1]، مواليهم وأنفسهم، إلَّا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلَّا نفسه وأهل بيته، وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلَّا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلَّا نفسه وأهل بيته. وأن جفنة[2] بطن من ثعلبة كأنفسهم، وأن لبني الشطنة مثل ما ليهود بني عوف، وأن البر دون الإثم وأن موالي ثعلبة كأنفسهم، وأن بطانة يهود كأنفسهم، وأنه لا يخرج منهم أحد إلَّا بإذن محمد، وأنه لا ينحجز على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلَّا من ظلم وأن اللّه على أبر هذا. وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفة، وأن النصر للمظلوم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار، ولا آثم وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار، يخاف فساده فإن مرده إلى اللّه عزَّ وجلَّ، وإلى محمد رسول اللّه، وأن اللّه على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب. وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلَّا من

(1) هذا هو بالضبط مفهوم الدولة المدنية القائمة على أسس العدالة والمساواة والمواطنة.

(2) جفنة هم البطن الذي ولد منه الغساسنة في الشام.

حارب في الدين. على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم. ولا يكسب كاسب إلّا على نفسه وأن اللَّه على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم وأنه من خرج آمن. ومن قعد آمن بالمدينة إلّا من ظلم أو آثم، وأن اللَّه جار لمن بر وأتقى، ومحمد رسول اللَّه).

قبل وقوع معركة الخندق بقليل، التقت مجموعة من الزعماء القبليين الوثنيين واليهود من بينهم سلام بن أبي الحقيق النضري، وحُييّ بن أخطب النضري، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضري، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي - وكان معهم نفر من بني النضير، ومن بني وائل، وهؤلاء يعرفون في المصادر التاريخية بأنهم (هم الذين حزبوا الأحزاب على رسول اللَّه ﷺ) وقرروا تعطيل المعاهدة مع النبي ﷺ. وسرعان ما تطور الموقف، فجرت الدعوة داخل الاجتماع لترتيب لقاء مع وثنيي قريش (فخرجوا حتى قدموا مكة على قريش، فدعوهم إلى حرب رسول اللَّه، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأوّل، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحقّ منه)[1]. وفور انتهاء الاجتماع، تمّ التوافق على نقض المعاهدة والتحرر من التزاماتها، والاستعداد لمعركة فاصلة. (ثم خرج أولئك النفر من اليهود، حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول اللَّه ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشًا قد تابعوهم على ذلك، فاجتمعوا فيه، فأجابوهم فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حُذيفة بن بدر في بني فزارة، والحارث بن عوف ابن أبي حارثة المريّ في بني مرّة، ومسعر بن

(1) وفي هؤلاء نزلت آية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: 51].

رخيلة بن نُوَيرة بن طريف، ومعه من تابعه من قومه من أشجع؛ فلما سمع بهم رسول اللَّه ﷺ وبما اجتمعوا له من الأمر، ضرب الخندق على المدينة؛ فلما فرغ من الخندق، أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة[1]، بين الجرف والغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تابعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد، حتى نزلوا موضع يدعى ذنب نقمى قرب جبل أحد، وخرج رسول اللَّه ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى موضع سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكره، والخندق يفصل بينه وبينهم، وأمر بالذّراري والنساء، فرفعوا في الآطام، وخرج حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظيّ، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول اللَّه ﷺ على قومه، وعاهده على ذلك وعاقده، فلما سمع كعب بحييّ بن أخطب، أغلق الحصن، رافضًا أن يسمع منه دعوة الحرب على النبيّ ﷺ. فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له، فناداه حييّ: يا كعب افتح لي، قال: ويحك يا حييّ، إنك امرؤ مشؤوم، إني قد عاهدت محمدًا، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أرَ منه إلَّا وفاء وصدقًا؛ قال: ويحك افتح لي أكلمك، قال: ما أنا بفاعل، قال: واللَّه إن أغلقت دوني إلا تخوّفت على جشيشتك أن آكل معك منها، فأحفظ الرجل ـ أي شعر بالخجل ـ ففتح له، فقال: يا كعب جئتك بعزّ الدهر، وببحر طمّ، جئتك بقريش على قاداتها وساداتها، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة ـ مفردها سيل ـ، وبغطَفان على قاداتها وساداتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أُحد، قد عاهدوني وعاقدوني ألَّا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدًا ومن معه. كان النقاش بين الزعيمين اليهوديين ساخنًا، وفهم كعب بن أسيد أن الطائفة اليهودية الصغيرة، وتحت تأثير غريمه حييّ بن أخطب قد جرّت لحرب قاسية. فقال له: جئتني واللَّه بذلّ الدهر، وبجهام قد هراق ماءه، يرعد ويبرق، ليس فيه شيء، فدعني ومحمدًا وما أنا عليه، فلم أرَ من محمد إلَّا صدقًا ووفاء. لكن حييّ لم

(1) رومة: بئر شهيرة يقال إن ملوك اليمن حفروها، ثم أصبحت من أملاك عثمان وأهداها للمسلمين.

يتركه وشأنه حتى انتزع على مضض الموافقة على الاشتراك في الحرب، شريطة أن يسمح له في حال فشل المعركة، أن يتقاسم معه ـ من ماله ـ ثمن الهزيمة. وعلى الفور وافق حييّ على الشرط وأخذ من كعب بن أسيد الموافقة على قتال النبيّ ﷺ (وأنه بريء مما كان عليه، فيما بينه وبين رسول اللَّه ﷺ). فلما بلغ النبيّ ﷺ أن كعب بن أسيد نقض العهد بعث إلى سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس، أحد بني الأشهل، وهو يومئذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة بن ديلم أخي بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما عبد اللَّه بن رواحة بن الخزرج، وخوات بن جُبَير أخو بني عمرو بن عوف (فقال: انطلقوا حتى تنظروا أحقًّا ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقًّا فالحنوا لي لحنًا أعرفه، ولا تفتُّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم، فاجهروا به للناس). فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول اللَّه ﷺ وقالوا: لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فشاتمهم سعد ابن عبادة وشاتموه، وكان رجلًا فيه حدّة، فقال له سعد بن معاذ: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة، ثم أقبلا ومن معهما إلى رسول اللَّه، فسلموا عليه، ثم قالوا: عضل والقارة[1]: أي كغدر عضل والقارة بأصحاب رسول اللَّه ﷺ، أصحاب الرجيع خبيب بن عدي وأصحابه، فقال رسول اللَّه ﷺ: اللَّه أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين، وعظم عند ذلك البلاء، واشتدّ الخوف، وأتاهم عدوّهم من فوقهم، ومن أسفل منهم، حتى ظنّ المسلمون كلّ ظنّ، ونجم النفاق من بعض المنافقين، حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط، وحتى قال أوس بن قيظي أحد بني حارثة بن الحارث: يا رسول اللَّه إن

---

(1) المبرد، الكامل في اللغة والأدب: 1/ 251 عضل والقارة هذان حيان كانا في نهاية العداوة لرسول اللَّه ﷺ. فأرادا في الانحراف عنه والغدر به كهاتين القبيلتين.

بيوتنا لعورة من العدوّ، وذلك عن ملإ من رجال قومه، فأذن لنا فلنرجع إلى دارنا، وإنها خارجة من المدينة، فأقام رسول اللّه ﷺ بضعًا وعشرين ليلة قريبًا من شهر، ولم يكن بين القوم حرب إلّا الرمي بالنبل والحصار.

أدى الحصار القاسي والطويل الذي فرضه النبي ﷺ على حصون بني قريظة إلى شلل تام في الحياة اليومية للقبيلة اليهودية المتحصنة. وخلال هذا الحصار جرت محاولات فاشلة للبدء بحوار بين الطرفين. وفي حالات غير نادرة، تمكن بعض المسلمين من محادثة زعماء اليهود من وراء الجدران، لكنهم بدلًا من أن يحصلوا على ما يبدو مجرد استعداد للتراجع عن قرار نقض المعاهدة،سمعوا شتائم مقذعة موجهة لشخص محمد ﷺ. ولذا، قرر النبي ﷺ بعد أن نقل له المسلمون فحوى الشتائم، أن يقوم بنفسه بتبادل الشتائم معهم (فحاصرهم النبي ﷺ وأمر أصحابه أن يستروه بالحجف حتى يسمعهم كلامه، ففعلوا، فناداهم: يا إخوة القردة والخنازير، قالوا: يا أبا القاسم ما كنت فاحشًا).

أريد ـ قبل الاستطراد في سرد وقائع أخرى ـ أن أتوقف هنا قليلًا عند هذه النقطة وأسجل الملاحظات الثلاث التالية:

أولًا: إن النبي ﷺ وجّه لعناته لزعماء يهود بني قريظة حصرًا، وردًا على شتائمهم، ولم يكن ذلك ليفهم ـ حتى من جانب هؤلاء ـ على أنها شتائم ضد اليهود بإطلاق. وبالتالي، فإن كل تعميم لهذه اللعنات هو من نتاج مسلمين متأخرين، فهموا هذه الواقعة خارج سياقها.

ثانيًا: إن الملاعنة[1] تقليد قديم تعرفه القبائل، ولم يكن العرب

---

(1) جاء في الآية الكريمة: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ وهذا ما يعرف بـ(الملاعنة) أو(المباهلة) من مباهلة بمعنى الملاعنة، باهلت فلانًا أي لاعنته، ومعنى المباهلة أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة اللّه على الظالم منا .لسان العرب (بهل). سيرة ابن كثير: 4/ 107 جاء وفد نجران إلى رسول اللّه ﷺ عرض عليهم الملاعنة فأبوا. سورة آل عمران: 61، ابن هشام 2: 233، وابن سعد 1 / 2: 84.

ليتحرجون من مطالبة خصومهم بالجلوس للملاعنة، وغالبًا ما كانت منتديات القبائل تشهد هذه الملاعنات التي تجري أمام الملأ.

ثالثًا: إن زعماء اليهود، ذكروا النبي ﷺ بأنه كان ينبذ الملاعنة، ويعتبرها تقليدًا جاهليًّا، ولذلك ردوا عليه بالقول: (يا أبا القاسم ما كنت فاحشًا). وهذا هو مضمونها الفعلي. ولذلك، لا يجوز تحت أي ظرف، استخدام هذه الواقعة الصغيرة، واستغلالها في الجدال الديني.

2: هل شاهد المسلمون جبرائيل؟

تستحق رواية الواقدي[1] تأملًا خاصًا، يتسع لرؤية الطرائق التي أنشأ فيها الإخباريون المسلمون مروية مشاهدة المسلمين لجبرائيل. يكتب الواقدي بصدد هذه النقطة - ويمكن تلخيص هذه الرواية لتسهيل الأمر على القرّاء - ما يلي:

(حَدّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ عَنْ أَيّوبَ بْنِ عَبْدِ الرّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ قَالَ: فَسَارَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ وَالْخَيْلُ وَالرّجّالَةُ حَوْلَهُ، فَمَرّ بِنَفَرٍ مِنْ بَنِي النّجّارِ بِالصّورَيْنِ فِيهِمْ حَارِثَةُ بْنُ النّعْمَانِ، قَدْ صَفّوا عَلَيْهِم السّلاَحَ. فَقَالَ هَلْ مَرّ بِكُمْ أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ دِحْيَةُ الْكَلْبِيّ مَرّ عَلَى بَغْلَةٍ عَلَيْهَا رِحَالَةٌ عَلَيْهَا قَطِيفَةٌ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ، فَأَمَرَنَا بِلُبْسِ السّلاَحِ فَأَخَذْنَا سِلاَحَنَا وَصَفَفْنَا، وَقَالَ لَنَا: هَذَا رَسُولُ اللّهِ يَطّلِعُ عَلَيْكُمْ الآنَ. قَالَ حَارِثَةُ بْنُ النّعْمَانِ: فَكُنّا صَفّيْنِ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ ذَلِكَ جِبْرِيلُ، فَكَانَ حَارِثَةُ بْنُ النّعْمَانِ يَقُولُ: رَأَيْت جِبْرِيلَ مِن الدّهْرِ مَرّتَيْنِ - يَوْمَ الصّورَيْنِ وَيَوْمَ مَوْضِعِ الْجَنَائِزِ حِينَ رَجَعْنَا مِنْ حُنَيْنٍ. وَانْتَهَى رَسُولُ اللّهِ ﷺ إلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَنَزَلَ عَلَى بِئْرٍ لَنَا، أَسْفَلَ حَرّةِ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَكَانَ عَلِيّ - عَلَيْهِ السّلاَمُ - قَدْ سَبَقَ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، فِيهِمْ أَبُو قَتَادَةَ. قَالُوا: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ مَا رُئِيَ الشّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ وَلَا أَحْقَرُ وَلَا أَغْيَظُ مِنْهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ - وَمَا ذَاكَ إلّا لِمَا رَأَى مِنْ تَنَزّلِ الرّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللّهِ عَنِ الذّنُوبِ الْعِظَامِ - إلّا مَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ. قِيلَ وَمَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ؟ قَالَ أَمَا إنّهُ رَأَى جِبْرِيلَ يَزَعُ الْمَلاَئِكَةَ. قَالُوا: قَالَ

(1) الواقدي المغازي: ج1/ 497 - 499.

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ هَذَا جِبْرِيلُ يَسُوقُ الرِّيحَ كَأَنَّهُ دِحْيَةُ الْكَلْبِيّ، إِنِّي نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ). لكن حارثة بن النعمان لم يكن وحده من زعم رؤية جبريل، فقد كان هناك صحابي جليل آخر عبد الرحمن بن عوف، قال هو الآخر، إنه شاهد جبريل يوم بدر، لكنه لم يشر أو يلمح مجرد تلميح إلى أنه دحية الكلبي. هاكم رواية الواقدي: فَحَدَّثَنِي أَبُو إِسْحَاقَ بْنُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَبِي عَوْنٍ عَنْ صَالِحِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: (كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ يَقُولُ: رَأَيْت يَوْمَ بَدْرٍ رَجُلَيْنِ عَنْ يَمِينِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَدُهُمَا، وَعَنْ يَسَارِهِ أَحَدُهُمَا، يُقَاتِلَانِ أَشَدَّ الْقِتَالِ ثُمّ ثَلَثَهُمَا ثَالِثٌ مِنْ خَلْفِهِ ثُمّ رَبَعَهُمَا رَابِعٌ أَمَامَهُ)[1].

تلخص هذه الروايات على أكمل وجه، الطرائق السردية التقليدية التي سادت في الثقافة العربية الإسلامية، وتضمنت صورًا مدهشة عن رؤية جبرائيل، وهو يقود الملائكة في الحرب من أجل الإسلام، ولكن فقط، في لحظة تجسّده البشري، أي بوصفه شخصًا حقيقيًا. وفي هذه الصور، تتبدى صورة دحية الكلبي بجلاء، كتجلٍّ فريد واستثنائي لم تعرفه الثقافات والعقائد السابقة على الإسلام. وفي هذا النص، نكتشف أن معركة أحد، كانت معركته الكبيرة التي خاضها بنفسه، وقاد فيها جيشًا من الملائكة بعضهم تولى حماية النبي ﷺ كما يقول حديث عبد الرحمن بن عوف. لكن إذا كان دحية الكلبي مجرد شبيه، فلماذا تصرف في هذه المعركة كملاك؟ ولماذا يقول صحابي جليل مثل الحارثة، إنه رأى جبريل مرتين إحداهما في بدر؟ كيف خلط المسلمون بينه وبين الملاك؟ من المؤكد أن العودة إلى أحاديث النبي ﷺ سوف تبيّن لنا مضمون هذا الالتباس، فقد نصّت على أمرين:

الأول: إن دحية أشبه بجبريل، أي إنه مجرد شبيه.

والثاني: إن جبريل يأتي في صورة دحية.

فهل هو شبيه أم تجسيد؟

---

(1) الواقدي: ج1 ص 899 ـ 901.

3: نقاشات الفقهاء حول رؤية جبرائيل

في التنبيهات على مسألة دحية أو تجسّد جبرائيل في صورته والتي سجلها ابن حجر، نقرأ ما يلي:

الْأَوَّل:

دَلَّتِ الرِّوَايَات الَّتِي ذَكَرْنَاهَا عَلَى أَنَّ النَّبِيّ ﷺ مَا عَرَفَ أَنَّهُ جِبْرِيل إِلَّا فِي آخِرِ الْحَال، وَأَنَّ جِبْرِيل أَتَاهُ فِي صُورَة رَجُل حَسَن الْهَيْئَة لَكِنَّهُ غَيْر مَعْرُوف لَدَيْهِمْ، وَأَمَّا مَا وَقَعَ فِي رِوَايَة النَّسَائِيّ مِنْ طَرِيق أَبِي فَرْوَة فِي آخِر الْحَدِيث «وَإِنَّهُ لَجِبْرِيل نَزَلَ فِي صُورَة دِحْيَة الْكَلْبِيّ» فَإِنَّ قَوْله نَزَلَ فِي صُورَة دِحْيَة الْكَلْبِيّ وَهْم ؛ لِأَنَّ دِحْيَة مَعْرُوف عِنْدهمْ، وَقَدْ قَالَ عُمَر ـ بن الخطاب ـ «مَا يَعْرِفهُ مِنَّا أَحَد »، وَقَدْ أَخْرَجَهُ مُحَمَّد بْن نَصْر الْمَرْوَزِيُّ فِي كِتَاب الْإِيمَان لَهُ مِنَ الْوَجْه الَّذِي أَخْرَجَهُ مِنْهُ النَّسَائِيُّ، فَقَالَ فِي آخِره: «فَإِنَّهُ جِبْرِيل جَاءَ لِيُعَلِّمكُمْ دِينكُمْ» حَسْب. وَهَذِهِ الرِّوَايَة هِيَ الْمَحْفُوظَة لِمُوَافَقَتِهَا بَاقِي الرِّوَايَات.

الثَّانِي:

قَالَ اِبْن الْمُنِير فِي قَوْله: «يُعَلِّمكُمْ دِينكُمْ» دَلَالَة عَلَى أَنَّ السُّؤَال الْحَسَن يُسَمَّى عِلْمًا وَتَعْلِيمًا ؛ لِأَنَّ جِبْرِيل لَمْ يَصْدُر مِنْهُ سِوَى السُّؤَال، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ سَمَّاهُ مُعَلِّمًا، وَقَد اِشْتَهَرَ قَوْلهمْ: حُسْن السُّؤَال نِصْف الْعِلْم، وَيُمْكِن أَنْ يُؤْخَذ مِنْ هَذَا الْحَدِيث لِأَنَّ الْفَائِدَة فِيهِ اِنْبَنَتْ عَلَى السُّؤَال وَالْجَوَاب مَعًا.

وقد يبدو نص حقي[1]، متفرّدًا بين سائر نصوص الفقهاء المتأخرين، لأنه تجرأ على رؤية معنى التجسّد كتطور ممكن في سياق تشكّل الروح، وقدم في سبيل البرهة على هذه الإمكانية تأويلًا تخطى فيه سائر التفسيرات الدينية التقليدية، إذ رأى أن (تعدد الصور بالتخيل ـ التشكل، ممكن كما يقع ذلك للجان. قال الشعراني وأخبرني من صحب الشيخ محمد الخضري، أنه خطب في خمسين بلدة في يوم واحد خطبة الجمعة، وصلى بهم إمامًا. وأما الشيخ حسين أبو علي المدفون بمصر المحروسة، فأخبرني عنه أصحابه أن

---

(1) تفسير حقي: ج14/ 300.

التطور كان دأبه ليلًا ونهارًا حتى في صور السباع والبهائم، ودخل عليه بعض أعدائه ليقلتوه فوجدوه فقطعوه بالسيوف ليلًا، ورموه على كوم بعيد ثم أصبحوا فوجدوه قائمًا يصلي. وفي جواهر الشعراني: وصورة التطور، أن يقدر اللّٰه الروح على تدبير ما شاءت من الأجسام المتعددة، بخلعة كن فللأولياء ذلك في الدنيا بحكم خرق العادة. أما في الآخرة؛ فإن نشأة أهل الجنة نفسها تعطى ذلك، فيدبر الواحد الأجسام المتعددة كما يدبر الروح الواحد، سائر أعضاء البدن فتكون تسمع وأنت تبصر وتبطش وتمشي ونحو ذلك. وفي الفتوحات المكية والذي أعطاه الكشف الصحيح، أن أجسام أهل الجنة تنطوي في أرواحهم، فتكون الأرواح ظروفًا للأجسام، عكس ما كانت في الدنيا، فيكون الظهور والحكم في الدار الآخرة للجسم لا للروح، ولهذا يتحولون في أي صورة شاؤوا، كما هو اليوم عندنا للملائكة وعالم الأرواح. وفي ـ إنسان العيون[1] ـ عالم المثال عالم متوسط بين عالم الأجساد والأرواح، ألطف من عالم الأجساد وأكشف من عالم الأرواح، فالأرواح تتجسّد وتظهر في صور مختلفة من عالم المثال، وهذا الجواب أولى من جواب ابن حجر، بأن جبرائيل كان يندمج بعضه في بعض. وهل مجيء جبرائيل في صورة دحية كان في المدينة، بعد إسلام دحية، وإسلامه كان بعد بدر؛ فإنه لم يشهدها وشهد المشاهد بعدها؛ إذ يبعد مجيئة على صورة دحية قبل إسلامه؟ قال الشيخ الأكبر[2] ﷺ دحية الكلبي، كان أجمل أهل زمانه وأحسنهم صورة، فكان الغرض من نزول جبريل على سيدنا محمد في صورته، إعلامًا من اللّٰه تعالى، أنه ما بيني وبينك يا محمد سفير إلّا صورة الحسن والجمال، وهي التي عندي فيكون ذلك بشرى له عليه السلام، ولاسيما إذا أتى بأمر الوعيد والزجر، فتكون تلك الصورة الجميلة تسكن منه ما يحرك ذلك الوعيد والزجر. هذا كلامه وهو واضح، لو كان لا يأتيه إلّا

(1) الحلبي، علي بن إبراهيم، السيرة الحلبية (المسمى إنسان العيون في سيرة المأمون) تحقيق: عبد اللّٰه محمد الخليلي ـ دار الكتب العلمية، بيروت 2002م.

(2) ابن عربي ـ مصدر مذكور.

على تلك الصورة، إلَّا ان يدعي أنه من حين أتاه على صورة دحية، لم يأته على صورة آدمي غيره. بقي هنا كلام، وهو أن السهيلي رحمه اللَّه، ذكر أن المراد بالأجنحة في حق الملائكة، صفة ملكية وقوة روحانية، وليست كأجنحة الطير، ولا ينافي ذلك وصف كل جناح منها بأنه يسد ما بين المشرق والمغرب).

الفصل الخامس

بعثة دبلوماسية إلى بيزنطة

لم تحظ رحلة دحية الكلبي إلى بصرى الشام، حاملًا رسالة من النبي ﷺ إلى القيصر البيزنطي هرقل، بأي اهتمام دراسي من جانب الرواة والمؤرخين العرب والمستشرقين على حدٍّ سواء. وجرت لمرات لا تحصى، إعادة إنتاج سقيمة لم تفضِ إلّا إلى إضافة تفاصيل محدودة القيمة، لا تخص الرحلة بصورة مباشرة. ولم يكن من شأنها بطبيعة الحال، أن تضيف أي شيء على مضمون هذا الاتصال الدبلوماسي المبكر بين المسلمين والقوى الدولية الكبرى. كما لم يكن من شأنها أيضًا، سوى تكريس الطابع التقليدي لهذا النوع من المرويات، وإعادة رواية الخبر كما تناقله المسلمون. وفي الواقع حدثت أخطاء فظيعة ناجمة عن الخلط والنقل غير الدقيق، فالرسالة التي جرى التركيز عليها لم تكن موجهة من النبيّ ﷺ لقيصر بيزنطة هرقل مباشرة؛ وإنما كانت موجهة لقائد الحامية العسكرية في بصرى ليوصلها للإمبراطور في القسطنطينية.

إن المرويات التاريخية العربية (عند الطبري، مثلًا) والتي تتحدث عن تفاصيل الرحلة، لم تلاحظ أن القيصر كان يقيم في عاصمته القسطنطينية (اسطنبول اليوم) وليس في بصرى الشام، وأن قائد الحامية العسكرية البيزنطية (مركز قيادة الجيوش الجنوبية) هو من استقبل دحية وأبا سفيان ووفد تجار قريش في الشام. لقد أدّى الخلط بين القيصر وقائد الحامية إلى انتشار وهم من النوع التاريخي، مفاده أن رسالة النبيّ ﷺ وصلت للقيصر مباشرة، وهو من أجاب عليها. وفي الواقع، لا توجد لدينا أي أدلّة عن ذلك، لأن قائد الحامية

هو من استقبل الموفدين والتجار واستفسر منهم عن الدين الجديد في الجزيرة العربية. ولذلك لا توجد أي مروية متماسكة عن اتصال مباشر مع القيصر. وهذا أمر هام للغاية، لأن ردّة الفعل في بصرى لم تكن تعكس بالضرورة ردّة فعل عاصمة الإمبراطورية، فقد كانت هناك ظروف وعوامل كثيرة، تدفع قائد الحامية للترحيب بهذا التطور الدبلوماسي، بخلاف ما هو عليه الأمر في العاصمة، وهذا أمر له أسباب مذهبية وسياسية متشابكة، خصوصًا وأن جزءًا كبيرًا من الصراع البيزنطي ـ الفارسي في الشام، كان يجري بواسطة أدوات محلية وليس بين الجيوش النظامية، وهو في أحد أوجهه صراع بين مذهبين في المسيحية، النسطورية في العراق وفارس والمونوفيزية (اليعقوبية) في بلاد الشام[1]، ولعبت القبائل العربية المسيحية والوثنية في الشام والعراق، أدوارًا حاسمة في تطوره، إذ انحاز بعضها لبيزنطة (الغساسنة) فيما أصبح الآخر (المناذرة) وكيلًا غير مباشر لفارس. لكننا ـ إذا ما ـ دققنا في الرواية السائدة عن رحلة دحية ـ فسوف نجد الكثير من التناقضات والأخطاء الأخرى التي ارتكبها مختلف الرواة. ولدينا في سياق تحليل تراجيديا الملاك السماويّ الذي انتقل إلى طوره البشري، الروايات التالية التي تبرهن على نمط الأخطاء المثيرة للشكوك والحيرة، مثلًا رواية البخاري[2]: تستند رواية البخاري إلى رواية: إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَمْزَةَ، عن إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ـ رضي الله عنه ـ وهذا أَخْبَرَهُ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى قَيْصَرَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَبَعَثَ

---

(1) نسبة إلى يعقوب البرادعي الذي قاد تيارًا في المسيحية العربية يعرف باسم(المونوفيزية ـ الطبيعة الواحدة للمسيح).

(2) البخاري، ج10/ 95 **عيون الأثر**:ج2/ 222: (وما كان من خبر دحية معه ذكر الواقدي من حديث ابن عباس ومن حديثه خرج في الصحيحين أن رسول اللّه ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه مع دحية الكلبي وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر. وكان قيصر لما كشف اللّه عنه جنود فارس مشى من حمص إلى إيلياء شكرًا للّه عز وجل فيما أبلاه من ذلك. فلما جاء قيصر كتاب رسول اللّه ﷺ قال التمسوا لنا هاهنا من قومه أحدًا نسألهم عنه).

بِكِتَابِهِ إِلَيْهِ مَعَ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ، وَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى، لِيَدْفَعَهُ إِلَى قَيْصَرَ). وهذا صحيح تمامًا، وعبارة (ليدفعه إلى قيصر) دقيقة للغاية، فاللقاء كان هدفه إيصال الرسالة بواسطة القائد البيزنطي، وليس اللقاء مع القيصر نفسه. وفي هذا الوقت،كان القيصر البيزنطي فلافيوس أغسطس هرقل (575 ـ 641م) يخرج منتصرًا من آخر معاركه ضد الفرس في نصيبين، عندما ألحق بهم هزيمة محدودة القيمة من الناحية العسكرية، لكنها كانت هامّة وكبيرة بالمعنى التاريخي، فقد اضطرّ الفرس للانسحاب تاركين نصيبين المدينة المسيحية على المذهب الشرقي، تحت رحمة بيزنطة التي تعامل هذا المذهب كهرطقة، كما تخلّوا عن بعض الأملاك التي استولوا عليها في الشام ومصر خلال حروب سابقة. يضيف البخاري (وكان قَيْصَرُ لَمَّا كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُ جُنُودَ فَارِسَ، مَشَى مِنْ حِمْصَ إِلَى إِيلِيَاءَ، شُكْرًا لِمَا أَبْلَاهُ اللَّهُ). إن التدقيق في هذه الجملة، سيوضح نوع وطبيعة الأخطاء، فكما لاحظنا ـ في الجملة السابقة ـ كان اللقاء مع قائد الحامية، بينما يصبح في هذه الجملة وكأنه هو نفسه القيصر؟ ولعل قراءة متمعّنة في وقائع سفارة دحية لبصرى الشام، سوف تؤكد لنا حقائق أخرى، منها أن السفارة تمّت بعد انتصار بيزنطة على فارس في نصيبين، وأن قائد الحامية عاد منها إلى بصرى قادمًا من نصيبين ثم عبر حمص، ليتوجه منها إلى إيلياء (فلسطين باسمها الروماني). وأن اللقاء بالوفد جرى في بصرى.تضيف رواية البخاري ما يلي:

(فَلَمَّا جَاءَ قَيْصَرَ كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ، حِينَ قَرَأَهُ، الْتَمِسُوا لِي هَا هُنَا أَحَدًا مِنْ قَوْمِهِ لِأَسْأَلَهُمْ عَنْه. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، أَنَّهُ كَانَ بِالشَّأْمِ فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدِمُوا تِجَارًا فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَوَجَدَنَا رَسُولُ قَيْصَرَ بِبَعْضِ الشَّأْمِ، فَانْطُلِقَ بِي وَبِأَصْحَابِي حَتَّى قَدِمْنَا إِيلِيَاءَ، فَأُدْخِلْنَا عَلَيْهِ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ فِي مَجْلِسِ مُلْكِهِ وَعَلَيْهِ التَّاجُ وَإِذَا حَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ).

وبكل تأكيد لم يكن أبو سفيان وتجار قريش الآخرون يتاجرون مع بيزنطة، ولم يذهبوا إلى القسطنطينية في أي وقت، وليس لدينا أي رواية تؤكد إنهم كانوا يتاجرون مع عاصمة الإمبراطورية. فكيف طلب القيصر رؤيتهم؟

والمؤكد، أن المقصود حاكم بصرى وقائد حاميتها العسكرية الذي يعلم بوجود تجار قريش في جنوب الشام، فهم غالبًا ما يواصلون مسيرهم نحو غزة، فهذا هو طريق الإيلاف القديم. ويتضح من هذا المقطع، أن قائد الحامية ـ المُدعى أنه القيصر ـ بعث رسولًا لإبلاغ أبي سفيان وتجار قريش بالحضور، ليطلع منهم بصورة أفضل على المعلومات الدقيقة عن الدين الجديد، وأنه قال (لِتَرْجُمَانِهِ: سَلْهُمْ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ نَسَبًا. قَالَ: مَا قَرَابَةُ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ؟ فَقُلْتُ هُوَ ابْنُ عَمِّي، وَلَيْسَ فِي الرَّكْبِ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ غَيْرِي، فَقَالَ قَيْصَرُ: أَدْنُوهُ وَأَمَرَ بِأَصْحَابِي فَجُعِلُوا خَلْفَ ظَهْرِي عِنْدَ كَتِفِي، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لِأَصْحَابِهِ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا الرَّجُلَ عَنِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَإِنْ كَذَبَ فَكَذِّبُوهُ. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَاللَّهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ يَوْمَئِذٍ مِنْ أَنْ يَأْثُرَ أَصْحَابِي عَنِّي الْكَذِبَ لَكَذَبْتُهُ حِينَ سَأَلَنِي عَنْهُ، وَلَكِنِّي اسْتَحْيَيْتُ أَنْ يَأْثُرُوا الْكَذِبَ عَنِّي فَصَدَقْتُهُ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ كَيْفَ نَسَبُ هَذَا الرَّجُلِ فِيكُمْ؟ قُلْتُ هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ. قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ لَا. فَقَالَ: كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ عَلَى الْكَذِبِ، قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ لَا. قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ قُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، قَالَ: فَيَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ بَلْ يَزِيدُونَ. قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ لَا. قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ لَا وَنَحْنُ الْآنَ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ، نَحْنُ نَخَافُ أَنْ يَغْدِرَ. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَلَمْ يُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا أَنْتَقِصُهُ بِهِ لَا أَخَافُ أَنْ تُؤْثَرَ عَنِّي غَيْرُهَا. قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ أَوْ قَاتَلَكُمْ؟ قُلْتُ نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَتْ حَرْبُهُ وَحَرْبُكُمْ؟ قُلْتُ: كَانَتْ دُوَلًا وَسِجَالًا يُدَالُ عَلَيْنَا الْمَرَّةَ وَنُدَالُ عَلَيْهِ الْأُخْرَى. قَالَ: فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ؟ قَالَ: يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَيَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعَفَافِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ).

ما أن سمع القائد البيزنطي ما قاله أبو سفيان حتى قال لجلسائه (هَذِهِ صِفَةُ النَّبِيِّ قَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَكِنْ لَمْ أَظُنَّ أَنَّهُ مِنْكُمْ وَإِنْ يَكُ مَا قُلْتَ حَقًّا، فَيُوشِكُ أَنْ يَمْلِكَ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ وَلَوْ أَرْجُو أَنْ أَخْلُصَ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ

لُقِيَّهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ قَدَمَيْهِ). ولذا أمر بأن تقرأ عليه رسالة النبي ﷺ الموجهة للقيصر:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرِيسِيِّينَ[1] وَ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2].

وطبقًا لما رواه أبو سفيان (فَلَمَّا أَنْ قَضَى مَقَالَتَهُ، عَلَتْ أَصْوَاتُ الَّذِينَ حَوْلَهُ مِنْ عُظَمَاءِ الرُّومِ وَكَثُرَ لَغَطُهُمْ، فَلَا أَدْرِي مَاذَا قَالُوا، وَأُمِرَ بِنَا فَأُخْرِجْنَا. فَلَمَّا أَنْ خَرَجْتُ مَعَ أَصْحَابِي وَخَلَوْتُ بِهِمْ، قُلْتُ لَهُمْ لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ[3]. هَذَا مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ يَخَافُهُ. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَاللَّهِ مَا زِلْتُ ذَلِيلًا مُسْتَيْقِنًا بِأَنَّ أَمْرَهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ قَلْبِي الْإِسْلَامَ وَأَنَا كَارِهٌ)

الأمر الغريب والمثير للشكوك في هذه الرواية، أن أبا سفيان الذي كان لا يزال في هذا الوقت وثنيًا متشددًا ومعاديًا للإسلام هو من تولى قيادة الوفد، وليس مبعوث النبي ﷺ؟ وهو من تولى تقديم الأجوبة عن الأسئلة المتعلقة

(1) من مذاهب المسيحية الشرقية.

(2) سورة آل عمران: الآية 64.

(3) ابن أبي كبشة، قيل، هو رجل من خزاعة كان يعبد الشعرى، وعن الزبير بن بكار في كتاب الأنساب قال: ليس مرادهم بذلك عيب النبي ﷺ إنما أرادوا بذلك مجرد التشبيه وقيل: إن أبا كبشة جد النبي ﷺ من قبل أمه، قاله ابن قتيبة وكثيرون، وقيل: هو أبوه من الرضاعة، وهو الحارث بن عبد العزى السعدي؛ حكاه ابن بطال وآخرون وكان وهب ابن عبد مناف بن زهرة جده أبو آمنة يكنى أبا كبشة، وكذلك عمرو بن زيد بن أسد الأنصاري النجاري أبو سلمى أم عبد المطلب كان يدعى أبا كبشة، وكان في أجداده أيضًا من قبل أمه أبو كبشة، وهو أبو قبيلة أم وهب بن عبد مناف أبي آمنة أم النبي ﷺ، وهو خزاعي. وقال مثل هذا كله محمد بن حبيب البغدادي، وزاد ابن ماكولا فقال: وقيل: أبو كبشة عم والد حليمة مرضعته ﷺ.

بشخص النبي ﷺ والدين الجديد، بينما رأينا دحية ـ موفد النبي ﷺ وحامل رسالته وسفيره للقيصر ـ يصمت صمتًا غير مفهوم عن ذكر تفاصيل اللقاء، وذلك ما يثير اشتباهنا: فهل كان في الأصل موجودًا في بصرى وهو منْ سلم الرسالة؟ وإذا كان ضمن الوفد، فلماذا لم يروِ بنفسه أي حديث عمّا دار من أحاديث ومداولات، وترك لأبي سفيان ـ الوثني وعدو النبيّ ـ رواية مجريات اللقاء؟

ولأن ابن عباس هو راوي القصة في العصر الأموي، فسوف يكون مفهومًا لماذا أصبح أبو سفيان بطلها وليس دحية الكلبي. وهذا أمر يبعث فينا الشعور بوجود تلفيق أموي للقصة، الغرض منه تعظيم دور أبي سفيان والأمويين. كما أن غياب أي حضور حقيقي لدحية أو ذكر لاسمه أصلًا، يدفع للاعتقاد أن التلفيق في هذا الوقت، بلغ ذروته مع استبداله بشخص آخر، يتولى مهمة إيصال مضمون الرسالة. وليس دون معنى أن يكون هذا الشخص والد الخليفة معاوية؟ وهكذا، يصبح تلفيق شخصية الملاك الذي تحوّل إلى رجل، ثم إرساله في مهمة دبلوماسية، تلفيقًا شاملًا، فالقيصر كاد أن يصبح مسلمًا بفضل الشرح الموضوعي والنزيه الذي قدمه أبو سفيان. وهذا أمر يبعث على أقصى درجات الحذر في قبول الرواية. كما يتضح منه ـ برغم رفضنا المبدئي لها ـ أن قائد الحامية البيزنطي في بصرى وليس القيصر هرقل، كما توهم الرواة العرب، هو الذي تسلّم الرسالة، ولم يكن لدحية الكلبي أي دور آخر باستثناء إيصالها ـ هذا إذا قبلنا أصلًا رواية نقلها ـ، بينما لعب أبو سفيان دورًا أهم بكثير من دور دحية في شرح أهمية هذا الاتصال الدبلوماسي، وقدّم صورة موضوعية عن النبيّ ﷺ. ولو أننا سلمنا مع سائر المسلمين الذين يقبلون هذه الرواية ويصدقونها لأنها منسوبة لابن عباس، فسوف يكون أبو سفيان الذي استدعاه قائد الحامية البيزنطي على عجل، شخصًا مدركًا بعمق لأسباب استدعائه، مع أنه لم يكن يعرف بمهمة موفد النبيّ ﷺ، إلّا حين وقف عند باب قائد الحامية، وفهم أن الأمر يتعلق باستشارة ملحّة، وأن القائد البيزنطي بعث في طلب تجار من قريش واللقاء بهم، لأن هناك من يزعم أنه موفد من الحجاز جاء حاملًا رسالة من النبيّ العربي؛ ولذا استعجل في طلبهم حين قيل له إنهم لا يزالون في بصرى ولم

يبرحوها بعد. ولو أننا قبلنا الرواية مثل سائر المسلمين دون نقد أو تشكيك بالرواة، فسوف يكون أبو سفيان رجلًا قادرًا على أن يلتقط بذكاء التاجر وحصافة الزعيم القبلي، أن الوقت ليس مناسبًا لتصفية الحسابات مع محمّد، وأن التعرّض لشخصه ودينه، لا نفع ولا جدوى منه، بينما يمكن استثمار هذه المناسبة لتشجيع البيزنطيين على توطيد علاقاتهم مع العرب في مواجهة نفوذ فارس. وبذلك، يصبح الأمويون هم أصحاب الفضل في أول اتصال دبلوماسي ناجح مع البيزنطيين؟ بهذا المعنى، يصبح تلفيق شخصية دحية موظفًا لأغراض متعدّدة. ومع هذا مرة أخرى، يمكن النظر بموضوعية إلى مسألة وجود اتصال دبلوماسي مبكر قام به النبي ﷺ مع البيزنطيين، بوصفها محاولة للاتصال بمسيحيّي الشام بعد القطيعة مع يهود الجزيرة العربية. وهذه نقطة جوهرية سوف تتكشف أمامنا تاليًا، حين نعلم أن النبي ﷺ أرسل بالفعل موفدًا للحارث الغساني أمير الشام المسيحي، وأن الرسالة التي ثار حولها الجدل، كانت موجهة له لبدء أول محاولة للتفاهم الديني في مواجهة يهود الجزيرة العربية، وأن من بين أهداف الاتصال الدبلوماسي تدعيم معاهدة الإيلاف وتطوير التبادل التجاري بين مكة والشام. وممّا يساهم في تعزيز هذه النظرة إلى أهمية العلاقات بين بيزنطة ومكة،أن الصراع الفارسي - البيزنطي بلغ ذروته في هذا الوقت مع انهيار آخر معاهدة للصلح أبرمت بين الطرفين في كانون الأول/ديسمبر من عام 627م. وفي هذا الوقت، وقبل خمس سنوات فقط، أي في 12 من ربيع الأول للسنة الهجرية الأولى 16 تموز 622م كان النبيّ ﷺ يهاجر مع صحابته إلى يثرب. وخلال هذه السنوات الخمس الفاصلة بين هجرة النبي وانهيار معاهدة الصلح بين الفرس والبيزنطيين، وانهيار المعاهدة بين محمد ويهود بني قريظة، كان القيصر هرقل يخطط لاجتياح فارس من خاصرتها العراقية، فقام بهجوم واسع النطاق على قلب الإمبراطورية الفارسية. وبدلًا من منازلة جيوش الفرس عند الثغور - الحدود، قام بمواجهتهم في عقر دارهم، فتقدم بجيشه في كانون الأول/ديسمبر سنة 627 م ليبلغ نقطة هي الأقرب إلى الموصل (نينوى) القديمة، أي المدينة الدينية نصيبين التي كانت في هذا العصر تعجّ بالمدارس المسيحية

النسطورية. وهناك خاض معركة حاسمة ضد الفرس قررت مصير الصراع بين الطرفين. وفي هذه الموقعة ألحق هرقل الهزيمة بالجيوش الفارسية، وهذا ما أدّى إلى عزل كسرى أنوشروان عن العرش وتنصيب ابنه شيرويه محله. وبطبيعة الحال، فقد سارع شيرويه إلى تطويق نتائج الهزيمة، فارتأى أن من الأفضل تجديد معاهدة الصلح مع هرقل، وذلك ما تمّ فعليًا عام 628م. وبمقتضاها استردت القسطنطينية كل ما كان لها من البلاد التي كانت قد سقطت في أيدي الفرس، بما في ذلك أملاكها في الجزيرة الفراتية والشام ومصر. وبعد رجوع هرقل إلى القسطنطينية استقبله أهلها استقبال الأبطال. في هذه الوقت جاءت رسالة النبي ﷺ لهرقل، وكان سفيره إلى بصرى الشام كما يزعم دحية الكلبي. هذه الانتصارات (المسيحية) ضد فارس الوثنية، كانت تتلازم مع الانتصار على يهود بني قريظة، وهو ما من شأنه أن يعزز التفاهم الإسلامي ـ المسيحي.

ولئن رأينا في رواية البخاري بعض الأخطاء المدمّرة؛ فإننا نجد في رواية مسلم وأحمد، ما يساعدنا على التعامل مع رواية أكثر دقة وتماسكًا. تقول رواية مسلم وأحمد[1] ما يلي:

(إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيُّ، وَابْنُ أَبِي عُمَرَ وَمُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ وَعَبْدُ ابْنُ حُمَيْدٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَخْبَرَهُ مِنْ فِيهِ إِلَى فِيهِ قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ فَبَيْنَا أَنَا بِالشَّأْمِ إِذْ جِيءَ بِكِتَابٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ يَعْنِي عَظِيمَ الرُّوم. قَالَ وَكَانَ دَحْيَةُ الْكَلْبِيُّ جَاءَ بِهِ فَدَفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى فَدَفَعَهُ عَظِيمُ بُصْرَى إِلَى هِرَقْلَ). في هذا النصّ يتأكد لنا، أن دحيةَ أوصل الرسالة وحسب، وأن من استلمها منه (عظيم بصرى) وليس (عظيم الروم) وأن أبا سفيان كان متأكدًا أن الموفد كان دحية وليس شخصًا غيره، لكنه لم يبرر لنا سبب توليه فعليًا قيادة الاتصال الدبلوماسي؟ والآن: إذا كان دحية الكلبي

(1) صحيح مسلم: ج9/ 238، مسند أحمد: ج21/ 259.

تاجرًا كبيرًا من تجار الشام، وكبير الصحابة، فمن غير المنطقي أن يترك مثل هذا الاتصال في يد تاجر حجازي وثني؟

ثمة ثلاثة أسباب رئيسة تمنعنا من تقبّل الرواية:

أولًا: إنه تاجر من أهل الشام، وهو أحق من التجار الحجازيين في التأسيس لأول اتصال بين العرب والبيزنطيين.

ثانيًا: إنه الشخص الذي حمل رسالة النبيّ ﷺ، ومن غير المقبول أن يتولى شخص آخر بدلًا منه، شرح مضمونها؟

ثالثًا: إنه من دعاة الدين الجديد الذين يسأل عنه القائد البيزنطي. فمن أولى منه بشرح هذا الدين؟ التاجر الوثني أم التاجر المسلم؟

من المؤكد أن هذا الاتصال الدبلوماسي حظي بعناية واهتمام قائد الحامية في بصرى. وذلك جليّ بما فيه الكفاية من خلال طلبه التعرّف على رأي تجار قريش، والحرص على أن يتلقى شرحًا وافيًا عن الدين الجديد ونبيّه. بيد أن بعض الروايات تزعم دون دليل أو مرويات متماسكة أن القيصر بعث رسولًا منه للقاء النبيّ ﷺ وفي مختلف هذه الروايات، يتأكد لنا أن دحية لا وجود له في أجواء الاتصال؛ إذ لم يُطلب منه البقاء في بصرى ريثما يتمّ معرفة رأي القيصر، أو أن يطلب منه حمل جواب محدّد للنبيّ ﷺ، كما هي العادة المتبّعة في الاتصالات السياسية. وكل هذه الملاحظات، تثير المزيد من الشكوك في أصل قصة تكليفه بحمل رسالة النبيّ ﷺ. كما أن رواية مسلم وأحمد، تثيران التحفظ بشأن دقة التفاصيل التي شهدها الاتصال، ذلك أنهما توردان أخبارًا لسنا متأكدين من صحتها، ومنها أن هرقل بعث بموفد شخصي منه.

تقول الروايتان ما يلي:

(حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ عِيسَى، قَالَ حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ سُلَيْم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ خُثَيْم عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي رَاشِدٍ قالَ: لَقِيتُ التَّنُوخِيَّ رَسُولَ هِرَقْلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحِمْصَ، وَكَانَ جَارًا لِي شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ بَلَغَ الْقَنَدَ[1] أَوْ قَرُبَ،

---

(1) القند ـ والصحيح الفند ـ بالفاء وحرف الدال غير المعجم ـ أي الضعف في الرأي ـ الذاكرة ـ

فَقُلْتُ: أَلَا تُخْبِرُنِي عَنْ رِسَالَةِ هِرَقْلَ إِلَى النَّبِيِّ؟ وَرِسَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى هِرَقْل. فَقَالَ بَلَى، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ تَبُوكَ، فَبَعَثَ دِحْيَةَ الْكَلْبِيَّ إِلَى هِرَقْلَ).

ويفهم من هذا النص ما يلي:

أولًا: إن هرقل بعث أعرابيًا مسنًا ضعيف الذاكرة من قبائل تنوخ كموفد منه للنبيّ ﷺ، ولم يرسل الجواب مع دحية. وهذا ما لا يمكن فهمه؟

ثانيًا: إنه وصل حمص قادمًا من القسطنطينية (اسطنبول اليوم) وأخذ طريقه نحو الجزيرة العربية، بينما علمنا من الروايات السابقة أن القيصر كان في حمص واتجه نحو إيلياء حين وصلت رسالة النبي ﷺ؟ وهذا تناقض يصعب حلّه لأنه ناجم عن دمج روايات مختلفة.

ثالثًا: إن النبيّ ﷺ أرسل الرسالة من تبوك وليس من يثرب؟ وهذا خلط غير مقبول، لأن غزوة تبوك كانت حملة استباقية، انتهت دون قتال وقام بها النبي ﷺ عندما علم أن البيزنطيين سيهاجمون الجزيرة العربية بقيادة هرقل، وأنه حين تأكد أنها أنباء غير دقيقة عاد إلى مكة؟ فماذا كان دحية يفعل في تبوك؟ هل كان مشاركًا في غزوة النبي ﷺ؟ لقد رأينا من سائر الروايات أنها لا تشير قط إلى اشتراكه في معركة ـ غزوة تبوك؟ وسائر الروايات التي بين أيدينا لا تشير قط إلى أن النبيّ ﷺ أرسل الرسالة من تبوك؟ لأن الغزوة في الأصل كانت محاولة لاستباق غزو بيزنطي بعد هزيمة الفرس. وكان ذلك سنة 9 للهجرة والتي تصادف 630م، أي بعد ثلاث سنوات من إرسال رسالة النبي ﷺ لهرقل؟ ولذلك لا يبدو من المنظور التاريخي قبول رواية مسلم وأحمد. وهناك روايتان تناقضان هاتين الروايتين، هما روايتا ابن حجر العسقلاني[1] والأصفهاني[2]، وتقولان ما يلي: إن النبيّ أرسل شجاع بن وهب وليس دحية الكلبي إلى قائد الحامية البيزنطي في بصرى، وأن دحية كان شخصًا ثانويًا في هذه المهمة، وفقط لأنه من أهل الشام. وهنا نص الرواية:

---

(1) ابن حجر العسقلاني الإصابة في معرفة الصحابة: ج1/ 111.

(2) الأصفهاني، معرفة الصحابة: ج10/ 404.

(حدثناه محمد بن أحمد بن الحسن، حدثنا جعفر بن محمد الفريابي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن محمد بن إسحاق، عن ابن شهاب، مثله، وقال - إن النبي ﷺ قال -: «اذهب أنت يا شجاع بن وهب أخا بني غنم بن ذودان إلى هرقل، وليذهب معك دحية الكلبي، فإنه من تخوم الشام فلا بأس عليه). ومن سائر هذه الروايات بكل تناقضاتها، يمكن لنا أن نفهم التالي: قرر النبيّ ﷺ في السنة التاسعة للهجرة، أن يخاطب ملك بيزنطة المنتصر للتوّ على الفرس (هرقل) وفي الآن ذاته، أن يخطب ودّ غساسنة الشام، ويحضّهم على التقاط اللحظة التاريخية والالتحاق بالدين الجديد، وكان ذلك دليلًا قويًا على أن نبيّ الإسلام ﷺ أدرك بعمق، أن الصدام الطويل بين الإمبراطوريتين، سوف ينتهي بانحاط عسكري واقتصادي شامل يمكن أن يؤدي إلى انهيارهما. ولهذا السبب، أرسل شجاع بن وهب ومعه دحية ليدلّه على الطريق - وحمّله رسالتين لا رسالة واحدة؟ إحدى هاتين الرسالتين كانت للحارث بن أبي شمر الغساني، الزعيم القبلي(ووكيل بيزنطة المحلي) في بلاد الشام، والأخرى لقائد الحامية العسكرية البيزنطية. وهذا ما تقوله بدقة رواية صاحب عيون الأثر[1] الذي يتحدث عن كتاب النبي ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني عندما أرسله مع شجاع بن وهب.

تقول الرواية:

(وذكر الواقدي أن رسول اللّه بعث شجاعًا إلى الحارث بن أبي شمر وهو بغوطة دمشق، فكتب إليه مرجعه من الحديبية: بسم اللّه الرحمن الرحيم من محمد رسول اللّه إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن باللّه وحده لا شريك له يبقى لك ملكك. فختم الكتاب وخرج به شجاع بن وهب. قال فانتهيت إلى حاجبه فأجده يومئذ وهو مشغول بتهيئة الأنزال والألطاف لقيصر وهو جاءٍ - أي

(1) عيون الأثر، ج2/ 229.

قادم ـ من حمص إلى إيلياء، حيث كشف اللَّه عنه جنود فارس شكرًا للَّه تعالى. فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة، فخرج الحارث يومًا وجلس فوضع التاج على رأسه فأذن لي عليه فدفعت إليه كتاب رسول اللَّه ﷺ فقرأه ثم رمى به).

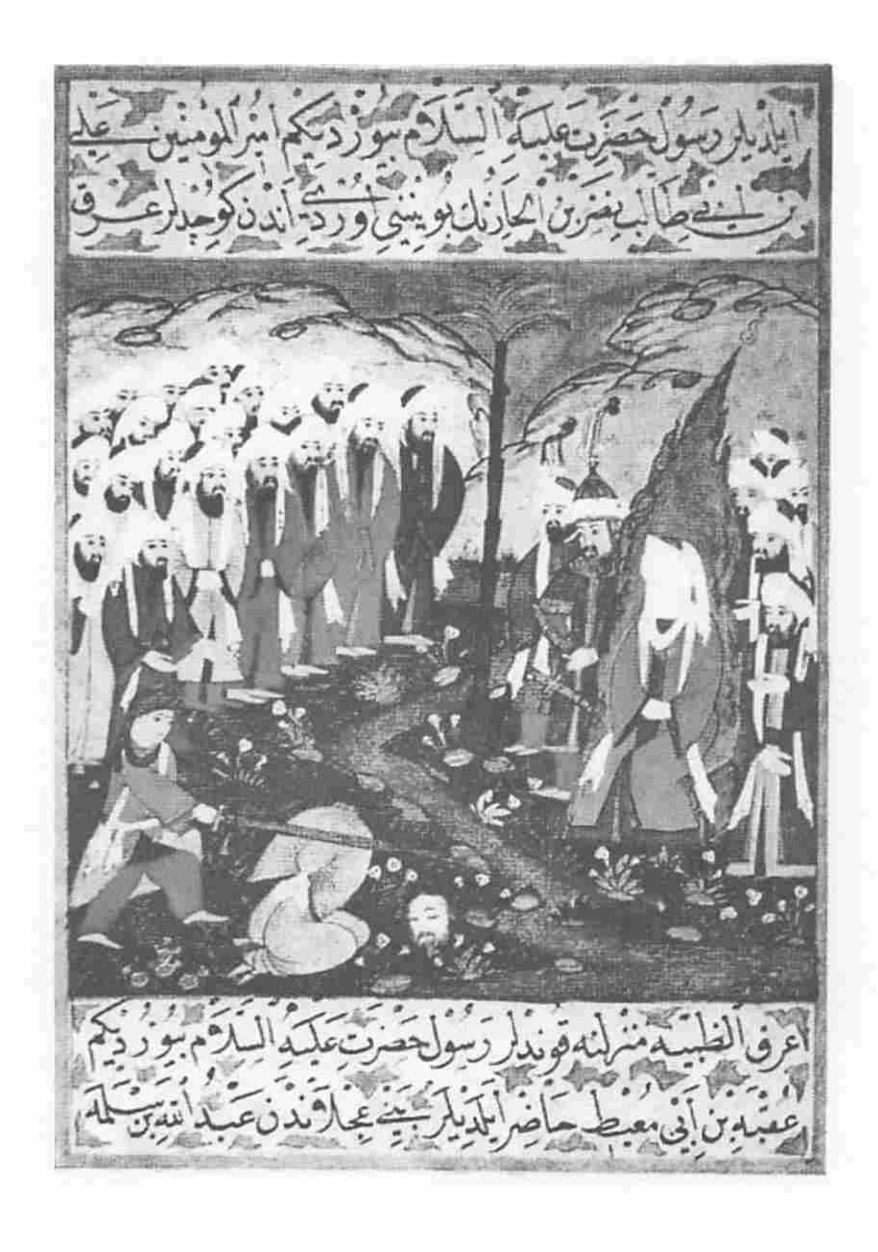
وفي هذه الرواية يتأكد لنا، أن موفد النبيّ ﷺ إلى الشام كان شجاع بن وهب وليس دحية، وأن وهب هو من تولى رواية ما جرى له مع الحارث الغساني، وأن هذا الزعيم هو من كان عائدًا من حمص ومتجهًا إلى إيلياء المدينة المسيحية المقدسة. بينما رأينا أن أبا سفيان هو من تولى رواية ما جرى له مع قائد الحامية البيزنطي. فمن هو دحية؟

حقًا من هو دحية الكلبي؟

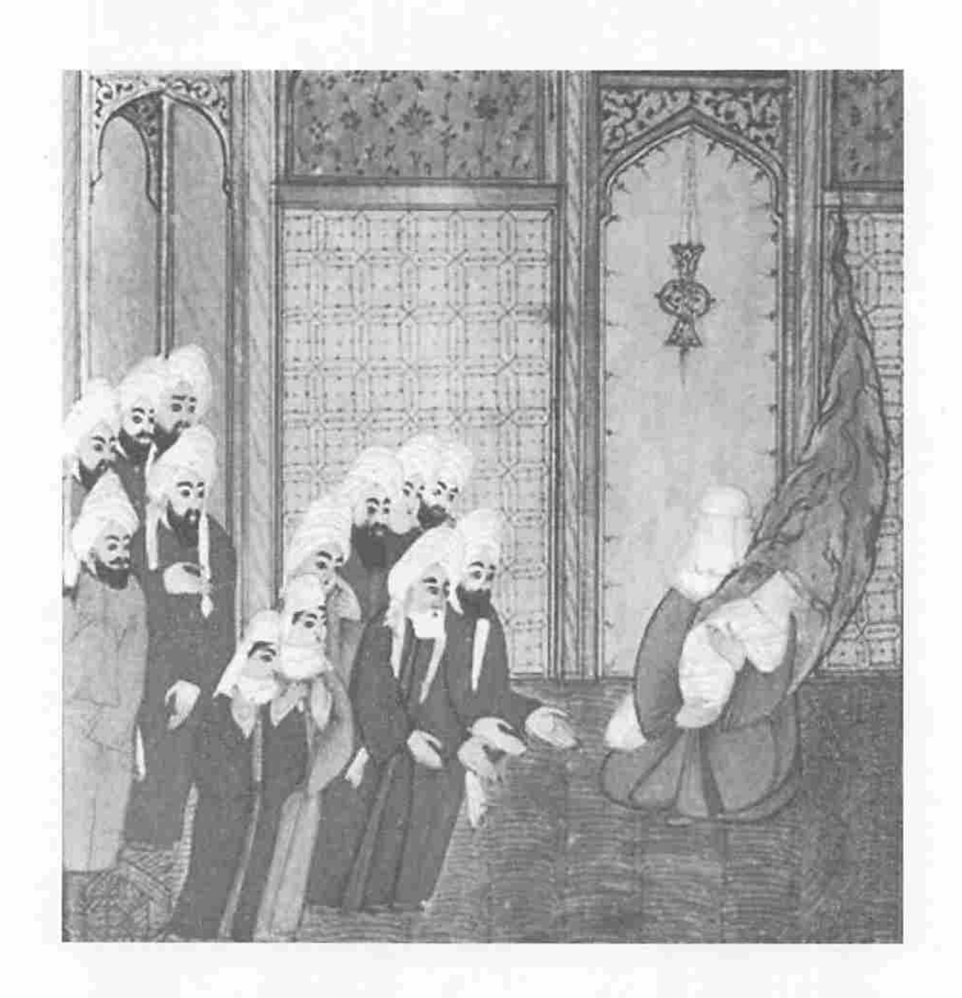
ملحق الصور





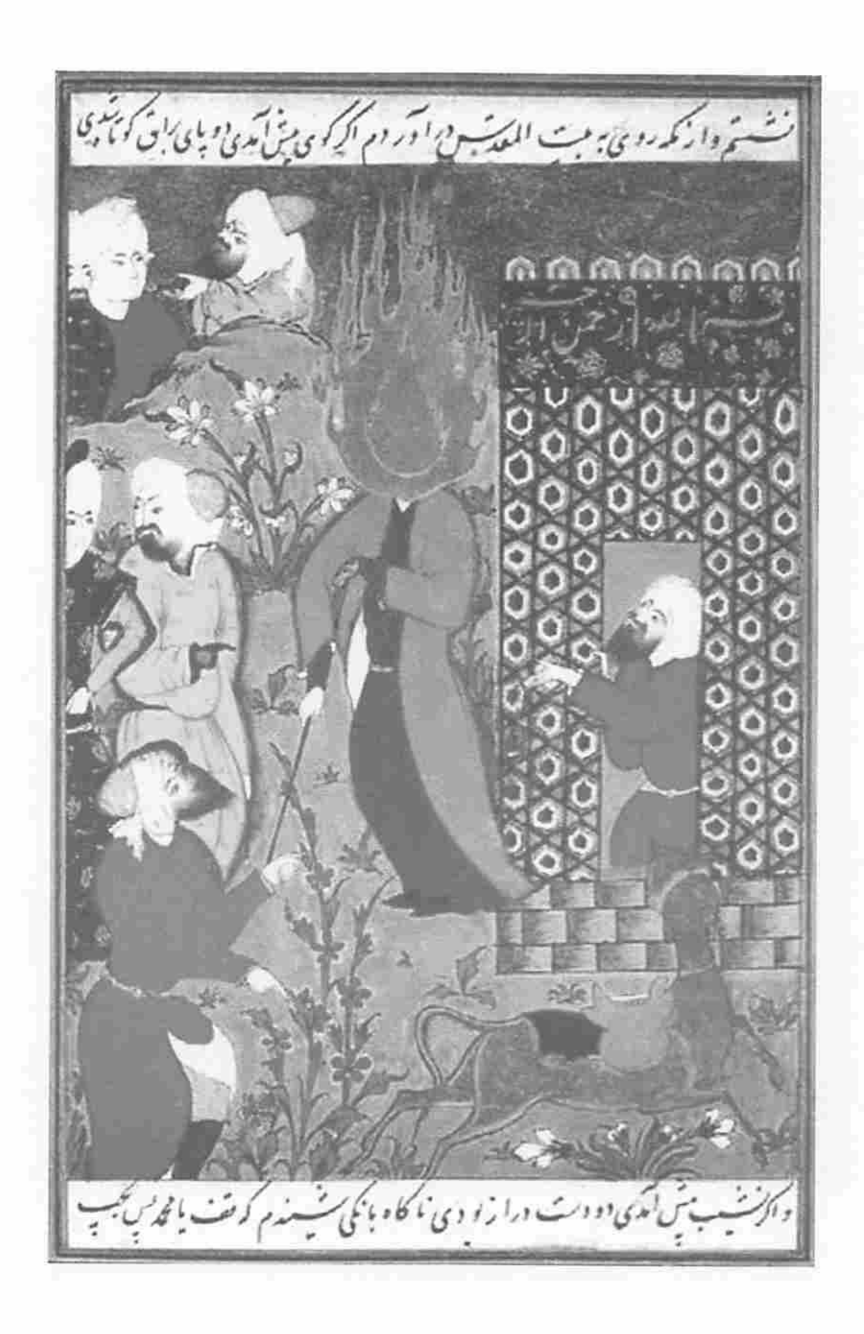


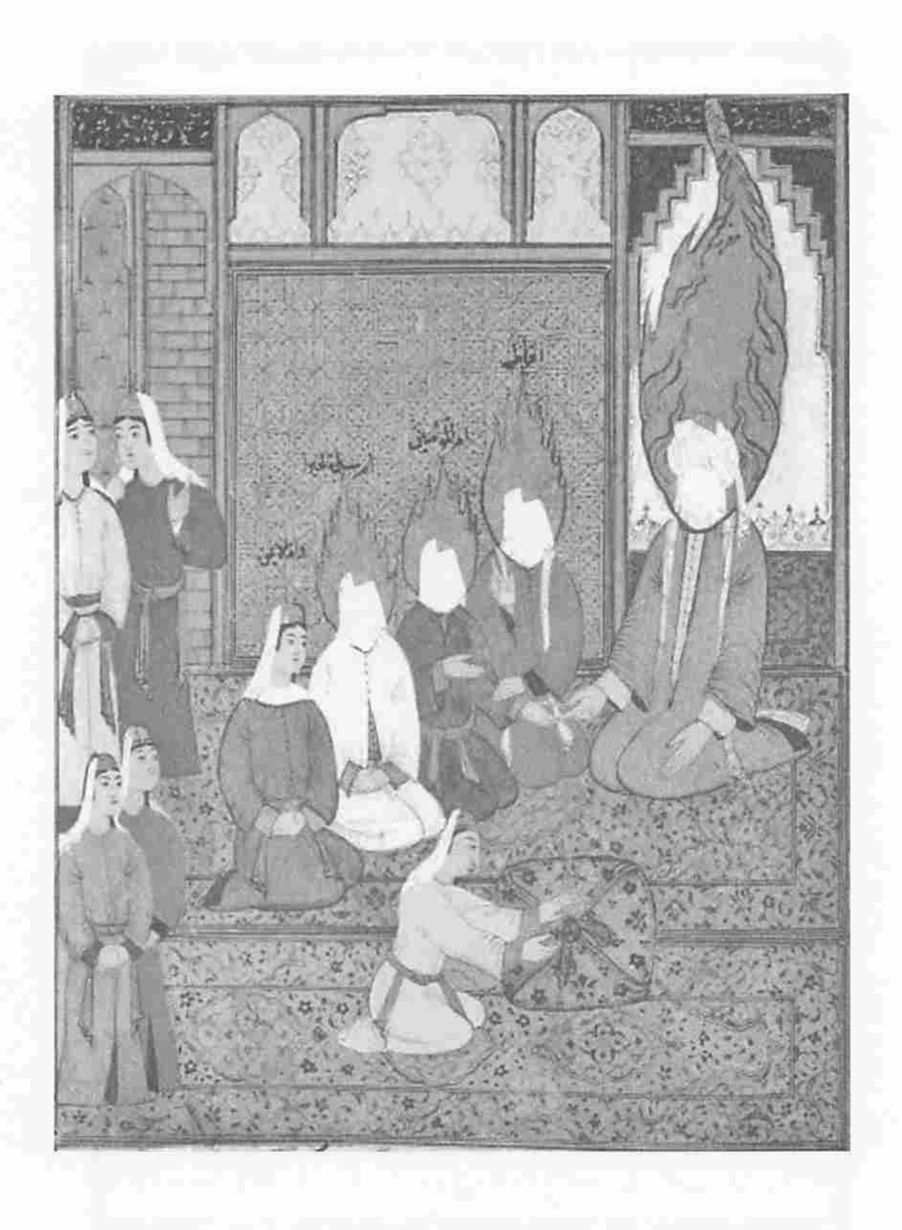


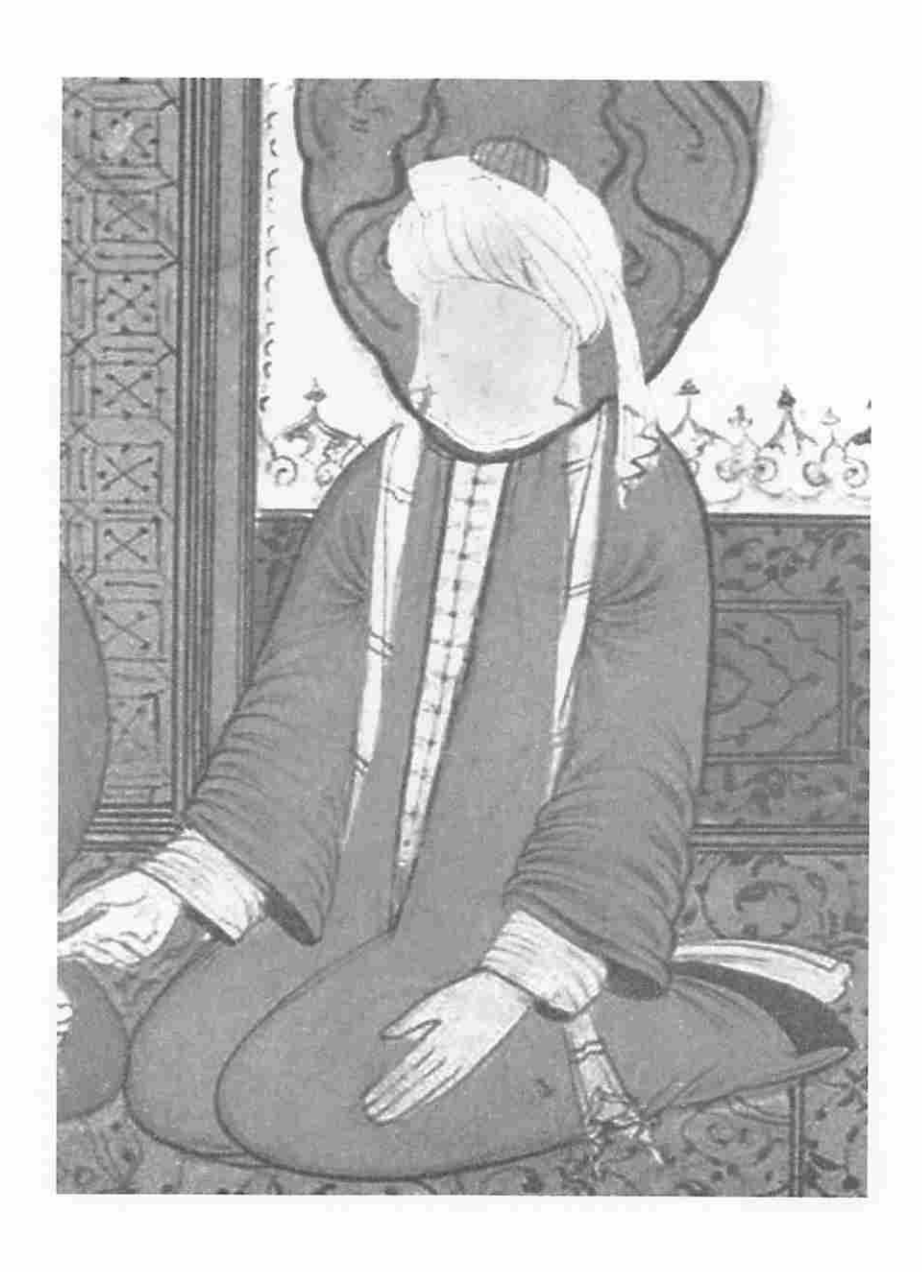


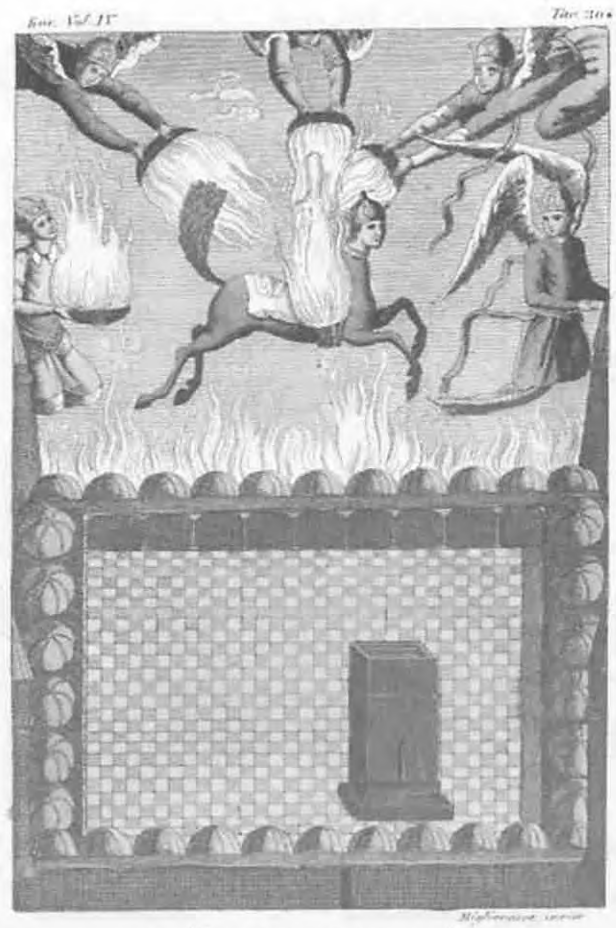





نشستم و از آنجا روی به بیت المقدس در آوردم اگر کوهی پیش آمدی دو پای براق کوتاه شدی
و اگر نشیب پیش آمدی دو دست دراز بودی ناگاه بانگی شنیدم که گفت یا محمد

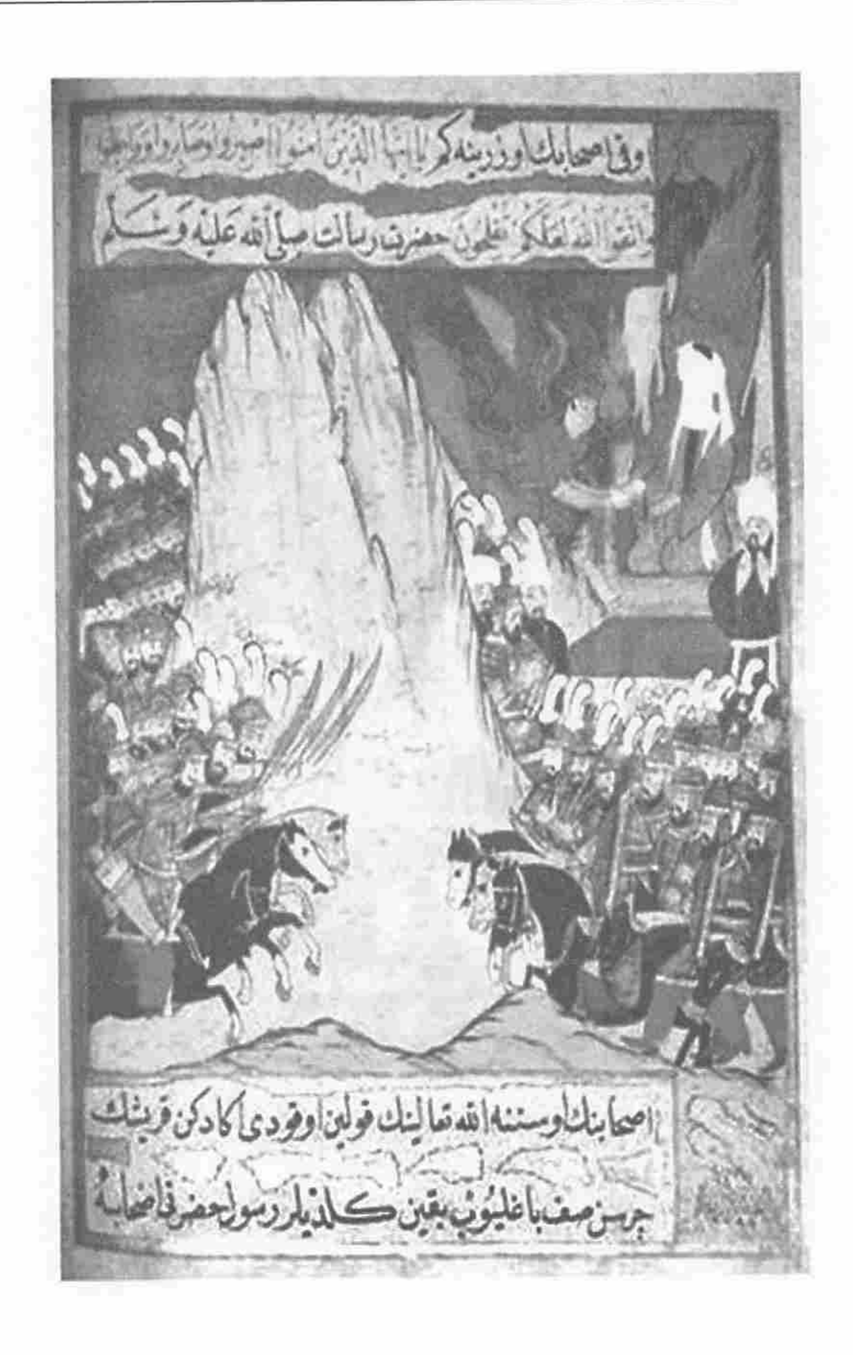






Maometto portato in cielo



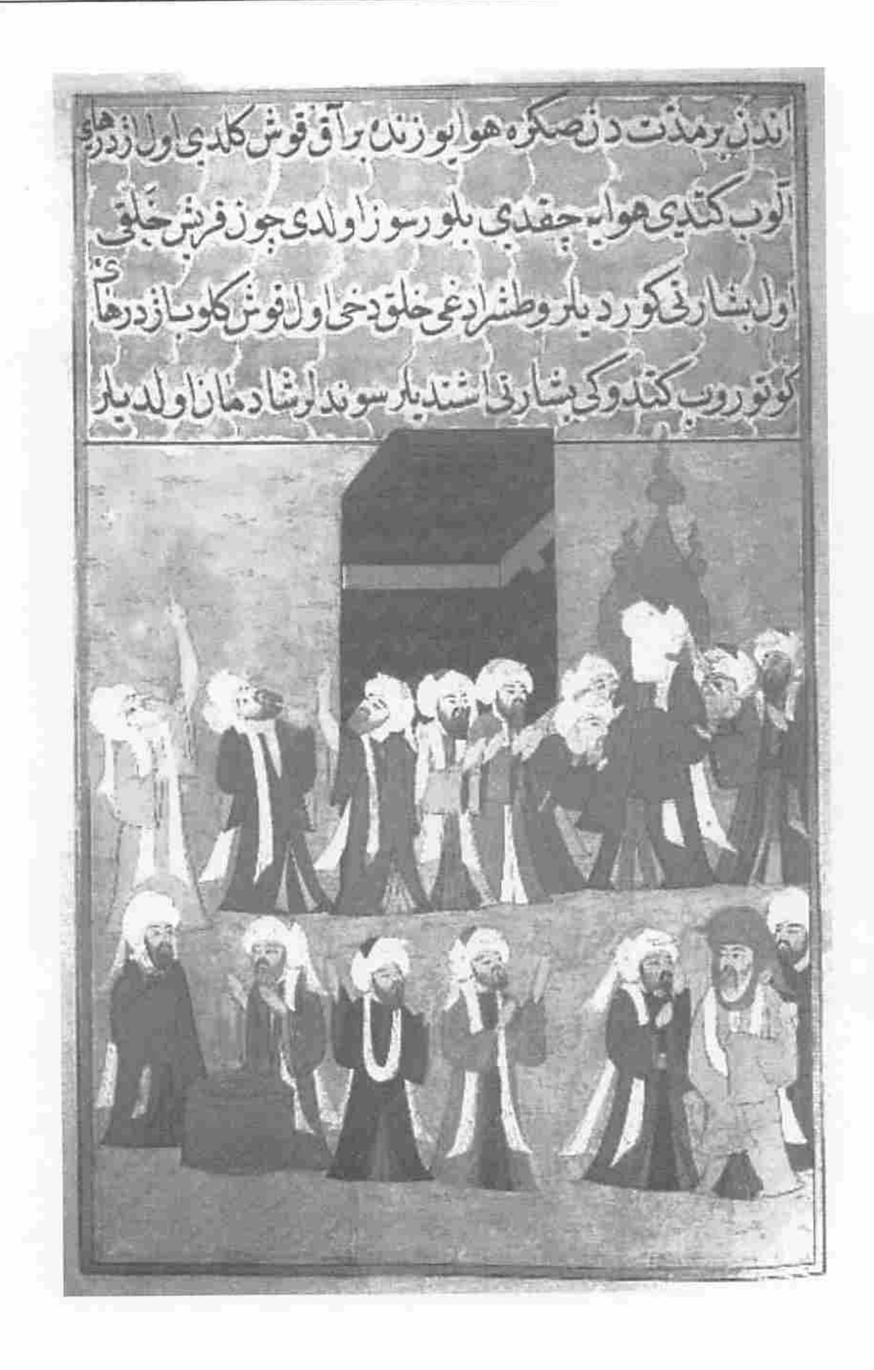


وفا اصحابك اوزرينه كم يا ايها الذين امنوا اصبروا وصابروا ورابطوا
اتقوا الله لعلكم تفلحون حضرت رسالت صلى الله عليه وسلم
اصحابك اوسننه الله تعالينك قولين اوقودى كادكن قريشك
جريس صف باغليوب بقين كلديلر رسول حضرتي اصحابه

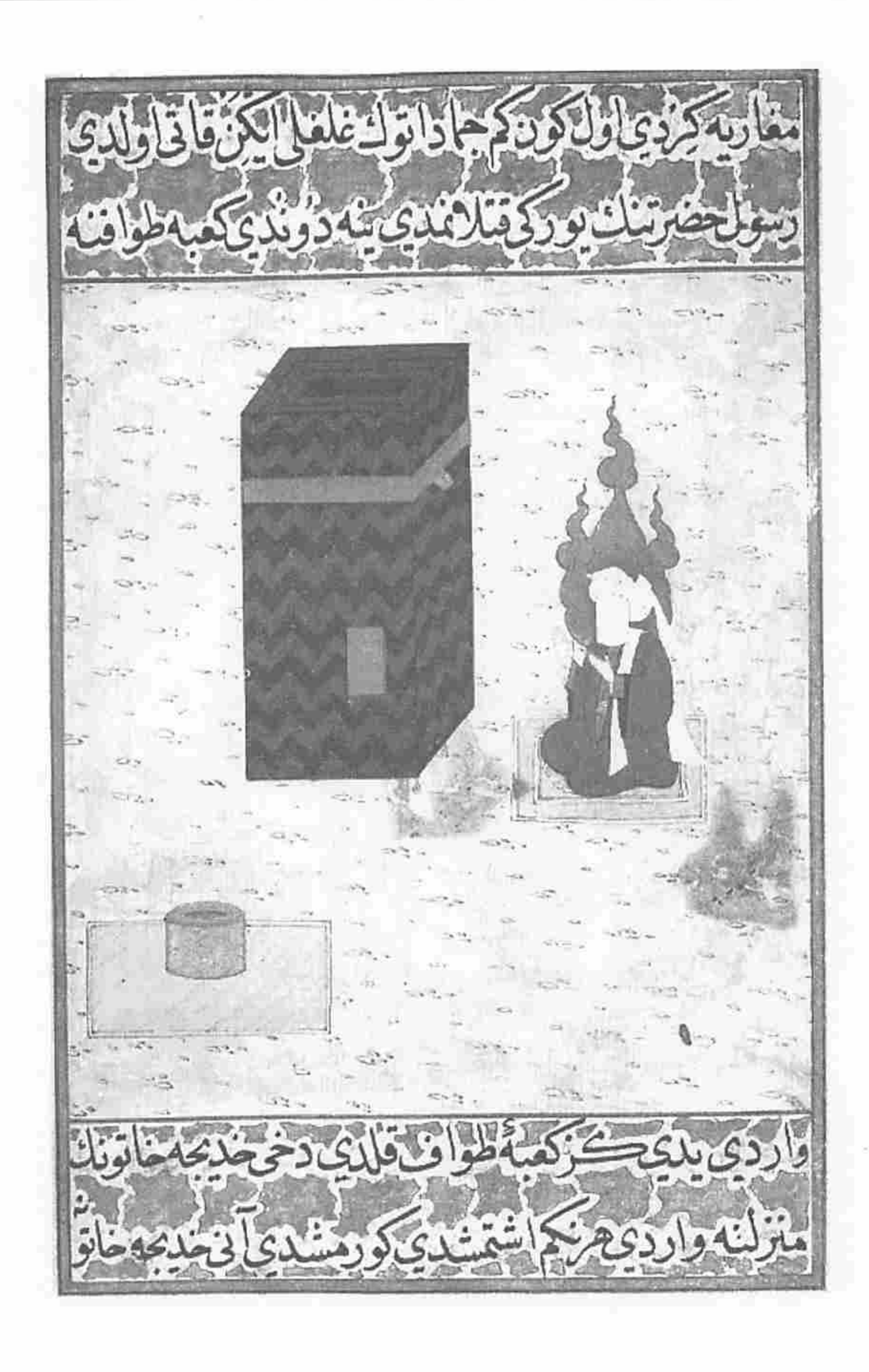


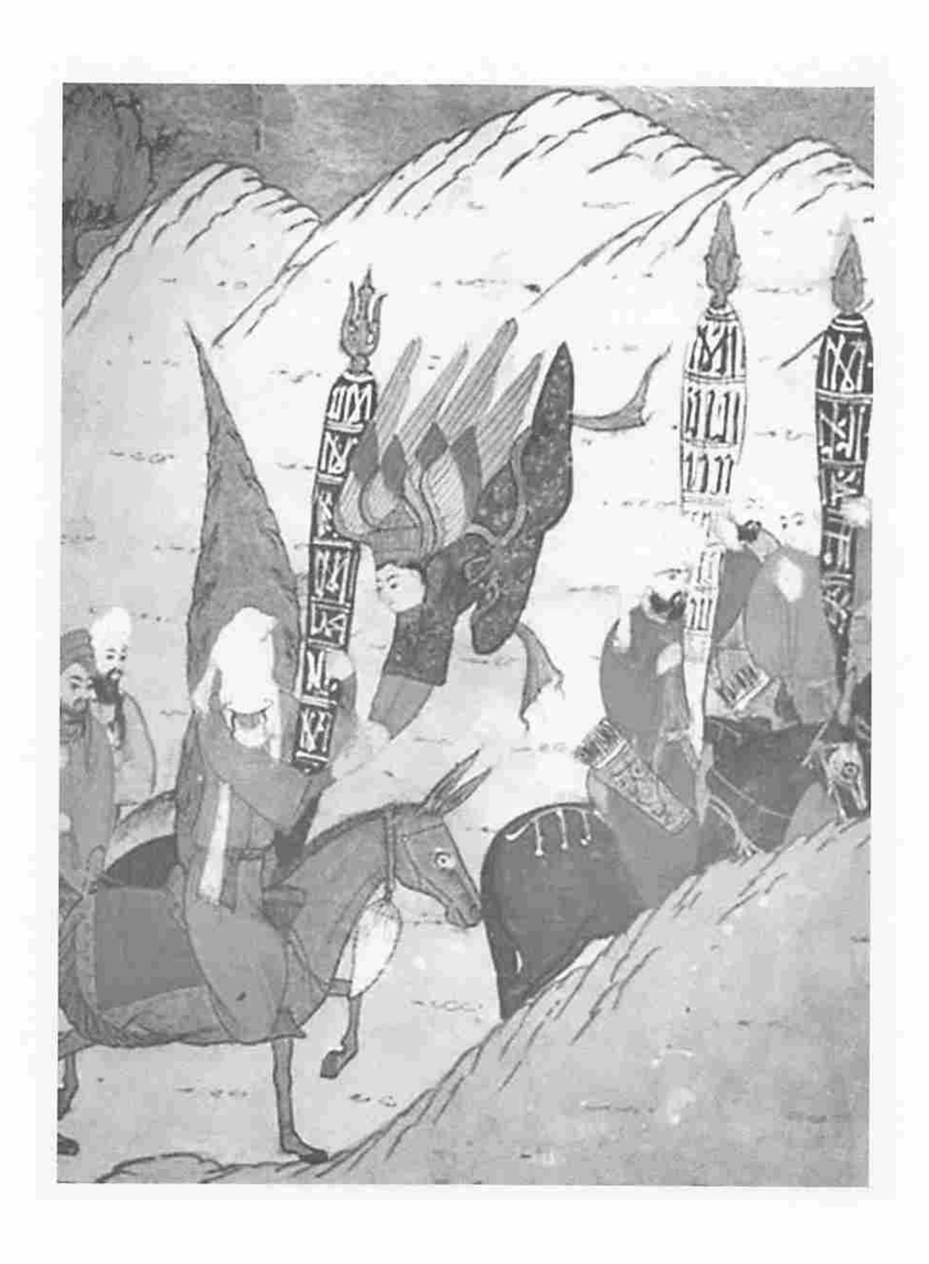


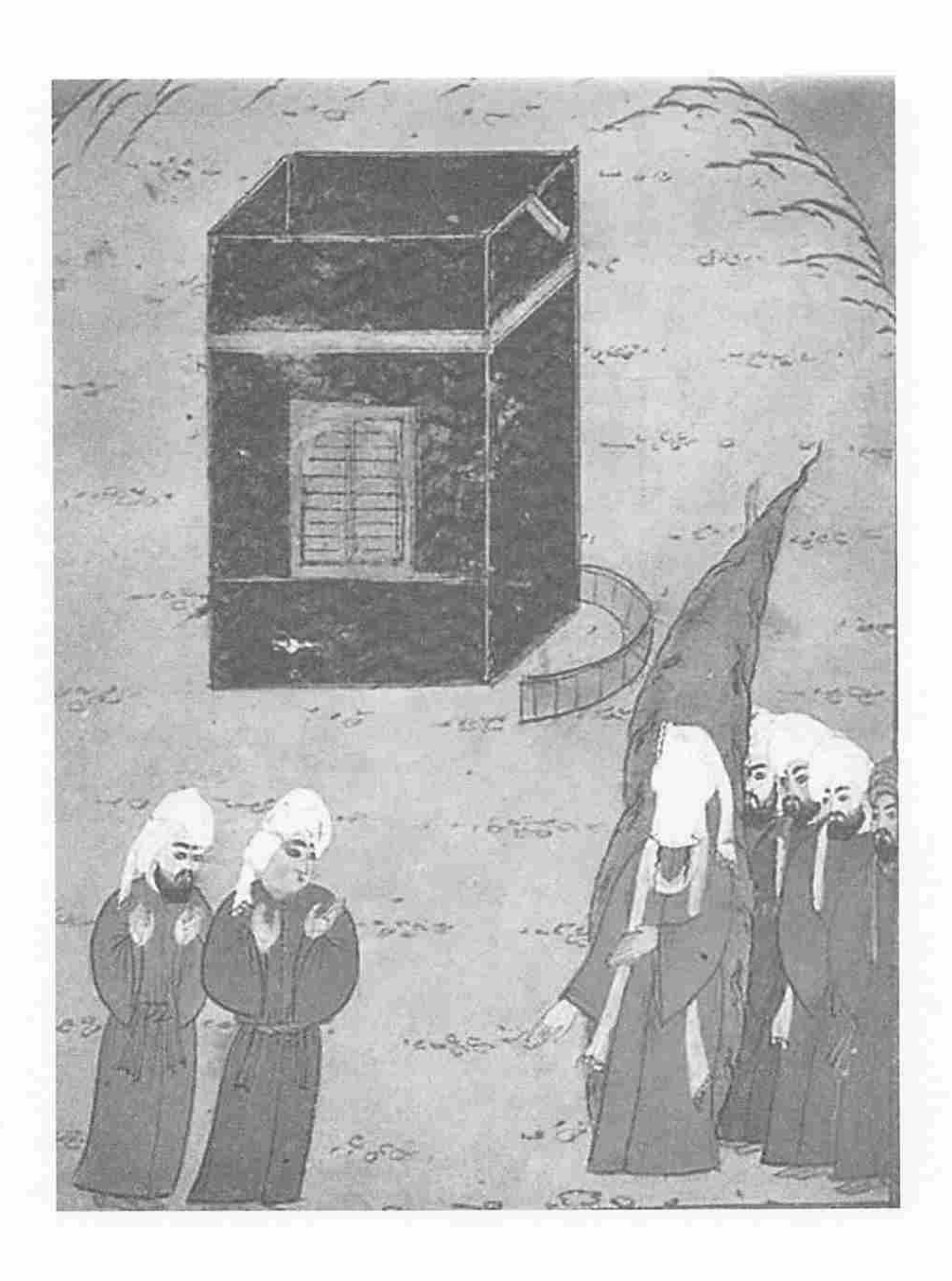



اندن بر مدت دن صکره هوا بوزلدی بر آق قوش کلدی اول ازدرهای
آلوب کتدی هوایه چقدی بلور سوز اولدی چون قریش خلقی
اول بشارتی کوردیلر و طشره دغی خلق دخی اول قوش کلوب ازدرهایی
کوتوروب کتدوکی بشارتی اشتدیلر سوندیلر شادمان اولدیلر


ددي اندن خديجه خاتون ايدور سيندوم محمد صبور
دوم ايتدم كم يا حبيبي يا محمد ما الخبر نه حكايت دور ديدوم دير
اشتم
رسول عليه السلام ايتدي يا خديجه هذا اخي جبرائيل اوش قرندا
دى
جبرائيل كلوب دوردي اندن خديجه خاتون تيز يرندن دور


مغاريه گیردی اول كون كم جماداتوك غلغلی ایكن قاتی اولدی
رسول حضرتنك يوركی قتلانمدی ینه دوندی كعبه طوافنه
واردی یدی كز كعبه طواف قلدی دخی خدیجه خاتونك
منزلنه واردی هر نكم اشتمشدی كورمشدی آنی خدیجه خاتو



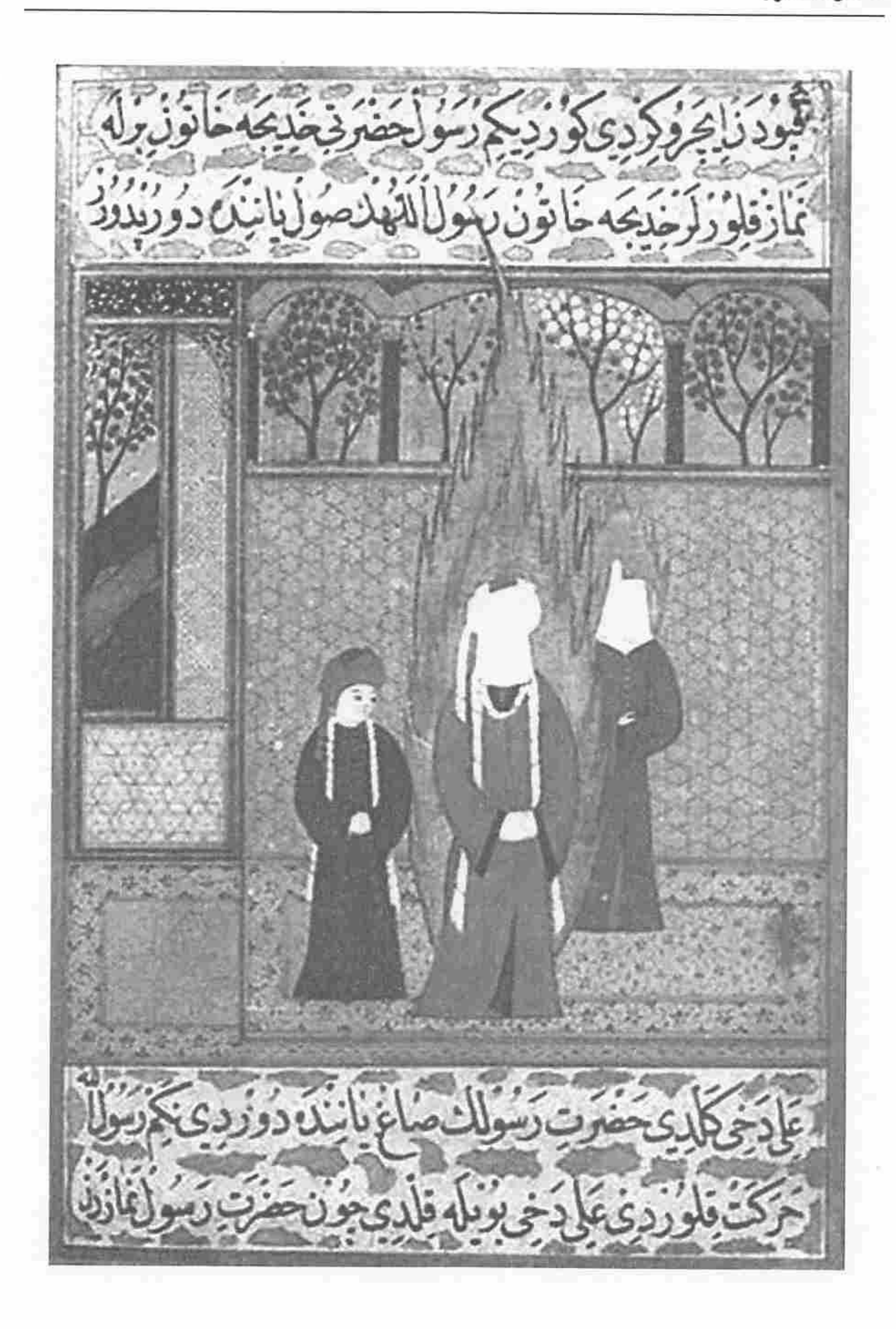



طاغنه چقدی طاغك یاروسنه ایرشجك بنه رسول حضرتنك
قولاغنه اولكدن قاتی برهیبتلو آواز كلدی الی این ترید یا محمد
الا این ترید یا خیرة الله من خلقه ددی بنه رسول الله حضرت
دورت یاننه باقدی كمسنه كورمدی ولیكن بر كوك اراسی

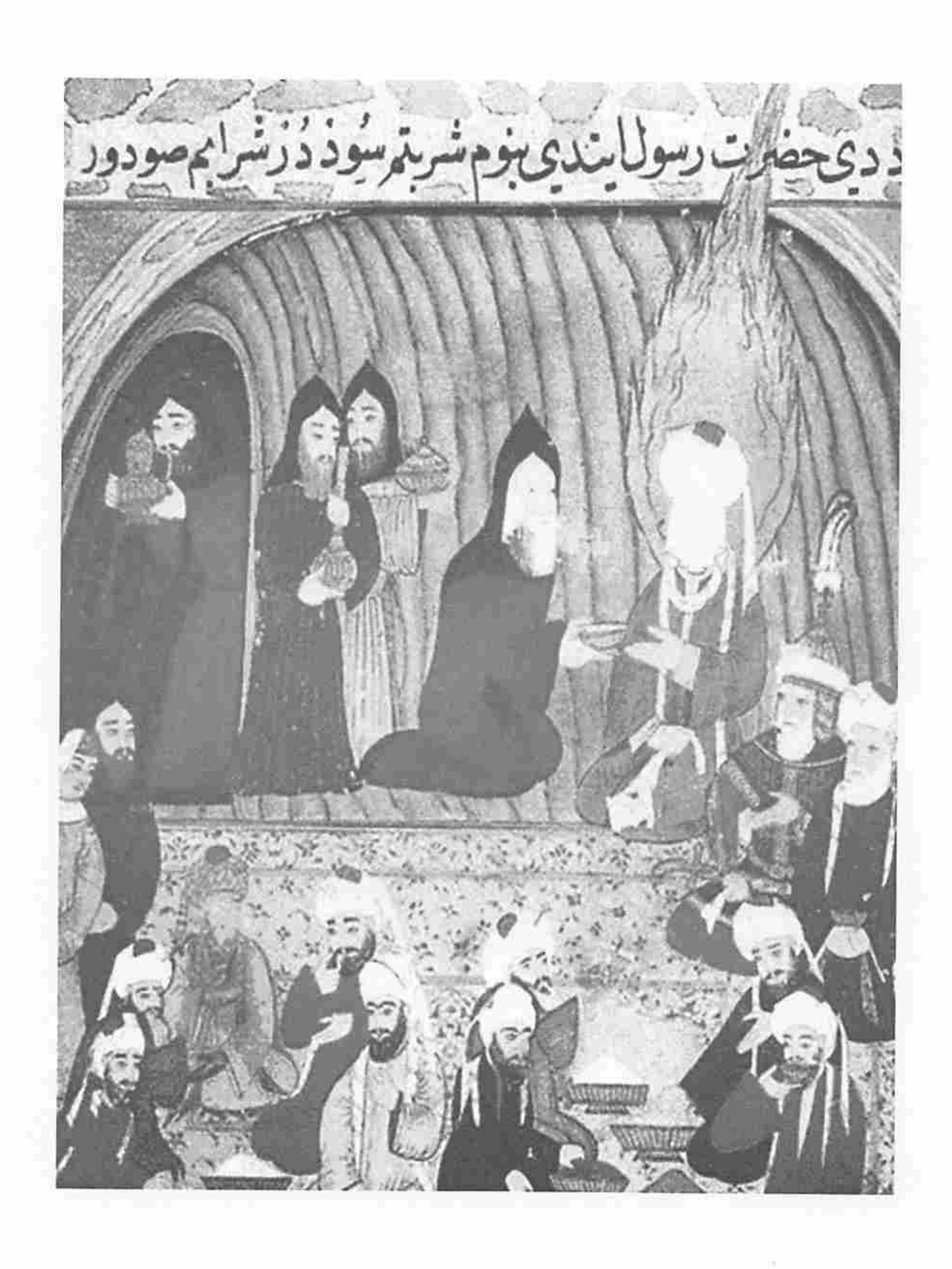





علیه السلام دیمری دیر سکوز اولدی ددی عمر دخی اولدوکن
بیلدی بو فصلده خلافت دعوتنه دوشدکلری بیان
ایدر راویدر بو بنده شونیله روایت قلورلر کیم ابو الحسن البکری
محمد ابن اسحاق قولندن رحمة الله علیه ایدورلر کیم

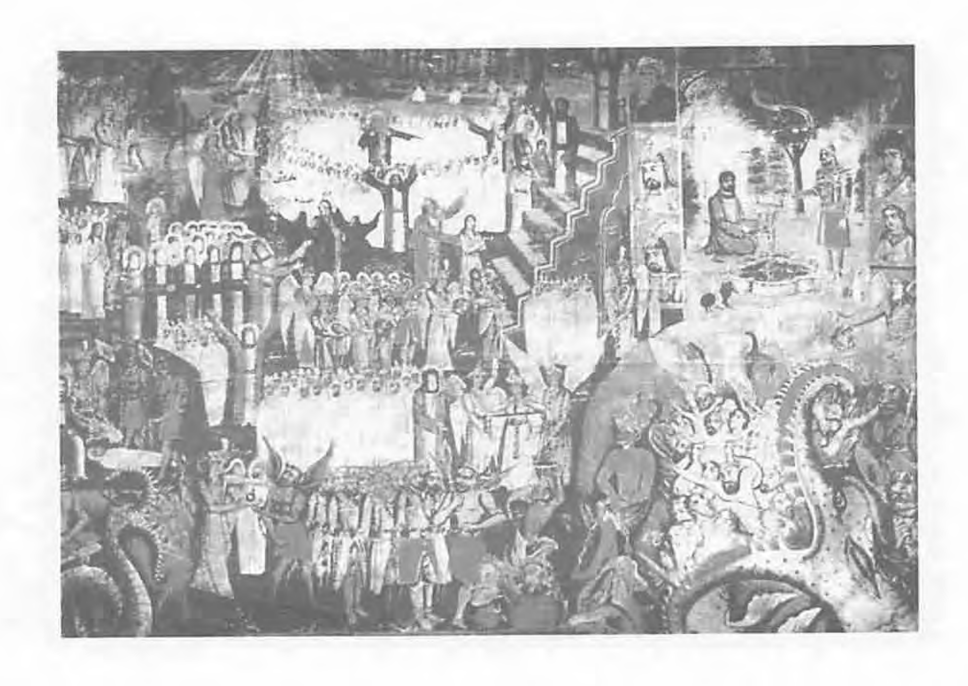

قپودن ايچرو گردي گوردكم رسول حضرتي خديجه خاتون بله
نماز قلورلر خديجه خاتون رسول اللهڭ صول يانينده دوريدور
علي دخي گلدي حضرت رسولڭ صاغ يانينده دوردي نگم رسول الله
حركت قلوردي علي دخي بويله قلدي چون حضرت رسول نماز

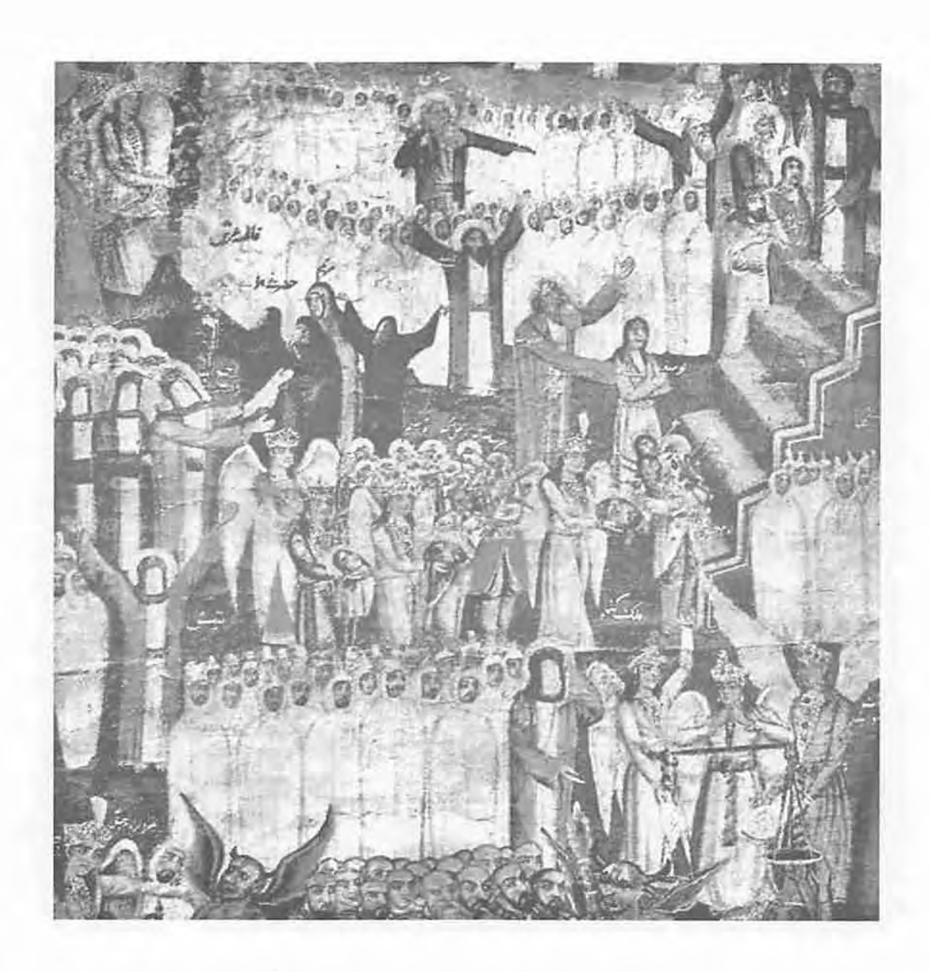

الله وجهه رسول حضرتنك اوكنجه ایکی علم ایکی الندن
طوتمشدور وجبرائيل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل بودرت
مقرب فرشته‌لر رسول حضرتنك دورت یاننده تکبیر
کتورورلر اندن جبرائیل امین رسول حضرتنه بوایت

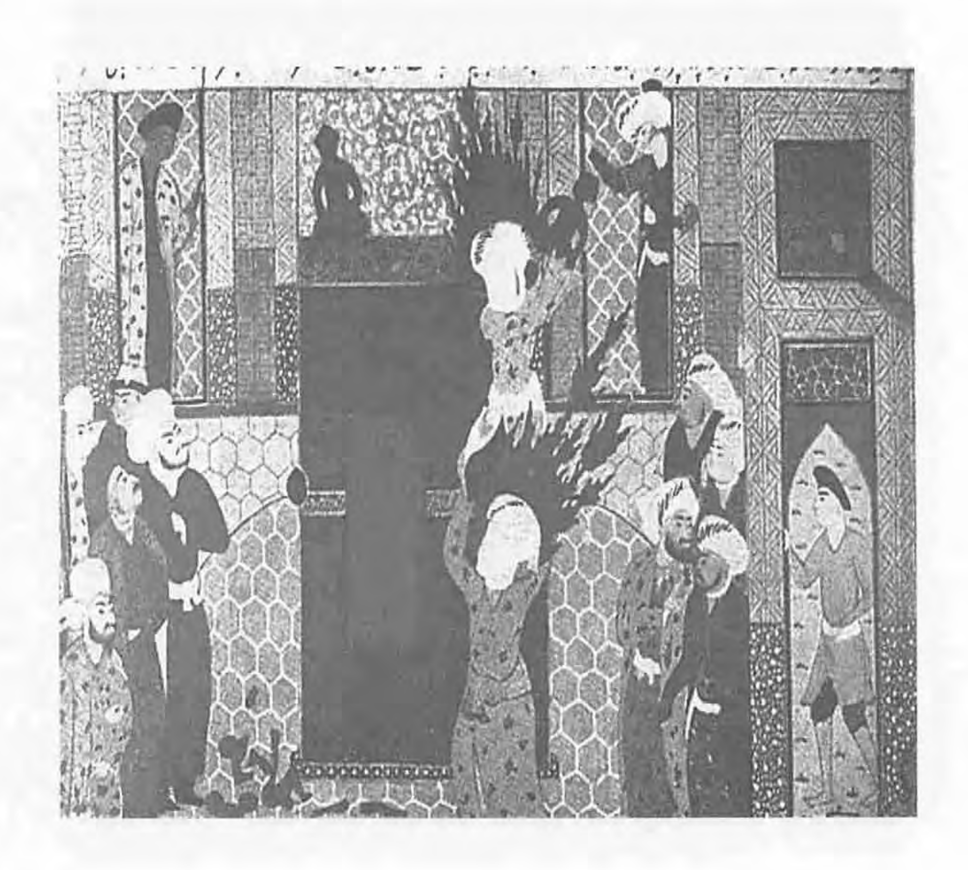

د دي حضرت رسول ايندي بنوم شربتم سوذ دز شرابم صودور

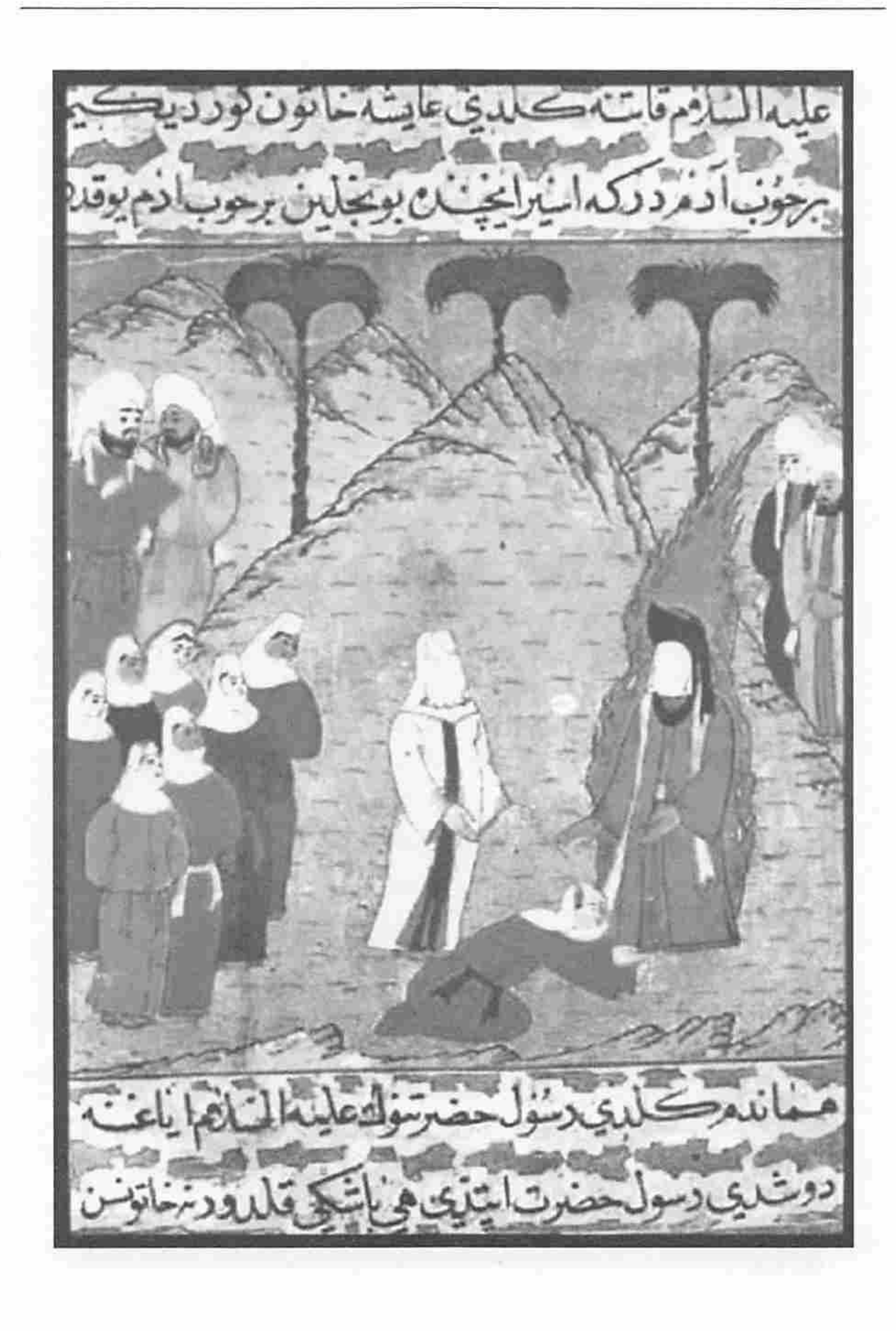


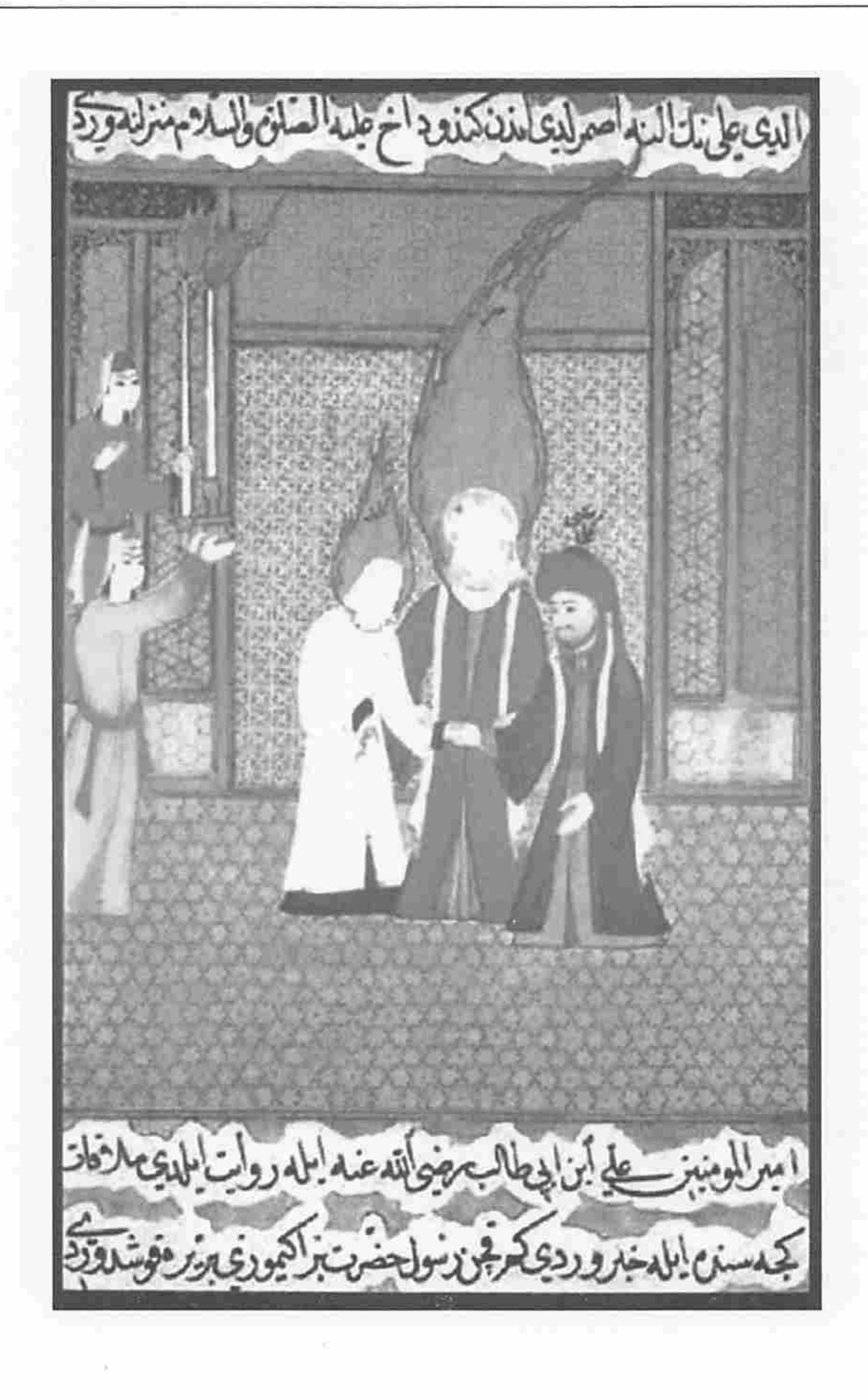


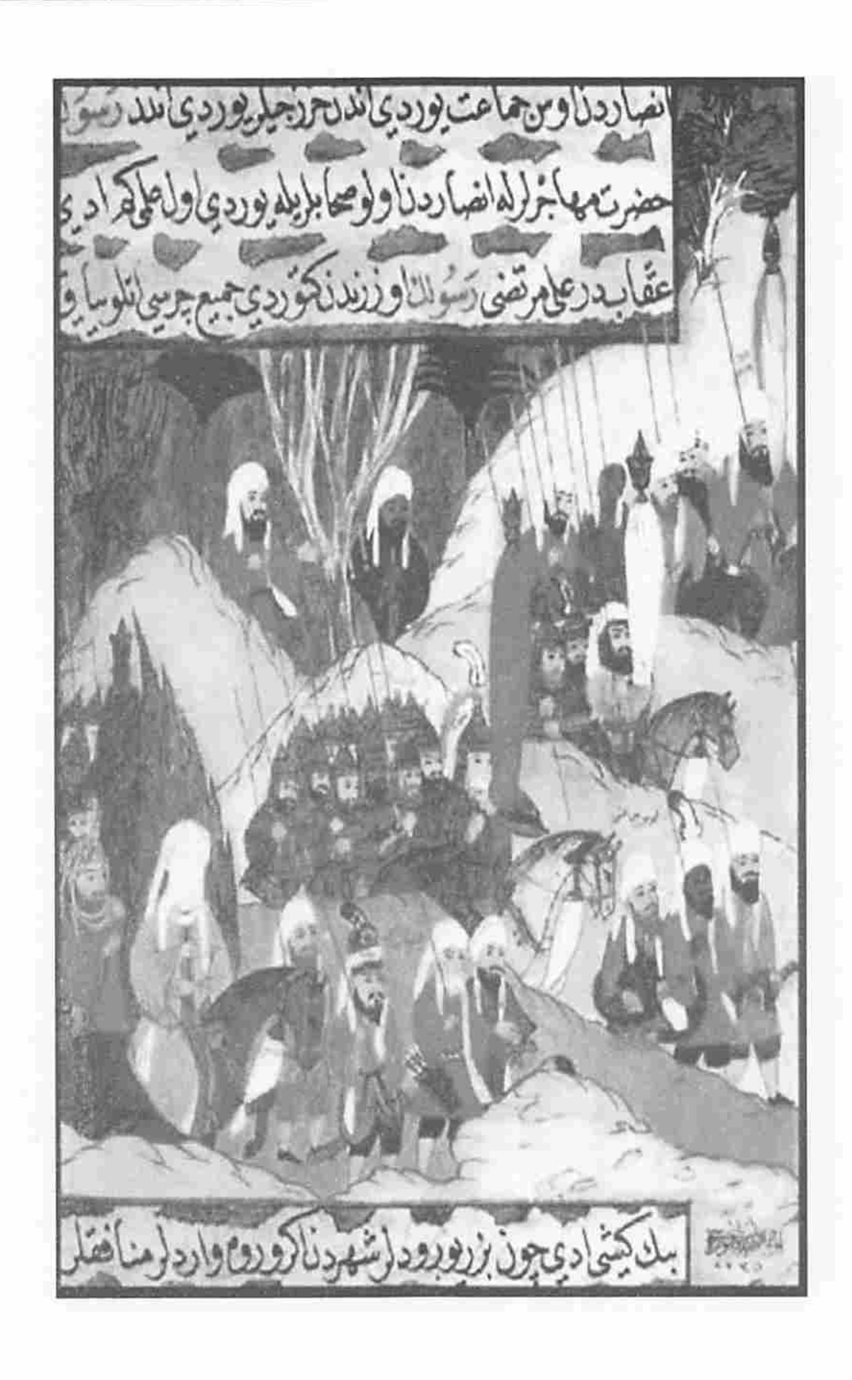








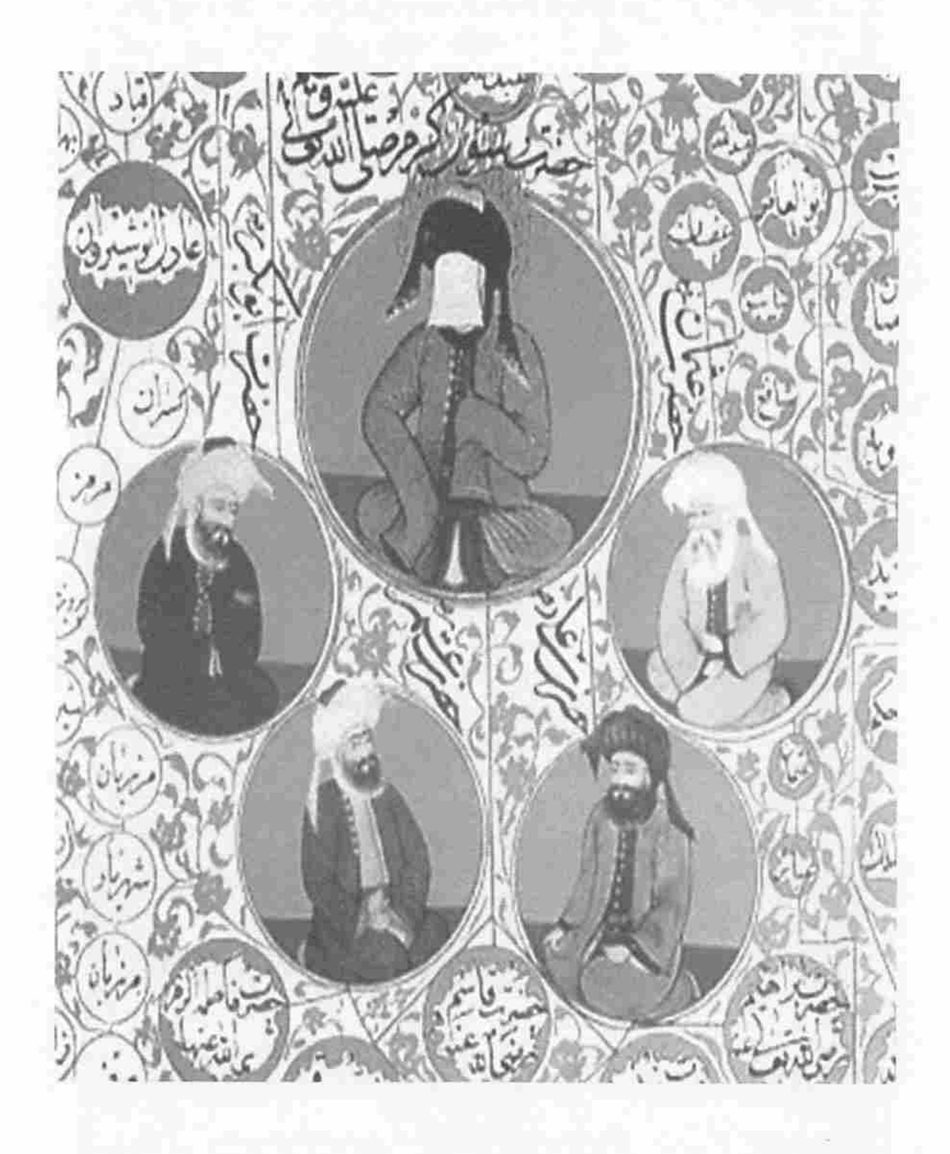


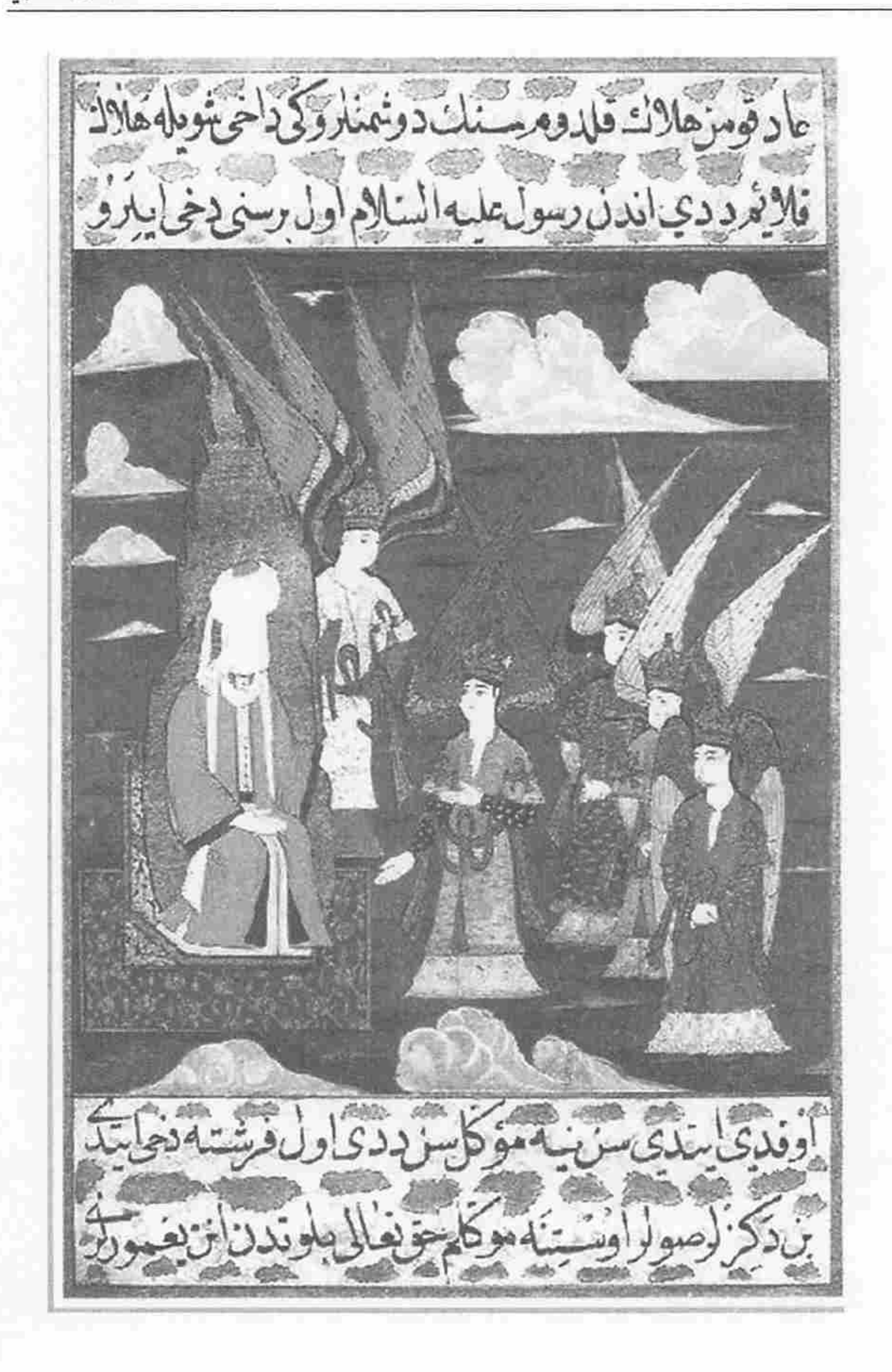



جبرائیل رسول الله حضرتنه کلدي ایتدي یا حبیبی یا محمد الله تعالی
سکا سلام قلور وسنك قدرکی عزتکی قربکی یر اهلنه وکوك
اهلنه بلدوردی دیدی اندن صکره رسول علیه السلام ایتدی
یا اخی جبرائیل الله تعالی بنوم قدرمی منزلمی قربمی بو مخلوقاته





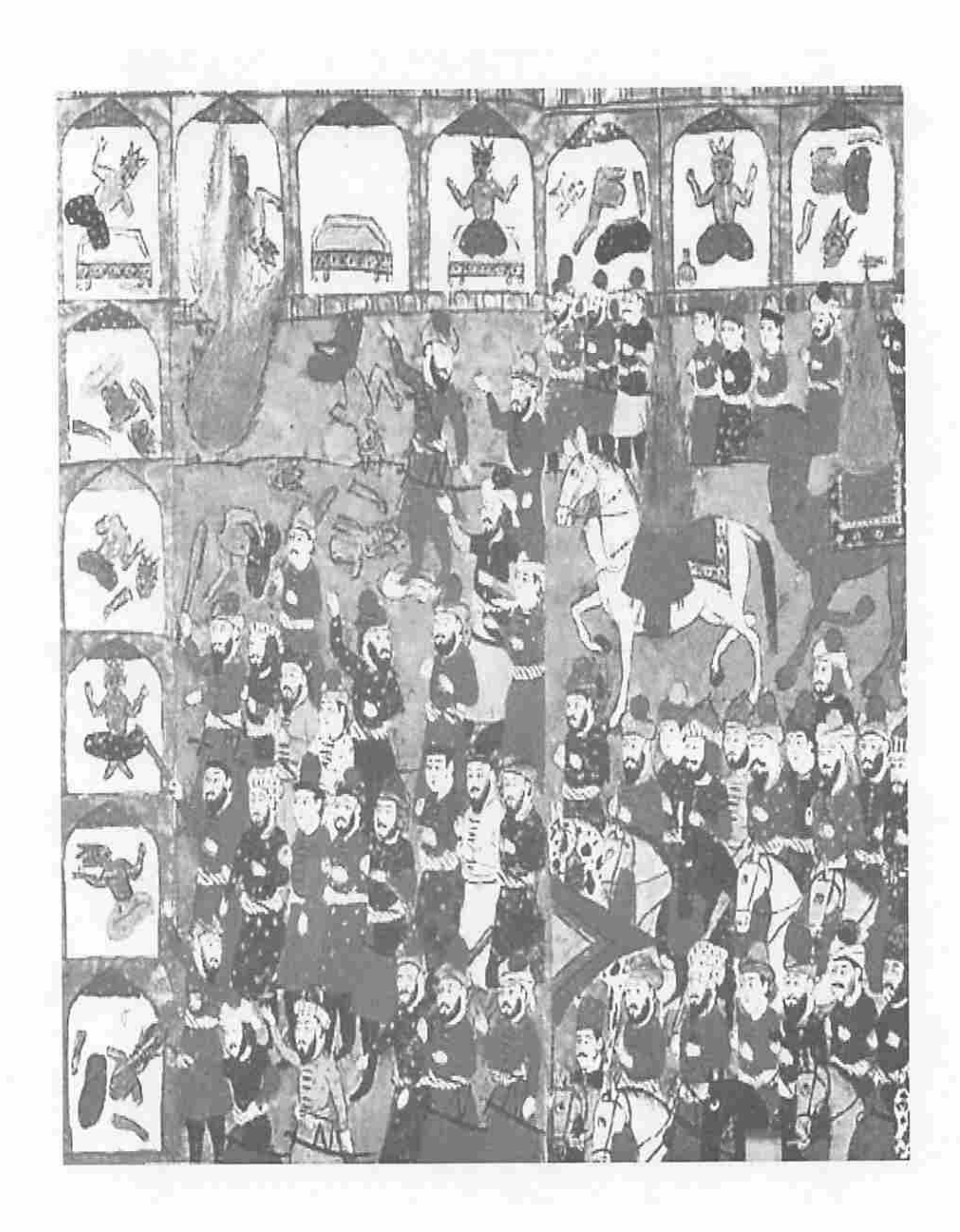

قباد
عادل انوشيروان
مرزبان


عاد قومن هلاك قلدوم سنك دوشمنلروكى داخى شويله هلاك
قلايم ديدي اندن رسول عليه السلام اول برسنى دخى ايدرو
اوقدى ايتدى سن نيه موكلسن ديدى اول فرشته دخى ايتدى
بن دكز صولرا وسنه موكلم حق تعالى بلوتدن اين يغمورلر

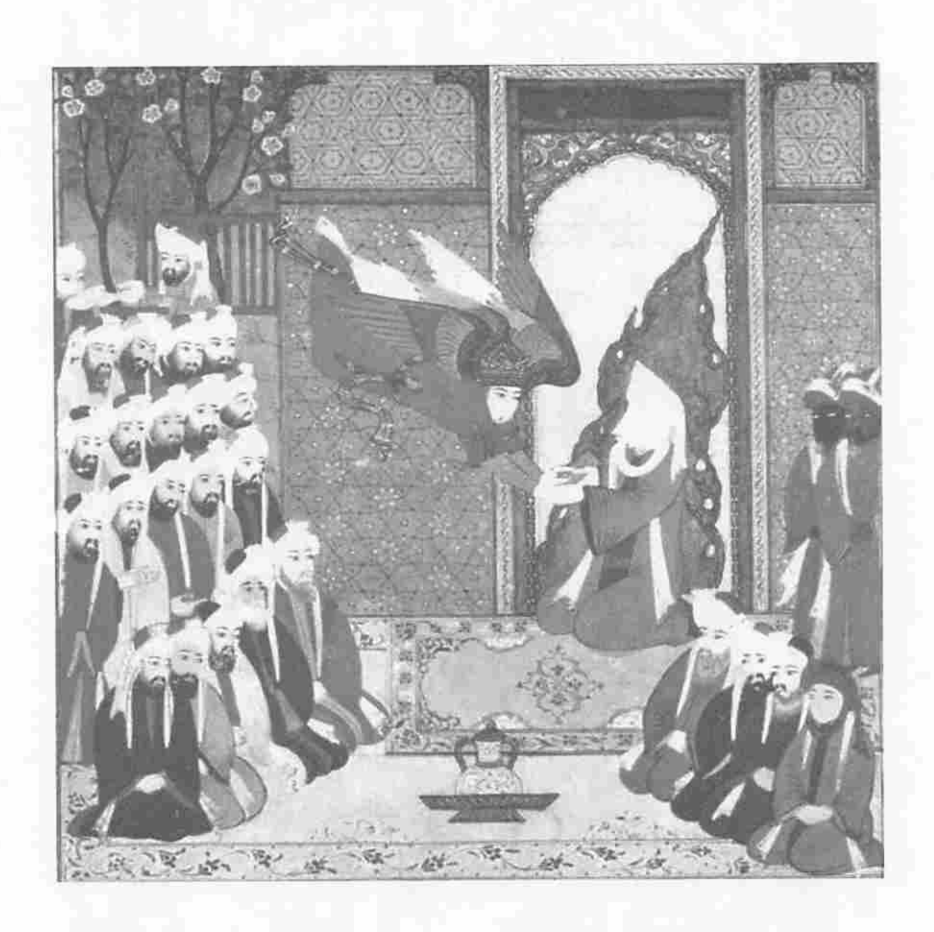




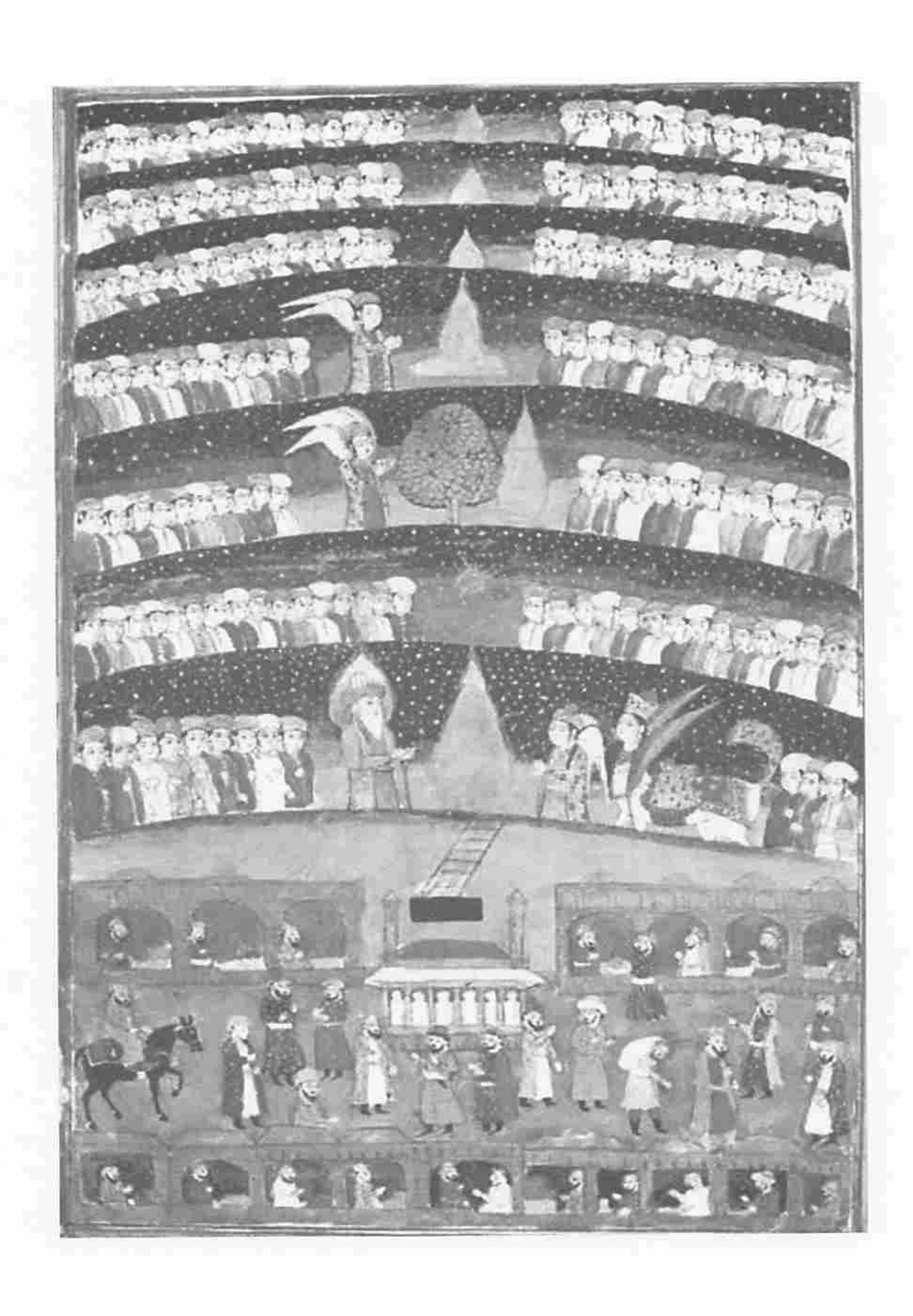






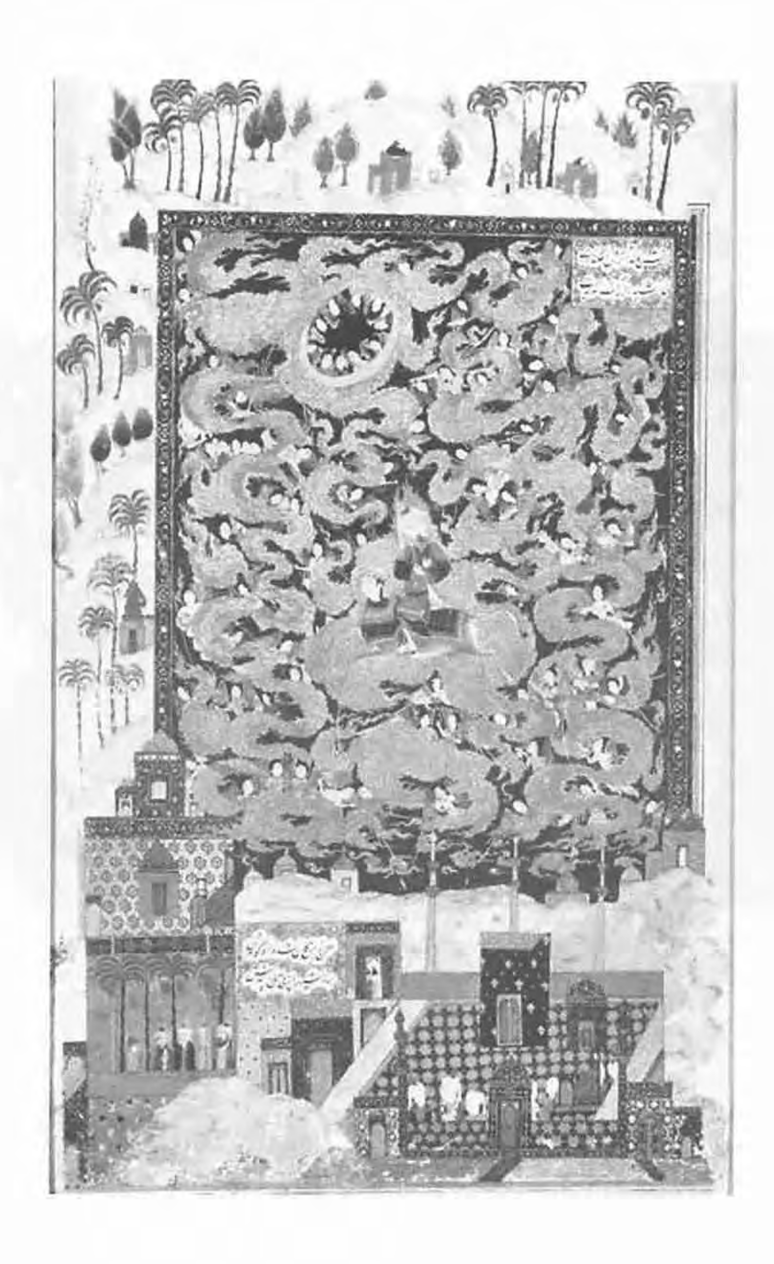



علی برله اولندر ... ددی اندن جبرائیل ینه کوکه اغدی












بسم الله الرحمن الرحيم
وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين


محمد
وُجودٌ أضاءَ الكون
عظم الله أجورنا وأجوركم بذكرى وفاة
الرسول الأعظم محمد
صل الله عليه وآله وسلم

مصادر ومراجع

1: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي **سنن البيهقي الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا: مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، 1414هـ - 1994م.

2: أحمد بن علي القلقشندي - **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** - دار الفكر - دمشق - الطبعة الأولى، 1987م.

3: أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري، **أنساب الأشراف**، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي - دار الفكر - 1996م.

4: إسماعيل حقي البروسوي، **تفسير حقي: (روح البيان في تفسير القرآن)** مصدر الكتاب: موقع التفاسير:

http://www.altafsir.com

5: أبو تمام (الطائي): **نقائض جرير والأخطل** - طبعة بيروت سنة 1922م.

6: جرير بن عطية الخطفى - **ديوان جرير**، دار بيروت للطباعة والنشر - 1986م.

7: الحافظ ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري** - المحقق: عبد العزيز بن عبد اللّه بن باز ومحب الدين الخطيب - دار الفكر - دمشق.

8: الحافظ ابن حجر العسقلاني - **الإصابة في تمييز الصحابة** - تحقيق علي محمد البجاوي - دار الجيل، بيروت 1992م.

9: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، **المحكم والمحيط الأعظم**، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت 2000م.

10: أبو الحسن اليمني القرطبي ـ **التعريف بالأنساب والتنويه بذوي الأحساب** ـ مصدر الكتاب: موقع الوراق
http://www.alwarraq.com

11: حسين بن محمد بن الحسن الدِّيار بَكْري، **تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس**، دار صادر ـ بيروت 2010م.

12: الحلبي، علي بن إبراهيم، **السيرة الحلبية** (المسمى إنسان العيون في سيرة المأمون) تحقيق: عبد اللّه محمد الخليلي ـ دار الكتب العلمية، بيروت 2002م.

13: الخزاعي، **تخريج الدلالات السمعية له ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات**، تحقيق: إحسان عباس: دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ لبنان1985م.

14: ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، طبعة دار الفكر ـ سورية.

15: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، **سنن أبي داود** ـ دار الكتاب العربي . بيروت.

16: ابن سيد الناس: **عيون الأثر في المغازي والسِّير**، موقع أم الكتاب http://www.omelketab.net

17: ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة** ـ مصدر الكتاب: موقع الوراق http://www.alwarraq.com

18: الإمام شمس الدين أبو عبد اللّه بن قيم الجوزية، **زاد المعاد** ـ مؤسسة الرسالة 1998م.

19: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**. تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري ـ دار الكتاب العربي. ـ لبنان، بيروت ـ 1987م.

20: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ـ **نهايه الأرب في فنون الأدب** ـ طبعة مصر 1924م.

21: شهاب الدين محمد بن أحمد أبو الفتح الأبشيهي، **المستطرف في كل فن مستظرف**، تحقيق: د.مفيد محمد قميحة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت 1986م.

22: شهاب الدين محمود بن عبد اللّٰه الحسيني الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تحقيق: علي عبد الباري عطية ـ مصدر الكتاب: موقع التفاسير http://www.altafsir.com

23: الصاحب بن عباد، **المحيط في اللغة** ـ موقع الوراق
http://www.alwarraq.com

24: أبو عبد اللّٰه محمد بن عمر بن واقد الواقدي ـ **مغازي الواقدي** ـ مصدر الكتاب: موقع الإسلام
http://www.al-islam.com

25: ابن عبد البر، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ـ المحقق: علي محمد البجاوي ـ دار الجيل ـ بيروت.

26: ابن عبد ربه الأندلسي، **العقد الفريد**، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ 1983م.

27: الإمام المحدث عبد الرحمن السهيلي: **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية**، تحقيق وتعليق وشرح: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الإسلامية 1967م.

28: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي **سنن النسائي** ـ مصدر الكتاب: موقع الإسلام
http://www.al- islam.com

29: عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني ـ **الأنساب** ـ تقديم وتعليق: عبد اللّٰه عمر البارودي.
صفحة الكتاب: http://www.archive.org/details/ansab_smani

30: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ـ **السيرة النبوية** ـ مؤسسة علوم القرآن.

31: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم** ـ سامي بن محمد سلامة ـ دار طيبة للنشر والتوزيع ـ 1999م.

32: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ابن منظور) ـ **لسان العرب** ـ بيروت، دار صادر2003م.

33: ابن قتيبة الدينوري، **المعارف** ـ تحقيق الدكتور ثروت عكاشة ـ طبعة دار المعارف بمصر.

34: القرطبي، **تفسير القرطبي**، تحقيق هشام سمير البخاري ـ دار عالم الكتب ـ الرياض ـ المملكة العربية السعودية 2003م.

35: ابن كنان، **يوميات شامية** ـ مصدر الكتاب: موقع الوراق
http://www.alwarraq.com

36: كنزا ربه ـ **الكنز العظيم** ـ الكتاب المقدس للصابئة المندائيين ـ طبعة بغداد 2001 ترجمة يوسف متى قوري وصبيح مدلول السهيري (أعاد الشاعر العراقي الكبير عبد الرزاق عبد الواحد صياغة النص المترجم).

37: محمد بن أبي بكر بن عبد اللّه بن موسى الأنصاري التِّلمساني المعروف بالبُرِّي، **الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة** ـ نقحها وعلق عليها: د محمد التونجي، الأستاذ بجامعة حلب. الناشر: دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع ـ الرياض الطبعة الأولى 1983م.

38: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، المحقق: أحمد محمد شاكر ـ مؤسسة الرسالة 2000 م.

39: محمد بن سعد بن منيع أبو عبداللّه البصري الزهري، **الطبقات الكبرى**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت 1968.

40: محمد الطاهر بن عاشور **التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر1984.

41: محمد بن عبد اللّه الأندلسي (ابن عربي): **أحكام القرآن**، دار الكتب العلمية ـ بيروت 2003م.

42: محمد بن عبد اللّه بن العربي، **أحكام القرآن**، تحقيق: علي البجاوي ـ. دار المعرفة 1407 هجرية.

43: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير** ـ دار المعرفة 2004م.

44: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، **جمهرة أنساب العرب** ـ تحقيق: لجنة من العلماء ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت الطبعة الأولى، 1403هـ/ 1983م.

45: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، **سنن الترمذي** ـ مصدر الكتاب: موقع الإسلام

http://www.al- islam.com

46: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي ـ **تاج العروس من جواهر القاموس** ـ تحقيق مجموعة من المحققين ـ دار الهداية.

47: الإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق** لابن عساكر، تحقيق روحية النحاس ورياض عبد الحميد مراد ومحمد مطيع الحافظ ـ دار الفكر دمشق ـ الطبعة الأولى 1404 هجرية.

48: مصعب الزبيري، **نسب قريش** ـ

مصدر الكتاب: موقع الوراق http://www.alwarraq.com

49: نجم الدين إبراهيم بن علي الحنفي الطَّرَسوسي، **تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك**، تحقيق: عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي.

مصدر الكتاب: موقع الوراق http://www.alwarraq.com

50: ياقوت بن عبد اللّه الحموي أبو عبد اللّه الحموي ـ **معجم البلدان** ـ دار الفكر ـ بيروت.

تورة نبئيم . كتوبيم . بعبريت . وءنكليت

THE SOCIETY FOR DISTRUTING HEBREW

SCRIPTURES 1Rectoty Lane. Edward. Middles H A87LF ENGLAND U.K.

سيرة ذاتية

* مفكر وباحث عراقي.
* ولد في بغداد 1952م.
* رئيس تجمع الأدباء والكتاب العراقيين، عضو في اتحاد الأدباء في العراق واتحاد الكتاب الهولنديين.
* مقيم هولندا.
* متخصص في الميثولوجيا (علم الأساطير) ودراسات الكتاب المقدس واللغة العبرية.
* شارك في مؤتمرات أدبية وفكرية عربية وعالمية منذ عام1974 وحصل على جوائز أدبية وشهادات تقديرية رفيعة.
* فاز مؤلفه (أبطال بلا تاريخ: الميثولوجيا الإغريقية والأسطورة العربية) بالجائزة الأولى للإبداع الثقافي كأفضل كتاب في الدراسات الأنثروبولوجية ـ الإنسانية والمستقبلية، القاهرة 2006م (مؤسسة الشاعر السعودي الراحل ناصر باشراحيل).
* حاصل على درع الرواد والمبدعين العرب (مهرجان وملتقى الرواد والمبدعين العرب ـ من مؤسسات الجامعة العربية) 2008م.

نشر عددًا من المؤلفات في القصة والرواية والأدب والتاريخ الاجتماعي والسياسي العراقي والعربي والأنثروبولوجيا منها:

* الشيطان والعرش (رحلة النبي سليمان إلى اليمن) بيروت، شركة رياض الريس 1996م.

* إرم ذات العماد: البحث عن الجنة ـ بيروت، الريس للنشر 1999م.
* كبش المحرقة: نموذج مجتمع القوميين العرب (طبعتان): الريس للنشر، بيروت 2000م، دار الفرقد ـ دمشق 2006م.
* شقيقات قريش (الأنساب والطعام في الموروث العربي) بيروت، الريس للنشر 2001م.
* يوسف والبئر (أسطورة الوقوع في غرام الضيف) بيروت، شركة رياض الريس 2008م.
* أبطال بلا تاريخ: الميثولوجيا الإغريقية والأسطورة العربية (طبعتان) دمشق دار قدمُس للنشر، 2003م، والفرقد 2005م.
* قصة حب في أورشليم (غرام النبي سليمان بالإلهة العربية سلمى) دار الفرقد للنشر، 2005م.
* الجماهيريات العنيفة ونهاية الدولة الكاريزمية ـ دمشق، دار الأهالي 2005م.
* الخوذة والعمامة: موقف المرجعيات الدينية من الاحتلال الأميركي للعراق ـ دمشق، دار الفرقد 2006م.
* ما بعد الاستشراق: الغزو الأميركي للعراق وعودة الكولنياليات البيضاء ـ بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية 2007م.
* فلسطين المتخيّلة: أرض التوراة في اليمن القديم (مجلدان ـ خمسة كتب) دمشق، دار الفكر 2007م.
* الأسطورة والسياسة (بالاشتراك مع الباحث الراحل تركي علي الربيعو) منشورات دار الفكر ـ دمشق 2007م.
* العسل والدم: من عنف الدولة إلى دولة العنف، دار الفرقد، دمشق 2008م.
* من مجتمع القهوة إلى مجتمع الشاي: دولة الكانتون القبلي، دمشق، مركز الغد 2009م.

* المسيح العربي: النصرانية في جزيرة العرب والصراع البيزنطي الفارسي ـ بيروت 2009 شركة الريس للنشر.
* القدس ليست أورشليم: مساهمة في تصحيح تاريخ فلسطين، بيروت، الريس للنشر 2010م.
* غزال الكعبة الذهبي: النظام القرابي في الإسلام، جداول للنشر والترجمة ـ بيروت 2011م.
* المراثي الضائعة: مساهمة جديدة في تصحيح تاريخ فلسطين، جداول للنشر والترجمة ـ بيروت 2012م.
* حقيقة السبي البابلي، الحملات الآشورية على الجزيرة العربية واليمن، جداول للنشر والترجمة ـ بيروت2011م.
* إساف ونائلة: أسطورة الحب الأبدي في الجاهلية، جداول للنشر والترجمة ـ بيروت 2012م.
* المناحة العظيمة: الجذور التاريخية لطقوس البكاء في الجاهلية والإسلام، جداول للنشر والترجمة ـ بيروت 2011م.
* أسطورة عبور الأردن وسقوط أريحا .. من اخترع هذا التاريخ؟، جداول للنشر والترجمة ـ بيروت 2014م.

الكتاب

من هو دحية الكلبي الذي زعمت المرويات الإسلامية أنه جبريل؟ وأنه كان يأتي النبيّ في صورته كرجل بشري؟ في كتابه الجديد (جبريل والنبيّ) يفتح الكاتب العراقي فاضل الربيعي أبواب النقاش التاريخي والعلمي، حول صدقيّة (المرويات الإسلامية) وإمكانية إعادة تدقيقها والتحقّق مما نقلته لنا من تصورات وأفكار وشخصيات. وفي هذا السياق يثير الربيعي التساؤلات والشكوك بشأن (تاريخية) بعض الشخصيات الإسلامية، ويلاحظ أن شخصية دحية الكلبي لا وجود لها، وأنها تدور في نطاق **تراجيديا دينية كبرى في تاريخ الإسلام عن تحوّل الملاك إلى إنسان**، وقد سجّلتها المرويات العربية الإسلامية في مئات المصادر، لكنها لم تلفت انتباه دارسي الأدب القديم، ولا كتّاب التاريخ كذلك. ومع هذا، سوف تظل -برأي الربيعي- واحدة من أعظم التراجيديات الأدبية القديمة المكتوبة بلغة التاريخ الديني؛ فهي تتحدث عن **مأساة جبرائيل** يوم **هبط من السماء والتقى النبيّ** -ص-، ثم أصبح رجلًا له اسم بشري وينتسب لقبيلة من قبائل العرب. وهذه التراجيديا التي كُتبت كسردية تاريخية، دخلت في صلب التاريخ الرسمي للإسلام، وأضحت جزءًا عضويًّا من الرواية السائدة عن النبيّ وعلاقته بالوحي السماوي. بيد أنها قد لا تكون حدثت في الواقع قط، ذلك أن الشخصية التي يُزعم أنها لعبت الدور المركزي فيها، هي شخصية لا وجود لها، وقد تكون من تلفيق رواة العصر الأموي. وهؤلاء قدّموا تأويلات تعسفية لنصوص القرآن، لا عدّ ولا حصر لها، ومنها تأويل الآية التي تتحدث عن تحوّل الملاك إلى رجل بشري. كتاب مثير يستحق نقاشًا هادئًا وعلميًّا حول (التاريخ الرسمي للإسلام).


ISBN 978-614-418-200-0

